

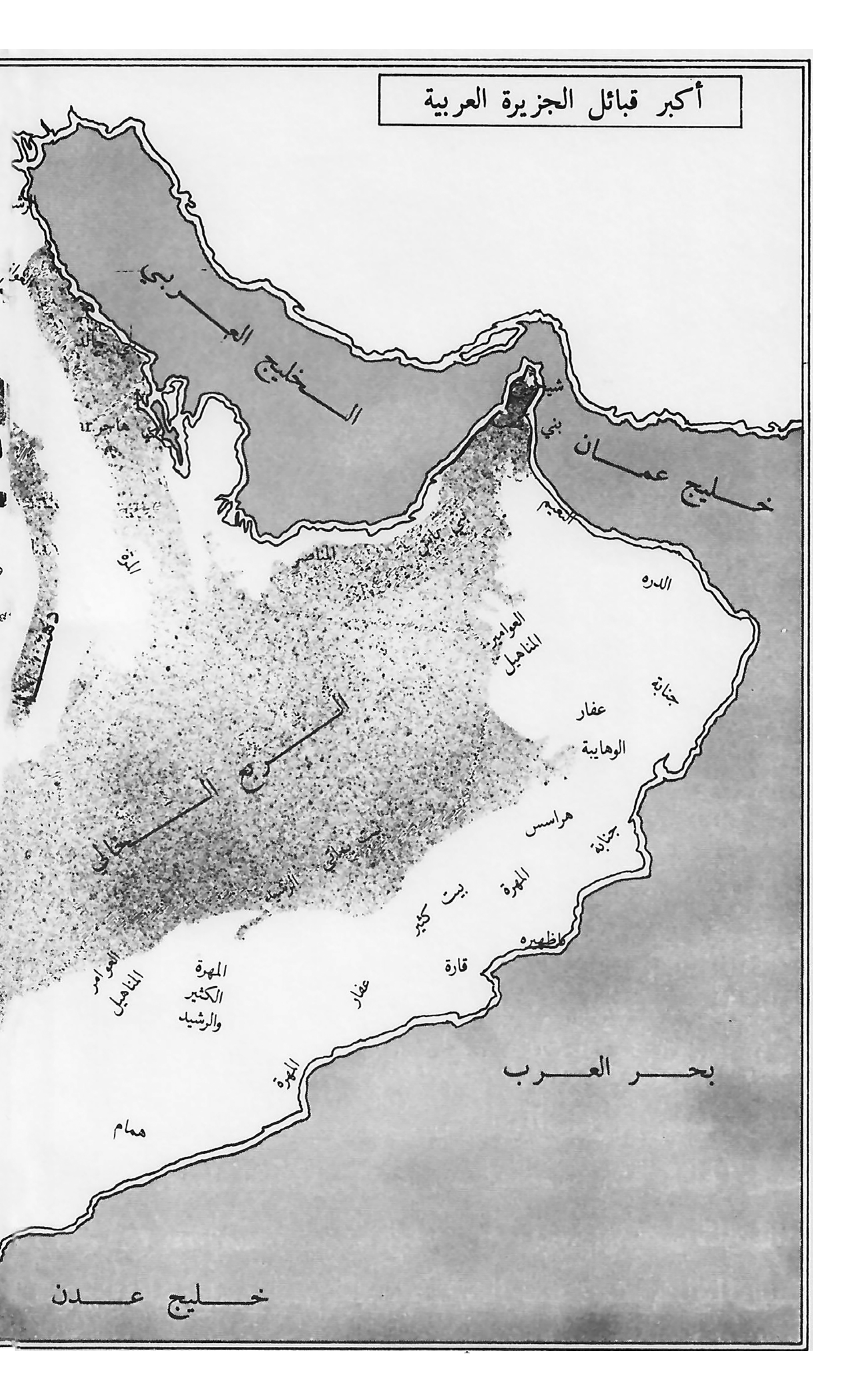
محمد المانع

توحيد المملكة العربية السعودية

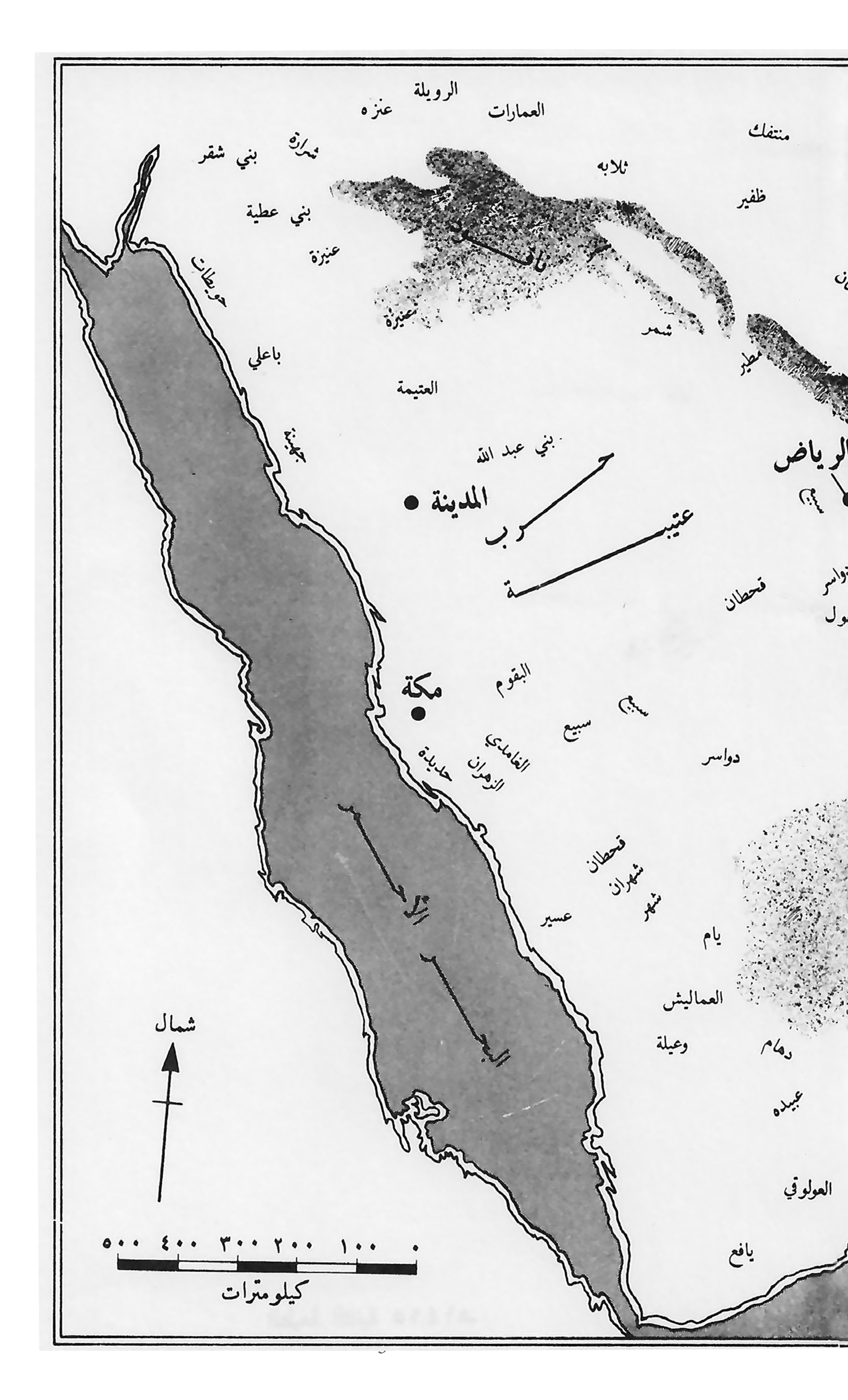
محمد المانع



ترجمة الدكتور
عبدالله الصالح العثيمين



أكبر قبائل الجزيرة العربية
الخليج العربي
خليج عمان
بني
العوامر
المناهيل
الدره
جنابة
عفار
الوهايبة
هراسس
جنابة
المهرة
بيت كثير
الظهيره
قارة
عفار
المهرة
الكثير
والرشيد
العوامر
المناهيل
المهرة
ممام
بحر العرب
خليج عدن



الرويلة
عنزه
العمارات
منتفك
شرارة
بني شقر
ثلابه
بني عطية
ظفير
عنيزة
حويطات
عنيزة
شمر
مطير
باعلي
العتيمة
جهينة
بني عبد الله
الرياض
المدينة
حرب
عتيبة
قحطان
مكة
البقوم
سبيع
سبيع
الغامدي
الزهران
حدبدة
دواسر
قحطان
شهران
شهر
عسير
يام
العماليش
وعيلة
دهام
عبيده
شمال
العولوقي
يافع
٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠
كيلومترات

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

المانع، محمد عبد الله

توحيد المملكة العربية السعودية/ ترجمة عبد الله بن صالح العثيمين.

رقم الإيداع: 15/ 1252





بسم الله الرحمن الرحيم



لعلّ من المسلّم به أن الكتابة عن الشخصيات التاريخية تتأثر بعوامل من أهمها المادة المتوفرة لدى الكاتب عمن يكتب عنه وموقفه الذاتي منه. فقد يكون لدى كاتب من المعلومات ما ليس لدى كاتب آخر. وقد يكون إعجاب أحدهما بمن يكتب عنه أعظم من إعجاب الآخر به. بل قد يكون الكاتبان على طرفي نقيض في مشاعرهما تجاه الشخصية التي يكتبان عنها. ومن هنا تعددت وجهات نظر الكُتّاب حول الشخصيات واختلفت آراؤهم في سيَرِها.

والكتاب الذي بين يدي القارئ الكريم يتناول سيرة زعيم من عظماء القادة في العصر الذي عاش فيه؛ هو المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود. ومؤلف هذا الكتاب ممن عمل مع ذلك الزعيم جنباً إلى جنب تسع سنوات، فسحرته بطولاته وأَسرته شخصيته. وكان العامل الأكبر في تأليفه له التعبير عن تقديره الخاص لذلك الملك. وكان مما دفعه إلى كتابته بالإنجليزية إيضاح وجهة النظر العربية للقارئ الغربي عن التاريخ الحديث للمملكة العربية السعودية.

والكتابة رواية تمتزج فيها الذكريات الشخصية بالآراء الذاتية عن حوادث الفترة التي تناولها والأدوار التي قام بها أبطالها. وقد وَفِّقَ مؤلِفهُ إلى إخراجه في عرض شيّق وأسلوب جذاب. وكان أن لقي رواجاً طيباً في الغرب خاصة في بريطانيا، حتى كادت تنفد طبعته الأولى في بضعة شهور.

وإذا كان قد أُلِّفَ أساساً من أجل القارئ الغربي فإن في ترجمته إلى العربية الشيء الكثير من الفائدة. ذلك أن القارئ العربي سيجد فيه معلومات ومتعة

لا توجدان في غيره من الكتب التي ألفت في موضوعه. والأمل كبير في أن يكون خروجه باللغة العربية بداية لكتابات أخرى عن تاريخ المملكة بأقلام الذين عاصروا الأحداث المهمة فيها واسهموا في صنعها.

ولقد كتبت عن الكتاب تعليقات كثيرة؛ اقتصر بعضها على العرض، وجمع بعضها الآخر بين العرض وإبداء الملاحظات حول بعض المسائل والآراء. وكنت قد كتبت عنه عرضاً موجَزاً باللغة العربية، كما كتبت دراسة مطولة باللغة الإنجليزية. واقتنع مؤلفه الفاضل بوجهة نظري في بعض المسائل، فعدلت حسب اقتناعه. ومن ذلك ما قمت به من تغيير كامل للملحق الثاني من الكتاب. لكن المؤلف لم يقتنع بوجهة نظري في مسائل أخرى فبقيت على ما هي عليه. على أن كل ما في الكتاب من معلومات وآراء أمور لا يحق لأحد، بطبيعة الحال، أن يدَّعيها سوى ذلك المؤلف الفاضل وحده. ولقد بذلت جهدي المستطاع في أن يكون النص العربي تعبيراً صادقاً عمّا كتبه باللغة الإنجليزية. وما توفيقي إلا بالله.

الرياض 3 رجب 1401هـ.

المترجم

الدكتور عبد الله الصالح العثيمين

تَلبَية

لبيك اللهم لبيك

لبيك لا شريك لك لبيك

إن الحمد والنعمة لك والملك

لا شريك لك لبيك





مقدمة

في مطلع هذا القرن كانت الزبير، مسقط رأسي، مدينة تعجّ بالحركة وتنعم بالرخاء لوقوعها على الطريق التجارية الرئيسية بين العراق ونجد. وكانت مدخل التجار النجديين، الذين يمثّلون غالبية سكانها، إلى العراق وما وراءها. وكان أبي، النجدي الأصل، يعمل في تجارة الخيول العربية. وكان أكثر زبائنه مهراجات الهند ورجال سلاح الفرسان البريطانيين. وحين بلغت العاشرة من عمري أخذني لأعيش معه في بومبي. وقد أمضيت هناك اثنتي عشرة سنة من حياتي؛ درست خلالها في إحدى المدارس الإنجليزية وتنقلت من مكان إلى آخر لتدبير الأعمال التجارية لأسرتي. لكنني مع ذلك كنت مهتماً جداً بشؤون موطني، جزيرة العرب، حيث ظهر قائد عظيم جديد اسمه عبد العزيز بن سعود. وقد سحرتني بطولات ذلك الرجل الفذّ فصممت على أن أقوم بخدمته وخدمة وطني.

وحين تركت المدرسة حاول أبي إقناعي بالبقاء في الهند ودراسة الطب. لكن فكري كان قد استقر على أمر آخر. كنت أريد أن أعود إلى الجزيرة العربية. وفي تلك الأثناء حاولت أن أجد عملاً لدى التجار في البصرة غير أني لم أُوفّق إلى ذلك حيث أُخبِرُت بأن مؤهلاتي كانت أعلى مما تحتاج إليه أعمالهم. وكان من يتكلمون الإنجليزية من سكان المنطقة حينئذٍ قليلين جداً، باستثناء اليهود وعدد من المسيحيين.

وفي خلال تلك الفترة كتبت عدداً من الرسائل التي قُبِلت للنشر في صحيفة "بصرة تايمز" الصادرة باللغة الإنجليزية. على أن بعضاً من تلك الرسائل كان قد كُتِب وأنا لا أزال في الهند. وكان رئيس تحرير تلك الصحيفة شاباً من ويلز سرعان ما أصبح صديقاً لي. وقد عرض عليّ عملاً في صحيفته أزاوله حتى أصبح أحد كتّاب مقالاتها فيما بعد.

ولسوء حظي فقدت ذلك العمل بعد فقرة قصيرة بسبب منافسات كانت جارية داخل مكتب الصحيفة المذكورة. وساءت حالتي المادية جداً. ولم يشأ والدي أن يساعدني لأنني لم أصغ إلى نصيحته فيما مضى. وذات ليلة كنت أصلّي بتضرّع وخشوع في البيت الذي كنت أقيم فيه في الزبير وإذا بأحد أقربائي يزورني. وحين علمت بأنه قد جاء عن طريق البصرة سألته عن آخر أنبائها. وكم كان فرحي عظيماً لما ذكر لي أن رجلين من ديوان ابن سعود كانا في تلك المدينة حينذاك.

ذهبت مباشرة إلى رئيس تحرير "بصرة تايمز" وسألته عمّا إذا كان يرغب في نشر مقابلة مع واحد من وزراء ابن سعود. فرحب بالفكرة، وبلغ من تحمسه لها أن اقترح عدة أسئلة يمكن أن أوجهها إلى ذلك الوزير. وفي اليوم التالي توجهت إلى البصرة وأجريت مقابلة ممتعة مع كل من الوزير عبد الله الدملوجي وحافظ وهبه. وبدافع مفاجئ سألت الدملوجي عند نهاية المقابلة عن إمكانية وجود عمل لي في ديوان ابن سعود. وقد أوضحت له أنني قد حصلت على مستوى علمي جيد في مدرسة إنجليزية في الهند، وأنني أتكلم اللغتين الإنجليزية والأردية بطلاقة، بالإضافة إلى لغتي العربية. فوعدني أنه سينظر في الموضوع. وبعد أسبوعين تسلّمت برقية تفيد بتعييني مترجماً في ديوان الملك. وكان جلالته حينئذٍ في مكة المكرمة. وقد وصلت إلى هناك في السادس والعشرين من شهر مايو سنة 1926م (1344هـ) وأنا لا أكاد أصدّق ما حدث لي من حظ سعيد. وهكذا بدأت فترة خدمتي مع الملك.

وبقيت مترجماً في الديوان تسع سنواتٍ كاملة كنت خلالها مرافقاً لجلالته في كل أسفاره وغزواته. وكانت تلك الفترة مليئة بالأحداث الكبيرة. فقد شهدت انبثاق نجم حركة الإخوان الصاعد ثم تمرّدهم ونهايتهم، كما شهدت الحرب مع اليمن وبداية قصة الزيت العربي. وحينما انتهت خدمتي في الديوان كان لديّ الشيء الكثير مما يمكن أن أقوله عن تجاربي الخاصة. وكان أصدقائي يحثونني على تأليف كتاب عنها. وظلت فكرة التأليف تراودني، لكني لم أشرع في تنفيذها إلا مؤخراً. ولعلّ مما دفعني إلى ذلك أن عدداً من أصدقائي الإنجليز أخبروني بأنهم

ملّوا قراءة الكتب والمقالات التي كتبها عن العرب وجزيرتهم أوربيون جعلوا من أنفسهم خبراء فيما يكتبون عنه بعد زيارة للجزيرة مدة لا تتجاوز بضعة أسابيع، وأنهم يعتقدون أنه قد آن الأوان ليكتب مواطن عربي كتاباً باللغة الإنجليزية يوضح فيه وجهة النظر العربية حول تاريخ بلاده الحديث. وهكذا بدأت بتأليف هذا الكتاب الذي يجعل من توحيد جزيرة العرب موضوعه الأساسي، ويروي قصة ابن سعود منذ استيلائه على الرياض سنة 1902 (1319هـ) حتى منتصف الثلاثينات من هذا القرن حينما بدأت ملحمة الزيت.

لقد دوّنت كتابات ممتازة باللغة الإنجليزية عن حياة ابن سعود وأعماله ولعلّ من أهمها ما كتبه الإنجليزي المشهور هاري سانت جون فيلبي، وإذا كان هدفي من هذا الكتاب ليس مجرد إعادة للمعلومات التي يمكن أن توجد في كتابات أخرى فإن أملي كبير في أن يملأ بعض الفجوات التي تركها المؤرخون. ولهذا فقد ركزت اهتمامي على أن أروي بنوع من التفصيل الأحداث التي اشتركت فيها شخصياً خلال سنواتي التسع في خدمة الملك. أمّا ما حدث قبل هذه السنوات فقد رويته بصورة موجزة إتماماً للفائدة. وقد فضّلت أن أعتمد في كتابة ما لم أشارك فيه من أحداث على الرواية الشفهية لأولئك الذين شاركوا فعلاً في صنعها بدلاً من الإشارة إلى ما كتبه المؤلفون عنها.

ومع الأسف الشديد فقد مضى الآن أكثر من أربعين سنة على تركي الديوان الملكي. وبمرور الزمن لم تعد ذاكرتي كما كانت من حيث القوة والكمال. وعلى أية حال فقد بذلت جهدي، وأملي أن يعذرني القارئ الكريم على ما قد يجده من أخطاء في هذا الكتاب دون قصد مني.

وختاماً لا بد لي من أن أذكر الدافع الأكبر لكتابتي هذا الكتاب وهو أني أردت أن أعبّر عن تقديري الخاص لذكرى ذاك الرجل الذين أصبحت معجباً به أكثر من إعجابي بغيره من الرجال: صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن فيصل آل سعود.





الفصل الأول

جزيرة العرب قبيل ابن سعود

قَالَ تَعَالَى:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾

سورة الأنبياء (92)



لعلّ من أعظم ظواهر التاريخ الحديث ظهور نفوذ الأقطار العربية وقوّتها، خاصة المملكة العربية السعودية الواسعة الأرجاء. فقد أخذ العالم في كل بقاع المعمورة يُبدي اهتماماً جديداً بهذه المملكة، وأصبح يُظهر تقديراً كبيراً لثروتها وقدرتها الاقتصادية وحكمة زعمائها. وقليل جداً من الأجانب هم أولئك الذين يعلمون أن البلاد التي يشملها الآن اسم المملكة العربية السعودية كانت حتى القرن الحالي بلاداً متفرقةً مكوّنة من ممالك صغيرة ومناطق نفوذ إمبريالية وقبائل متحاربة يتغيّر ولاؤها وحدودها بنفس السرعة وعدم الانتظام اللذين تتغيّر بهما رمال الصحراء. لقد تكوّنت هذه المملكة الحديثة من عدم، خلال الجزء الأول من هذا القرن، نتيجة المهارة العسكرية والحنكة السياسية لرجل واحد فذّ هو جلالة الملك عبد العزيز بن سعود.

ولكي يقدّر المرء المدى الكامل لإنجازات ابن سعود العظيمة، عليه أن يعرف شيئاً عن مجريات السياسة في جزيرة العرب عند مستهل هذا القرن، فقد كان معظم الجزيرة سنة 1900م تحت نفوذ أو حكم الإمبراطورية العثمانية التي كانت حينذاك ما تزال قوية رغم قرب نهايتها. ففي الشرق كان الأتراك يحتلون منطقة الأحساء على شاطئ الخليج العربي. وفي الغرب كانوا يحكمون الحجاز بواسطة الشريف حسين المنتمي إلى الأسرة الهاشمية. وكان هذا الشريف حقيقة دمية في أيديهم وإن كان مستقلاً من الناحية الإسمية. أمّا في الشمال فكانوا يسيطرون على الهلال الخصيب المشتمل على فلسطين وسوريا والعراق. كما أنهم حاولوا، أيضاً، أن يسيطروا على المنطقة الصحراوية في وسط جزيرة العرب بمساعدتهم للقبائل والحكام الذين بدوا لهم أقوى من غيرهم.

وعلى اية حال فإن هذا النجاح التركي كان مؤقتاً ذلك أنه لم يكن من السهل بسط النفوذ على البدو الرُحَّل الذين كانوا ينظرون إلى الأتراك على أنهم مُجرّد مصدر مريح لما يحتاجون إليه.

ولعلّه من غير الصحيح أن يوصف الحكم التركي خلال أكثر القرن التاسع عشر بأنه حكم قسريّ. فقد كان الأتراك مسلمين، وكانت الجزيرة العربية المكان الذي ولد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم. ولذا مال الأتراك إلى معاملة سكانها باحترام يليق بمن يسكنون أرضاً مقدسة، ومنحوهم قدراً كبيراً من الاستقلال الذاتي. بل إنه لم يكن من غير المألوف أن يدفع الأتراك مرتبات مستمرة للزعماء المحليين دون أن يتوقعوا شيئاً مقابل ذلك. لكن ما أن قربت بداية الحرب العالمية الأولى حتى أصبح الحكم التركي أقل تسامحاً وكرماً لظهور موجة جديدة من الإداريين الشُبّان من أعضاء تركيا الفتاة الذين حاولوا بحماقة أن يتدخلوا في أسلوب حياة العرب ويفرضوا عليهم عاداتهم التركية. فجعلوا تعليم اللغة التركية إلزامياً في المدارس المحلّية، وحاولوا أن يجبروا العرب على لبس الطربوش على رؤوسهم بدلاً من لباسهم التقليديّ. وقد استهجن العرب ذلك بصفة خاصة وقامت بسببه مظاهرات في كل البلاد العربية. وكان المتظاهرون يهتفون: "الموت ولا لبس الطربوش". وقد فقد كثيرون منهم حياتهم فعلاً لأن تلك المظاهرات كانت تجابه بعنف شديد، خاصة من قِبَل جمال باشا حاكم سوريا الكبرى. وعند بداية الحرب العالمية الأولى كان الأتراك قد جعلوا أنفسهم مكروهين بلا ضرورة. وبذلك بذروا بأنفسهم بذور الثورة العربية التي نظمها لورانس في الحجاز.

وفي مستهل هذا القرن كان هناك نفوذ إمبريالي مهمّ في جزيرة العرب وهو نفوذ بريطانيا العظمى. ومع أن بريطانيا لم تحتلّ أي جزء من المناطق التي أصبحت تسمّى المملكة العربية السعودية فإنها كانت مسيطرة على مسقط وعمان وعدن في الجنوب، وعلى مصر والسودان غرب البحر الأحمر. وكانت أيضاً، متعهدة بحماية عدد من المشائخ في المناطق المطلّة على الخليج العربي، خاصة الشيخ مبارك أمير الكويت. ولهذا لم يكن مستغرباً أن يهتم البريطانيون كثيراً بنشاط الأتراك في الجزيرة العربية وأن يكونوا دائماً يقظين لانتهاز أي فرصة تمكّنهم من القضاء على السيطرة التركية فيها.

وتستحق بلاد الحجاز عناية خاصة لأهميتها المتمثلة في كونها مركزاً دينياً وتجارياً مهمًّاً. وكانت السلطة فيها متمركزة في جدة والمدينة ؛ إضافة إلى البلدة المقدسة مكة المكرمة. ولأن كل مسلم ملزم بأداء الحج مرة في العمر على الأقل كان الحجاج يتدفقون إلى هذه البلاد. وكان مجيئهم يجلب معه تدفقاً عظيما من المال لجباة الضرائب والتجار، كما كان يحمل معه باستمرار الكثير من الأفكار الجديدة الموجودة خارجها. ونتيجة لذلك كانت الحجاز أكثر غنىً وتقدّماً من بقية مناطق الجزيرة العربية، كما كان سكانها مشهورين لدى عرب الصحراء المتقشفين بتساهلهم الأخلاقي.

أمّا بالنسبة لسكان وسط الجزيرة العربية فإن الإمبراطوريات والدول والحدود كانت مفاهيم لا تعني لديهم شيئاً كثيراً. كانت بلادهم الواسعة في معظمها، صحراء قاحلة أو ذات شجيرات صغيرة وكان بعضهم يعيشون في مدن صغيرة حول واحات قليلة بينما كان معظمهم بدواً رُحَّلاً يتنقلون بأسرهم وحيواناتهم من مرعى إلى آخر. ولقد انتجت الصحراء رجالاً اشداً معتزين بأنفسهم، لم يكن ولاؤهم لأيّ ملك أو إمبراطور بعيد عنهم وإنما كان في الدرجة الأولى والأتمّ لقبيلتهم ذاتها. وكان النظام القبلي العربي، وما زال، من أكثر الأنظمة دقة وتعقيداً. كانت كل قبيلة بصفة عامة تحتل منطقة محددة تحديداً تقريبياً، وتسيطر على مراعيها وموارد مياهها بحيث لا تمرّ عبرها قبائل أخرى إلا بإذنها أو بقوة السلاح. وهذه القبائل كثيرة لكن بعضها بلغ درجة من الأهمية تستحق الإشارة إليها هنا.

كانت عتيبة القبيلة المسيطرة على المناطق الممتدة بين الرياض ومكة وما يليها جنوباً حتى إقليم عسير. وكانت مطير القبيلة الرئيسية في المنطقة الممتدة ما بين المدينة والكويت. وكان قسم منها، يسمّى بني عبد الله، يعيش بين المدينة وعنيزة وفي وسط البلاد كانت قبيلة حرب التي كانت لها فروع في الحجاز وفروع أخرى في نجد. وكان قسم من قبيلة سبيع يعيش حول الرياض بينما كان قسم آخر منها يعيش في جنوبي الحجاز وعسير. وكانت قبيلة قحطان تحتل المناطق الواقعة جنوب الرياض حتى الربع الخالي كما كان يوجد لها فروع في المناطق

الجنوبية من الحجاز وتعتبر هذه القبيلة أمّ القبائل كلها إذ تعتبر أقدم قبيلة في الجزيرة العربية. وتعيش في منطقة جبل شمر قبيلة شمر التي يشتهر رجالها بالكرم والقوة والشجاعة، كما تشتهر نساؤها بالجمال.

ولم يكن عدد القبائل المختلفة كثيراً فحسب؛ بل كانت كل قبيلة تنقسم إلى قسمين كبيرين على الأقل. ومن المحتمل أن معظم القبائل قد تشكلت منذ قرون، وذلك حينما نجحت أسر قوية في تكوين جماعات خاصة من أتباعها. وربما وجد ابنان في أسرة واحدة فتزّعم كل واحد منهما قسماً من القبيلة بعد وفاة أبيهما فاستمرت عملية الانقسام الداخلي من جيل إلى آخر. ولعلّ أقرب مثال على ذلك قبيلة عتيبة، فهي تنقسم إلى فرعين رئيسيين أحدهما بَرْقا والثاني الرُّوقة، ولكلٍ من هذين الفرعين فروع أخرى متعددة. فبرقا - مثلاً - تشتمل على المقطة والنفعة والدهينة والعصمة. وكل فرع من هذه الفروع ينقسم إلى عدة أقسام، وعلى هذا النمط تتكوّن كل القبائل. وغالباً ما كان أحد فرعي القبيلة الرئيسيين أكثر قوة ونجاحاً من الآخر فيعتبر الفرع الأساسي أو السائد فيها. وكل رجل يطمح في أن يصبح ملكاً عظيماً في وسط جزيرة العرب كان يحتاج إلى معرفة موسوعية بتشكيل كل قبيلة وما يوجد في داخلها من منافسات. ذلك أن مبدأ "فرّق تسد" يمكن أن يستخدم إلى مدى بعيد بين القبائل المختلفة وبين الفروع المتعددة في القبيلة الواحدة. ولم يكن ابن سعود يعرف دقائق النظام القبلي العربي معرفة تامةً فحسب وإنما كان يعرف، أيضاً، كيف يستخدم المنافسات بين القبائل لمصلحته. فهو كثيراً ما جعل الفروع الأقل قوة من القبائل الكبيرة تتحالف معه ضد الفروع الأكثر قوة من تلك القبائل.

وكانت هناك حالة حرب مستمرة لمدة قرون بين القبائل المختلفة وأحياناً بين فروع القبيلة الواحدة. ولكنها لم تكن حرباً مشابهة للحروب الأوروبية التي تدور فيها معارك طاحنة وتقع فيها ضحايا مروّعة. كانت في أغلب الأحيان تتخذ شكل غزوات على الجيران للاستيلاء على الحيوانات والغنائم، فيردّ أولئك الجيران بغزوات مضادة تتخللها وتتلوها حالات ثأر من الجانبين. وكان الأفراد يقومون بتلك الغزوات عل أنها نوع من الرياضة أكثر من كونها نتيجة كراهية

حقيقية للعدو. ولذلك فقد كانت تسلية محبوبة لديهم يخفّفون بها من رتابة حياة الصحراء وقسوة المعيشة فيها. وكانت المعارك، عادة، تجري على نطاق ضيق فيُكتَفَى منها بما يعتبر رداً لكرامة دون أن يتضرر سوى عدد قليل من القوم. فحروب الصحراء تكاد تشبه لعبة الشطرنج حيث يستطيع القائد الأكثر مهارة وانتباهاً القضاء على منافسه في نهاية الأمر.

ولقد كان من المستحيل الاعتماد على البادية في بناء مملكة. فقد حاول كثير من العظماء في الجزيرة العربية أن يوحّدوها تحت ظل حكومة واحدة لكن لم ينجح أحد منهم لمدة طويلة. وكانت المشكلة تكمن في أن رجال القبائل لديهم نزعة استقلالية حادة، ولا يكنّون ولاء لأيّ شخص ليس منهم. وكانوا يقدّرون أعظم التقدير القوة والشجاعة وحسن القيادة والحظ. فمن تتوفر لديه هذه الصفات بقدر عظيم فإنه يستطيع، لمدة من الزمن، أن يوحّد عدة قبائل أو عدة فروع قبلية ويبدأ في تكوين مملكة خاصة به. لكن النصر ذاته كان في العادة يحمل بين طيّاته بذور الهزيمة. ذلك أن أتباع الرجل العظيم ما أن يحصلوا على غنائم كافية حتى يختفوا في الصحراء مع ما غنموه. ولذا فقد كان على كل زعيم يريد أن يحافظ على بقاء مؤيديه بجانبه أن يستمر في غزواته وأن يبقي على انتصاراته. فإن خسر معارك أو توقف عن الغزو ليجمع أنفاسه فقدوا الأمل وحلّ بهم الملل فتخلوا عنه. وقد استولى الكثير من الأبطال المشهورين على مناطق في الجزيرة العربية لكن لم يجد واحد منهم صيغة تكفل الاحتفاظ بحكمها.

وكان يوجد في وسط الجزيرة العربية أسرتان بارزتان ظهر فيهما قادة عظماء؛ أحدهما آل رشيد ومركزها مدينة حائل الواقعة في جبل شمّر، والثانية آل سعود التي كان مقرها مدينة الرياض والتي كان لها تاريخ متميز عن غيرها. ففي سنة 1744م، تحالف محمد بن سعود، أمير بلدة الدرعية المغمورة حينذاك، مع محمد بن عبد الوهاب المصلح الديني العظيم وبدأ الجهاد الذي مكنّه من توسيع نفوذه في الجزيرة العربية. وقد ظلت الدولة التي أنشأها حتى قضي عليها سنة 1818م (1233هـ). ثم عادت من جديدة بزعامة تركي ابن عبد الله بن محمد بن سعود الذي ينحدر منه عبد العزيز ابن سعود مباشرة. وفي

الربع الأخير من القرن التاسع عشر بدأتا أسرتا آل رشيد وآل سعود تتصارعان من أجل السيادة على وسط الجزيرة العربية. وكان تاريخ الأسرتين متداخلاً. ففي سنة 1834م (1251هـ) عيّن فيصل بن تركي، جد ابن سعود، أحد أفراد آل رشيد أميراً على جبل شمَّر. وفي الوقت الذي تبدأ فيه قصتي المدوّنة هنا كان نجم آل رشيد يزداد صعوداً. فبعد معارك ناجحة تمكن محمد بن رشيد سنة 1891م من الاستيلاء على الرياض، التي كان يحكمها حين ذاك عبد الرحمن بن فيصل. وكان في إمكان عبد الرحمن أن يبقى أميراً عليها تحت ظل آل رشيد، لكنه فضّل أن يعيش بعيداً عنها على تبعيته لهم. وقد اصطحب معه إلى المنفى بعضاً من أتباعه وابنه عبد العزيز الذي كان عمره حينئذٍ عشر سنوات. وقد بلغت هزيمة آل سعود حداً جعل الكثيرين لا يفكرون في احتمال ظهورهم من جديد.

وظل محمد بن رشيد يحكم نجداً حكماً يكاد يكون حكم ملك مطلق التصرف حتى وفاته سنة 1897م. فقد عيّن أمراء في البلدان التي استولى عليها والتي كانت خاضعة لآل سعود، كما حصل على أموال وأسلحة من الأتراك رغم أنه على الأرجح لم يعطهم شيئاً يذكر مقابل ذلك. وحينما توفي خلفه في الحكم ابن أخيه، عبد العزيز بن متعب الذي لم يكن يتوقع أية متاعب من آل سعود. لكن من سوء حظه أن الشاب عبد العزيز بن سعود كان قد ترعرع وأصبح رجلاً يتّصف بالشجاعة والمزايا التي كان يتّصف بها أجداده، كما يتّصف بصفات زعامة ملهمة استطاعت أن تبني مملكة ثابتة الأركان في هذه الصحراء عزّ على غيره أن يبني عليها مثلها. فبعد تسع سنوات فقط تمكّن هذا الأمير الشاب من أن ينتزع من ابن رشيد كلاً من حياته وما ورثه من حكم، وتهيأ له أن يمضي في طريقه ليصبح أعظم ملك عرفته جزيرة العرب وما هذا الكتاب إلا رواية جزء يسير من هذه القصة الباهرة.





الفَصْلُ الثَّانِي

الإِسْتِيلاءُ عَلَى الرِّيَاضِ

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ   وَأَيْقَـنَ أَنَّا لاَحِـقَانِ بِقَيْصَـرَا

فَقُلْتُ لَهُ لاَ تَبْـكِ عَيْنُكَ إِنَّمَـا   نُحَاوِلُ مُلْكاً أَوْ نَمُـوتَ فَنُعْـذَرَا

(امرؤ القيس)



حينما جلت أسرة آل سعود من الرياض سنة 1890م التجأت أول الأمر إلى البحرين حيث رحّب بها حاكمها الشيخ عيسى بن خليفة. وقد شعر هذا الشيخ بمودّة تجاه الأمير الشاب، عبد العزيز، وأصبح صديقاً ومستشاراً له طيلة حياته. ومع أن ترحيبه بالأسرة السعودية كان عظيماً وأن ضيافته لها كانت كريمة فإنه لم يكن في مقدوره ما يعمله ليساعدها في استعادة حكمها. ومن هنا فإن عبد الرحمن بن فيصل قرر بعد فترة قصيرة ألا يركن إلى الراحة. فذهبت الأسرة وأتباعها إلى قطر حيث اتضح، أيضاً، عدم فائدتها كقاعدة قوة. وكان أن قضت الأسرة زمناً تتنقل مع قبيلة آل مُرّة في الربع الخالي وكان لدى عبد الرحمن آمال في أن يستطيع إقناع رجال القبيلة هناك ليقوموا بثورة علنية. لكن آماله لم تتحقق. ذلك أنه كان لدى أولئك البدو الأشداء من مشاكل حياتهم في تلك الصحراء المقفرة ما يكفيهم عن الاهتمام بمن يسيطر على مدينة الرياض البعيدة عنهم. وفيما عدا بعض الغزوات المتقطعة لم ينجز عبد الرحمن من الأعمال ما يمكن أن يؤثر حقيقة في سلطة آل رشيد. لكن الإقامة في الربع الخالي لم تخل من فائدة؛ فهو من أشدّ الصحاري على وجه الأرض قسوة. والبقاء فيه والتجوال حوله والقتال عليه أمور تحتاج إلى مهارة فائقة. ورجال قبيلة آل مُرّة لديهم هذه المهارة. وقد لقّنوا الشاب عبد العزيز كثيراً منها. وهكذا اكتسب ذلك الأمير خبرة في أمور الصحراء ستظل مفيدة له فائدة عظيمة طيلة حياته.

وأخيراً وجدت الأسرة السعودية لها ملجأً ثابتاً في الكويت حيث حلّت في ضيافة آل صباح. وهناك أمضى عبد الرحمن بن فيصل وابنه حوالي عشر سنوات

بلغ الأمير عبد العزيز خلالها سن الرجولة. ولا شك أن الشيخ مباركاً كان يعتبر استضافته للأسرة السعودية ذات الشهرة العالية عملاً جليلاً يرفع مكانته في وسط جزيرة العرب. ومن المؤكد أنه كان يطمح إلى توسيع نفوذه بمساعدته لعبد الرحمن وابنه على محاربة ابن رشيد. ولهذا السبب أمدَّهما بالرجال والإبل والمؤن ليقوما بغزوات متعددة داخل نجد. وقد استطاع عبد الرحمن، أيضاً، أن يحصل على مساعدة مالية صغيرة على شكل تقاعد من السلطات التركية في البصرة. وقد يبدو هذا الأمر غريباً إذ كان الأتراك، أيضاً، يساعدون ابن رشيد. لكن من الواضح أنهم لم يكونوا مخادعين أو أغبياء. كانت سياتهم ببساطة أن يقدّموا مساعدة لأي أمير عربي يبدو جديراً بها. وكانت السياسة الداخلية في جزيرة العرب في وضع لا يتوقع من الأتراك أن يدركوا خفاياه ويعرفوا من كان من الزعماء يغزو الآخر في الصحراء.

ولما بلغ الأمير عبد العزيز بن سعود عشرين سنة من عمره كان قد اتضح أن الله قد ميزه عن غيره وهيأه لأمور عظيمة. كان يمتاز عن رفاقه من حيث التكوين الجسماني إذ كان طول قامته ستة أقدام وبوصتين. وهذا طول أخَّاذ غير عادي بالنسبة لرجل من صحراء بلاد العرب. وكان كل شيء آخر من ملامحه في مستوى عظيم؛ من أنفه القويّ البارز إلى شفتيه الممتلئتين، إلى لحيته الجميلة. فكانت لديه الهيئة الطبيعية للملوك. وكان جميلاً جليلاً في حركاته. أمّا بالنسبة للفروسية فكان من عظمائها، وكان منذ صباه يحمل جاذبية وعظمة يتعذر على من عرفهما أن يصفهما بالكلمات المجردة. وباختصار كان قد ولد قائداً. وقد تمكن وهو لا يزال في الكويت أن يجتذب إليه مجموعة لها وزنها من الأتباع الشخصيين.

وما أن حلّت سنة 1900م حتى اقتنع الشيخ مبارك بمساعدة عبد الرحمن بن فيصل في حملة عسكرية كبيرة ضد ابن رشيد. كان مبارك في وضع قوي لأنه متصل بالخليج العربي بينما كان ابن رشيد محصوراً في نجد. ومن المحتمل أن الشيخ مبارك كانت تراوده، حينذاك، آمال في ضم جزء من وسط الجزيرة العربية إلى نفوذه. ومن هنا جهّز جيشاً ضخماً فيه عدد من زعماء قبائل مهمة،

كفيصل الدويش، واتّجه نحو القصيم. لكن بالرغم من انضمام مجموعة قوية من قبيلتي العجمان ومطير إلى الحملة فإن نهايتها كانت كارثة. ذلك أن عبد العزيز بن رشيد هزم الشيخ مبارك وعبد الرحمن بن فيصل في معركة الصريف قرب بريدة. ثم تعقّب فلول جيشهما إلى الكويت دون هوادة. ولم يستطع الشيخ مبارك أن يصدّ هجوماً على الكويت ذاتها إلا بإقناع البريطانيين أن يرسلوا طرَّاداً بحرياً يقصف معسكر ابن رشيد مما أجبر هذا الأخير على أن ينسحب إلى عاصمته حائل.

وكان الشيخ مبارك قد اتفق مع الأمير عبد العزيز بن سعود، قبيل معركة الصريف على أن يتجه الأمير نحو الرياض بينما يتجه مبارك وعبد الرحمن بن فيصل لمحاربة ابن رشيد في القصيم. وكان هذا الإجراء يهدف إلى أمرين: إشغال الخصم بمعارك جانبية، وتمكين الأمير من اختبار حظه في استعادة الرياض عاصمة أجداده. وبينما كان الأمير في طريقه نحو الجنوب هاجم فريقاً من قبيلة قحطان كان في روضة سدير، وقتل زعيمه نزهان بن مريحة. ثم هاجم فريقاً آخر من قحطان كان بزعامة فيصل بن حشر آل عاصم. وحين وصل إلى الرياض لم يلق مقاومة، فاستطاع أن يدخلها برجاله. وكان أهل الرياض توّاقين لاستقبال أي فرد من آل سعود لشدة تبرّئهم من حكم آل رشيد. وقد لجأ أمير ابن رشيد، عبد الرحمن بن ضبعان، مع رجاله إلى قلعة المدينة حيث تمّ حصاره. وحين رأى عبد العزيز أن الحصار قد يطول حاول أن يحفر نفقاً تحت القلعة. لكنه علم بعد ثلاثة أيام بهزيمة أبيه والشيخ مبارك في الصريف فدعا كبار أهل الرياض وأخبرهم أنه ذاهب ليجمع أعواناً من القبائل المجاورة ثم يعود إليهم. وكان ذلك في الحقيقة مجرّد حجة لمغادرة المدينة بعد أن أصبح موقفه حرجاً حينذاك. أمّا أمير ابن رشيد فكان لا بد له أن يظل محصوراً في القلعة مع رجاله مثل "أرانب في جحرها" على حد تعبير ابن سعود. وبعد أن غادر عبد العزيز الرياض اتجه جنوباً نحو يبرين على حافة الربع الخالي، ومضى من هناك إلى قطر حيث أبحر مع عدد قليل من رفاقه إلى البحرين ثم عاد إلى الكويت. وكان حينذاك قد استنتج أنه لا يمكنه الاعتماد على قيادة الشيخ مبارك، وأن عليه أن يضع مستقبلاً،

خطّته الخاصة به للاستيلاء على الحكم. وقد عزم على أن يقوم بحملة أخرى ضد الرياض في المستقبل القريب دون أن يطلب مساعدة الشيخ مبارك.

كان والد الرجل الذي حدّثني بالقصة السابقة يُدعى عبد العزيز بن جاسر آل ماضي. وكان في ذلك الوقت أميراً لروضة سدير. وقد مُنِع هو ورجال بلدته حامية ابن رشيد من إطلاق النار على ابن سعود حينما قامت قواته بمهاجمتها وأخبر ذلك الأمير رجال الحامية المذكورة بأنهم إذا كانوا يريدون أن يقاتلوا ابن سعود فعليهم أن يقوموا بذلك بعيداً عن بلدته. ونتيجة لذلك بعث ابن رشيد سليمان القريشي لمعاقبة الأمير وسكان البلدة لعدم ولائهم له، كما أظهر غضبه على ابن ضبعان فعزله عن إمارة الرياض وعيّن فيها رجلاً اسمه عجلان بدلاً منه.

ولقد كان من الواضح أن حظ الأسرة السعودية قد وصل إلى أدنى مستوى في الوقت الذي انسحب فيه عبد العزيز بن سعود ليلتحق بأبيه في الكويت، فلم يعد الشيخ مبارك ميّالاً إلى القيام بمغامرة عسكرية أخرى. ومع أن عبد العزيز وأباه كانا لا يزالان موضع الترحيب في الكويت فقد اتضح أن رصيدهما من النوايا الطيبة يتلاشى تدريجياً. وكان عبد العزيز، فيما بعد، يقول أنه كان يشعر بأن في وجوده ثقلاً على السكان وأن هذا الشعور ازداد قوة لديه بعد معركة الصريف. ففي الكويت، كما في كل مكان آخر من جزيرة العرب، كان من عادة الأسرة المختلفة أن يتزاوروا في مجالسهم خلال ساعات المساء. وكان من العادة أن يُعْطَى ابن سعود مكان الصدارة في مجالس أصدقائه الكثيرين. لكنه لاحظ بعد معركة الصريف أن هذا الأمر قد بدأ يقلّ حدوثه. فأدرك أن مكانته تتضاءل بسرعة لا في الكويت وحدها وإنما في نجد أيضاً. ولكي يحقق آل سعود أي انتصار على ابن رشيد كان عليهم أن يحصلوا على مساعدة القبائل التي تعيش في المناطق الخاضعة لحكمه. ولكن عبد العزيز بن سعود كان يعتقد أن هذا الأمر لن يتحقق في زمن قصير. وكان يدرك أن أحسن وسيلة، أو أن الوسيلة الوحيدة، لاستعادة مكانته أن يقوم بهجوم مفاجئ جريء داخل أراضي ابن رشيد يثير به إعجاب رجال القبائل ويمكنّه من كسب الأتباع الذين يحتاج إليهم. ولذا فقد قرر أن يحاول الاستيلاء على الرياض رغم أن ذلك قد بدا فكرة انتحارية.

وكان اختيار مدينة الرياض مهمّاً لأنها كانت مقر حكم آل سعود، وكان لا يزال يوجد في منطقتها تأييد كبير لعبد الرحمن بن فيصل. أمّا بالنسبة لابن رشيد فلم تكن تلك المدينة ذات أهمية خاصة. وكانت، كغيرها من المدن التابعة له تدار من قِبَل حاكم تساعده حامية صغيرة. ولعله من الإنصاف لكل من حاكمها عجلان وابن رشيد نفسه أن يقال أن أهل الرياض لم يكونوا يحكمون بطريقة تعسفية خاصة خلال السنوات التي كانت فيها مدينتهم تحت حكم آل رشيد. ومع ذلك فقد كان هناك زعماء ورجال قبائل كثيرون غير راضين بالتبعية لابن رشيد، وكان يسعدهم جداً أن يروا آل سعود يستعيدون مكانهم الشرعي في نجد.

ومن المحتمل جداً أن مدينة الرياض كانت سنة 1901م مثلما كانت سنة 1926م حينما التحقت بخدمة جلالة الملك. كانت محاطة بسور خارجي مبني من الطين يبلغ ارتفاعه حوالي عشرين قدماً وفي جهة من جهاته الأربع بوابة ضخمة. وكانت المدينة ذاتها صغيرة لدرجة أن عرضها لم يكن، على الأرجح، أكثر من ألف وخمسمائة متر في أوسع نقاطه. وكان في داخلها طرقات متعرجة يبلغ ضيق بعضها حدّاً يجعل من الصعب أن يسير فيه رجلان جنباً إلى جنب.

وكانت المساحة المفتوحة الوحيدة فيها هي السوق المركزي الذي كان يطل عليه الجامع الكبير من جانب ويطل عليه القصر الذي كان قد اغتصبه ابن رشيد من الجانب الآخر. وكان يوجد قربه سوق صغير معدّ للنساء. وكانت جميع بيوت المدينة مبنية من لَبِن الطين. وكان حوالي نصفها من طابقين. أمّا بقيتها فكانت من طابق واحد. وكانت الجهة الخارجية لجدرانها خالية من أية معالم سوى نوافذ صغيرة ترى في بعضها أحياناً.

وكانت مدينة الرياض قبل سنة 1890م محاطة ببساتين النخيل البديعة. لكن حينما حاصرها محمد بن رشيد قطع كثيراً من أشجارها دون مبرر. وكان ذلك العمل مما غرس البغض المستمر له في نفوس السكان. وكانت عملية اقتحام ابن رشيد لاستحكامات المدينة قد سبّبت أضراراً بالغة لسورها الخارجي.

ولم يفكّر هو ولا ابن أخيه من بعده أبداً بأنه يستحق أن يصلح من جديد. فظلت مواضع كثيرة منه متهدمة. ومع ذلك بقيت المدينة صعبة الاقتحام. كان في كل بوّابة من السور برج يحتلّه رجلان أو ثلاثة رجال للحراسة. ومع أن جدران السور كانت بدون حراسة فقد كان بالإمكان إرسال رجال إليها بسرعة ما دعت الضرورة. وكان في داخل المدينة قلعة مركزية قوية تضم حامية مكونة من خمسين أو ستين رجلاً ونتيجة لهجوم عبد العزيز بن سعود الأول على الرياض كان يدرك أنه لا يملك القوة الكافية للاستيلاء عليها بالقوة. ومن هنا خطط أن يستولي عليها بالحيلة.

ومرة أخرى اتصل ابن سعود بالشيخ مبارك طالباً مساعدته، خاصة بالإبل التي كان يحتاج إليها. ومن المحتمل أنه أخبره بأنه يخطط لغزو، لكنه لم يشر إلى حقيقته لئلا يجعله يظن أن نجاحه بعيد الاحتمال وأعطاه الشيخ على مضض ما كان يريده من الإبل. ولم يكن مستغرباً أنه لم يعطه أحسن إبله، وإنما أعطاه من حثالتها أربعين بعيراً مريضة كبيرة السن. واختار الأمير عبد العزيز عدداً قليلاً من أتباعه المخلصين ليسيروا معه وفي نهاية عام 1901م، وعمره لا يتجاوز إحدى وعشرين سنة، كان مستعداً ليقوم بمغامرته الكبرى. [1]

أمضى ابن سعود ورفاقه حوالي عشرة أيام منذ انطلاقهم من الكويت حتى وصلوا إلى الرياض. وكانوا يسيرون ليلاً ويختفون نهاراً بين الصخور وكثبان رمال الصحراء. وحين وصلوا إلى ضواحي الرياض في يناير سنة 1902م كمنوا بين الشجيرات الموجودة هناك حتّى خيّم عليهم الليل. ولما كان يتحلّى به عبد العزيز طيلة حياته من احتفاظ بسرّ تحركاته فإنه لم يطلع أحداً على حقيقة نواياه حتى تلك اللحظة. وفي هجعة الليل خاطب رفاقه بقوله: أصدقائي الكرام المخلصين. إني عازم على دخول المدينة والاستيلاء عليها هذه الليلة. فمن يرغب مرافقتي فأهلاً وسهلاً. ومن هو متردد فليبق في مكانه. وإذا طلع الفجر ولم تتلقوا مني أية كلمة فاهربوا لإنقاذ حياتكم. وإذا كتب لنا النجاح فمن أراد أن ينضم إلينا فحيّاه الله.

1) لأن الرجال الذين رافقوه في مغامرته مهمون في تاريخ بلادنا فقد أفرد الملحق الخامس من هذا الكتاب لذكر أسمائهم.

ولقد بدا طلب عبد العزيز ميؤوساً منه لدرجة أنه لم يتطوع لدخول المدينة معه إلا حفنة من رجاله في طليعتهم ابن عمه عبد الله بن جلوي. وقاد الأمير هذه القوة الصغيرة إلى جانب من السور كان يعلم أنه مناسب لهدفه. واستطاعت تلك القوة بالحبال والكلاليب الحديدية أن تتسلّق السور وتدخل إلى المدينة دون أن يلاحظها أحد. وكان كثير من بيوت الرياض ملاصقاً لسورها لدرجة أن السور ذاته كان يشكل الجزء الخفي منها. وحين تسلّق الأمير وأصحابه السور هبطوا على سطح بيت رجل كان خادماً في القصر أيام حكم أبيه. وكانت زوجة ذلك الرجل في حقيقة الأمر قد ربّت الأمير في أيام طفولته. ولما نزل مع رجاله من سطح البيت إلى باحته وجدوا المرأة تعتني بمعزها فصاحت: من هناك؟ فقال لها الأمير: "بس. ما فيه غير عبد العزيز". وحين أدركت أن ذلك كان حقيقة فاضت دموعها من الفرح ورحبت به ترحيباً حاراً. فقال لها الأمير يكفي ما سمعته من كلمات الترحيب وأخبريني بكل ما تعلمين عن عجلان أمير الرياض. ومرت فترة قصيرة قبل أن تدلي المرأة بما لديها من معلومات. وحين هدأت من صدمتها صارت حريصة على أن يشاركها ضيوفها غير المتوقعين حليب معزها. لكن عبد العزيز أصرّ على أن تجيبه أولاً عما طلبه منها. فأخبرته أن من عادة عجلان أن ينام ليلاً في القلعة التي كانت بطبيعة الحال موصدة الأبواب كثيفة الحراسة. وبعد صلاة الفجر كل يوم يخرج من القلعة عن طريق بوّابتها الرئيسية ويدخل بيتاً مقابلاً لها تماماً كان يمتلكها وتسكنه إحدى زوجاته[2]. وكان من الواضح أن تلك اللحظة أنسب وقت لمداهمة عجلان. ومن هنا قرر الأمير أن يضرب ضربته خلالها.

تسلّل عبد العزيز ورجاله دون أن يراهم أحد عبر الشوارع الصامتة ودخلوا بيتاً خالياً قرب بيت زوجة عجلان. ثم صعدوا إلى سطحه وقفزوا من السطح إلى آخر حتى وصلوا إلى بيت الزوجة المذكورة. وبهدوء تام دخلوا غرفتها. وقد عثر أحدهم فأيقظها. لكن قبل أن تتفوّه بأية كلمة وضع عبد العزيز يده على فمها وهمس إليها أن تصمت، وأخبرها أن حياتها ستكون آمنة إن هي لزمت الصمت

2) كانت من أسرة الحمد من أهل الرياض. ويقال إنها أخت للملك عبد العزيز من الرضاعة.

والهدوء. وحينئذٍ أخذ هو ورجاله يشربون من قهوة عجلان. وظلوا ينتظرون بزوغ الفجر وظهور عدوهم من القلعة. وكان بناء البوّابة الرئيسية للقلعة بناءً تقليدياً. كانت كبيرة بحيث تكفي أن يمرّ عبرها عدد كبير من الرجال والإبل. وفي وسطها خوخة تحت الحراسة الدائمة. وكانت هذه الخوخة مصممة على أساس ألا يمرّ عبرها الإنسان إلا إذا أحنى رأسه مما يتيح للحارس أن يتغلّب عليه دون صعوبة إذا اتضح أنه غير مرغوب فيه. ولم يكن هناك سوى بضع ياردات بين تلك البوابة وبين بيت عجلان.

وبعد صلاة الفجر ظهر عجلان، كما كان متوقعاً، عبر خوخة البوابة إلى الشارع. وكان عبد العزيز يرقب تحركه من خلال ثقوب في باب المنزل. وقف عجلان المغرم بالخيول، كعادته، يلطف خيله المربوطة خارج القلعة. وكان عبد العزيز قد خطط أن يهجم عليه بعد دخوله إلى منزله، لكن منظر عدوّه على بعد خطوات قليلة منه كان فوق ما يستطيع احتماله. وفي صيحة عنيفة من صيحات الحرب فتح الباب وانقضّ على عجلان بهجومٍ مفاجئ. ومع أن عجلان أخذ على حين غرّة، فقد استطاع أن يدافع عن نفسه لمدة كفته أن يتقهقر إلى بوابة القلعة. وبينما كان يهمّ بدخولها عبر الباب الصغير أمسك به عبد العزيز من ساقه وحاول أن يسحبه إلى الوراء. لكن عجلان استطاع أن يفلت من قبضته ويلقي بنفسه داخل القلعة حتى وصل إلى مسجدها وعبد العزيز ورجاله يطاردونه بلا هوادة. وكان أن قُتِلَ داخل المسجد بسيف ابن عم عبد العزيز، عبد الله بن جلوي.

أما الحامية فقد شلّتها المفاجأة عن أية حركة. وكان أغلب رجالها في الطابق الأول من القلعة. وبذلك لم يكن لديهم وقت كاف للنزول ونصرة عجلان. وكانوا جماعة متنافرة التكوين تشتمل على أفراد من قبيلة شمَّر وبعض الخدم والحرس الشخصيين. وكانوا قد فقدوا معنوياتهم تماماً نتيجة لصدمة الهجوم وموت قائدهم، كما أنهم خدعوا بجسارة هجوم عبد العزيز فظّنوا أنه قد غزا المدينة بقوة كبيرة. وقبل أن يكون لديهم من الوقت ما يكفي للتفكير في القيام بأي عمل مضاد انطلق عبد العزيز بشجاعة إلى وسط الباحة وأعلن نفسه لهم

قائلاً: لا معنى للمقاومة الآن بعد موت عجلان. ثم وعدهم بالإبقاء على حياتهم إذا استسلموا. وكان أن ألقى رجال الحامية سلاحهم فوراً ووُضِعُوا في زنزاناتهم. ولم يُقْتَل من أتباع ابن رشيد سوى عشرة رجال. أما أتباع عبد العزيز بن سعود فلم يفقد منهم رجل واحد.

وفي لحظة النصر صعد أحد رجال عبد العزيز إلى أعلى برج في القلعة وأعلن في المدينة: "الحكم لله ثم لعبد العزيز بن سعود. أنتم في أمان وضمان." وهكذا بعد اثنتي عشرة سنة من النفي استعاد ذلك الأمير عاصمته من ابن رشيد وبقي عليه أن يفوز ببلاده كلها.





الفَصلُ الثّالِثُ

سُقوطُ ابن رَشيد

وَمُدَجَّجٍ كَـرِهَ الكُمَـاةُ نِزَالَـهُ ... لاَ مُمْعـنٍ هَـرَباً وَلَا مُسْتسلِمِ

جادَت لهُ كَفِّي بِعاجِلِ طَعْنةٍ ... بِمُثَقَّفٍ صَدْقِ الْكُعُـوبِ مُقَوَّمِ

بِرَحيبَةِ الفَرْغَيْنِ يَهـْدي جَرْسُهَا ... باللَّيلِ مُعْتَسَّ الـذِّئابِ الضُّرَّمِ

(عنترة بن شداد)



ما كان الشاب عبد العزيز بن سعود ليختار عدوّاً أشد هولاً من عبد العزيز بن متعب رشيد، الذي كان رجلاً شجاعاً ثابت الجنان ذا سمعة مرهوبة في ميدان القتال. فلقد قيل بحق - وابن سعود أول من يعترف بذلك - أنه لم يطأ فيافي الصحراء رجل أشجع منه في زمنه. ولعلّ مما يوضح كبرياءه وشجاعته أكمل التوضيح الحكاية التالية التي كثيراً ما رويت عنه. فذات يومٍ كان جالساً مع عدد من المشائخ البارزين في مجلسه وإذا بعقرب صحراوية تتسلّل داخل ملابسة وتبدأ في لدغه دون هوادة. والعقرب الصحراوية وإن تكن أقل فظاعة من العقرب الموجودة في المدن إلا أنها مؤلمة جداً على أية حال. ومن المؤكد أن أي رجل عادي كان سيقفز من مكانه ويلقي بملابسه بحثاً عنها. لكن ابن رشيد لم يكن عادياً في أي شيء. فرغم أن العقرب استمرت في لدغه فقد ظل في مكانه ساعات يتحدث بمودة مع ضيوفه دون أن يظهر أية علامة بأن شيئاً ما كان يزعجه أو يؤذيه. ولم يذهب إلى مهجعه الخاص ليبعد عنه العقرب ويقضي عليها إلا بعد أن ترك مجلسه آخر ضيف من ضيوفه.

كانت أسرة آل رشيد من أقوى الأسر في جزيرة العرب لمدة طويلة. ومنذ أن أرغمت أسرة آل سعود على المنفى لم تعتبر المنطقة المحيطة بالرياض إلا منطقة من مناطق حكمها. وكان من المتوقع أن يردّ عبد العزيز بن رشيد فوراً على استيلاء ابن سعود على الرياض بإرسال حملة انتقامية لاسترداد تلك المدينة. فقد كان ابن سعود قليل الأتباع، وكان استحكامات الرياض، التي يسّرت له دخولها بسبب تهدمها، لا تزال غير مهيأة لمقاومة حصار قوة كبيرة. ومن هنا كانت لدى

ابن رشيد فرصة مواتية لخنق حكم ابن سعود الوليد في مهده لكنه بدلاً من أن يأخذ خطر ذلك الأمير مأخذ الجد كان أشد كبرياء من أن يعتبره منافساً ذا شأن. وارتكب خطأ فادحاً حينما عامله بازدراء كما لو كان ذبابة يستطيع أن يسحقها دون عناء في أي وقت مناسب. ولم يقرر أن يزحف إلى الجنوب لمعاقبته إلا في خريف عام 1902م مما أعطى ابن سعود مهلة تسعة شهور ثمينة تمكن خلالها من تثبيت مواقعه. وكان أول عمل قام به أن جعل أهل الرياض يصلحون استحكاماتها تحسّباً لهجوم مضاد كان يتوقعه في أية لحظة وقد وضع نفسه قدوة لرعاياه الجدد بأن عمل شخصيا ساعات طويلة بإحضار الطين إلى البنائين الذين كانوا يبنون جسور السور. وكان تعليق ابن رشيد على ذلك: "دعوهم يبنوا حتى يشبعوا وسوف نهدم السور في لحظة واحدة". لكنه على أية حال لم يقم بأي عمل لتنفيذ تهديده.

وحين تمّ إصلاح سور الرياض أحضر ابن سعود أسرته كلها إليها. فتنازل له أبوه عبد الرحمن فوراً عن الحكم، وسلّمه سيف الأسرة التاريخي، الذي كان لابن عبد الوهاب ثم أصبح في حوزة آل سعود أجيالاً رمزاً لقوتهم. وكان من نتائج الاحتفال العام بذلك، وعودة آل سعود إلى عاصمتهم التقليدية؛ إضافة إلى الطريقة الدرامية التي تمّ بها الاستيلاء على الرياض، أن اقتنع كثير من الزعماء المحليين المترددين بأن تيار القدر قد أخذ يتجه ضد ابن رشيد. فجاؤوا زرافات إلى الرياض مقدّمين ولاءهم لابن سعود. وخلال شهورٍ قليلة أصبح لدى ذلك الشاب جيش كافٍ يتيح له أن يترك الرياض في عهدة أبيه ويغزو المناطق الواقعة جنوبها لتوسيع نفوذه. وحين بدأ ابن رشيد تحركه من حائل إلى الجنوب في حملة انتقامية كان ابن سعود قد أعاد سيطرة أسرته على أجزاء كبيرة من المناطق الممتدة من الرياض حتى حدود الربيع الخالي، وأصبح على درجة من القوة تمكنه من مجابهة عدّوه الكبير مجابهة الندّ للندّ.

وكان هدف حرب الصحراء، حينذاك، محاولة التفوق على العدو إما بمهاجمته على حين غرّة وإما بالحيلولة بينه وبين الماء. وبما أنه كان لدى كلا الجيشين كشافه (سبور) وأدلّاء فإنه لم يكن من السهل على أي منهما أن يخفي

نفسه عن الآخر. بل إنه لم يكن من غير المألوف أن يعلم كل من في جزيرة العرب أين يوجد كل من الجيشين. ذلك أن أخبار تحركهما كانت تنتشر بسرعة مذهلة عن طريق البدو الرحل من مكان إلى مكان. وكان يجتمع كبار السن في كل قرية يتجادلون بالساعات عن الخطوة التالية من حركات الجيشين، وينتظرون قادماً جديداً يرون من أخباره من كان مصيباً في تخمينه. وكان ذلك النوع الفريد من الحرب مثل مطاردة القط للفأر؛ فقد كان قوامه في الدرجة الأولى السير والسير المعاكس مصحوباً بهجمات ومناوشات بسيطة متكررة من النادر أن تتصاعد إلى معركة ذات نطاق واسع وظل هذا النمط من المجابهة بين ابن رشيد وابن سعود قائماً حتى نهاية سنة 1902م حين وقعت معركة بينهما في الدلم التي تبعد عن الرياض، جنوباً بشرق، حوالي خمسة وخمسين ميلاً. وقد نجح ابن سعود في وضع جنود عدوّه في كمين، ثم اتبع ذلك بمهاجمتهم بفرسانه مما اضطّرهم إلى الانسحاب السريع نحو الشمال. ولحسن حظ ابن سعود لم يدركوا أن ذخيرة رجاله كانت قد أوشكت على الانتهاء.

ونتيجة لهذه المعركة تغيّر موقف ابن رشيد من عدوِّه تغيراً سريعاً. فبدلاً من النظر إليه بازدراء أقسم أن لا يعود إلى حائل أبداً حتى يقضي عليه أو يموت دون ذلك.

واستمرت المناوشات المتقطعة طيلة سنة 1903م حيث قام ابن رشيد بعدة غزوات ناجحة ضد قبائل في المناطق الشمالية قرب الأرطاوية وحدود الكويت. وبدا من المحتمل هجومه على حليف ابن سعود؛ الشيخ مبارك، في الكويت ذاتها. ووجد الشيخ مبارك نفسه في ورطة صعبة؛ فقد كان حريصاً على أن يبدو مؤيداً للجانب المنتصر في نهاية الأمر.

لكنه لم يكن عالماً مَنْ المرجح انتصاره. وكان حلّه للموقف أن يبعث رسائل منتظمة إلى كل من ابن سعود وابن رشيد معبّراً لكل منهما عن صداقته وتأييده. وكانت تلك الرسائل عادة تُملى في وقت واحد. وذات يوم أخطأ كاتب الشيخ مبارك فخلط بين الغلافين. وكانت النتيجة أن استلم كل واحد من الزعيمين

الرسالة الموجهة إلى خصمه. وليس من المعلوم ماذا كان رد فعل ابن رشيد على هذا الأمر، لكن ابن سعود لم يغضب على الإطلاق وإنما كان من الممتع لديه أن يرى كيف انفضحت ازدواجية موقف صديقه القديم.

ومهما كان الحال وأينما كان ولاء الشيخ مبارك فإنه من المؤكد أن ابن سعود لم يكن مستعداً أن يرى الكويت تقع في يدي ابن رشيد. لذلك تحرك بقواته شمالاً لدرء الخطر عنها. وهنا عاد ابن رشيد بسرعة نحو الجنوب محاولاً، للمرة الأولى والأخيرة، أن يستولي على الرياض بهجوم مفاجئ. ولسوء حظه كان عبد الرحمن بن فيصل قد اتخذ جميع الاحتياطات الممكنة لحماية المدينة واكتشف رجال استطلاعه تقدُّم عدوّه.

وحين وصل ابن رشيد إلى الرياض كانت محصّنة لدرجة أنه لم يحاول أن يهاجمها، واضطر إلى الانسحاب نحو الشمال مرة أخرى خشية أن يباغته ابن سعود من الخلف. وكان انسحابه سريعاً بحيث أن السريّة التي أرسلها عبد الرحمن بن فيصل من الرياض لتعقّبه استطاعت أن تستولي، دون صعوبة، على مدينة شقراء التي تبعد عن الرياض حوالي ثمانين ميلاً من الناحية الشمالية الغربية. ثم لحق ابن سعود نفسه تلك السرّية ومعه تعزيزات من قواته، وتمكن بعد قليل من الاستيلاء على بلدة الزلفي دون أية خسارة تقريباً. وبذلك امتد نفوذه شمالاً حتى حدود القصيم. وهكذا بعد ما لا يزيد عن السنة إلا قليلاً استطاع الأمير الشاب، الذي كان يعتبره ابن رشيد إزعاجاً لا يستحق الاهتمام، أن يستولي على نصف المناطق التابعة لعدوّه، وبدا واضحاً أنه مهيأ للاستيلاء على ما بقي منها.

وفي صيف سنة 1903م تقدّم ابن سعود إلى القصيم بمساعدة الشيخ مبارك، أمير الكويت. وفي مستهل سنة 1904م استولى على فيضة السرّ وعنيزة. وفي يونيو من نفس السنة سقطت بريدة في يده بعد حصار دام عدة أسابيع. وبذلك أصبح مسيطراً على أجزاء كبيرة من القصيم، وبات قريباً من مدينة حائل ذاتها، وكان ذلك مما أزعج ابن رشيد كثيراً وجعله يلتمس من الأتراك أن

يساعدوه. وكان هؤلاء حتى تلك المرحلة من الصراع يساعدونه بالمؤن والأسلحة، فاقتنعوا حينئذٍ أن يمدّوه بالرجال أيضاً. وأرسلوا إليه ما لا يقلّ عن ثمان كتائب من جنودهم المدرّبين تدريباً جيداً والمزوّدين بما يحتاجون إليه من أسلحة. كان أولئك الجنود - على عكس ما كان عليه البدو - مزوّدين بالبنادق الحديثة وبكميات كبيرة من الذخائر والمدفعية. وكانوا بدون شك يتوقعون أن يسحقوا جيش ابن سعود الذي كان مسلحاً تسليحاً خفيفاً والذي لم يكن جيشاً نظامياً ولا مدرّباً. وكان من المحتمل جداً أن يحقق الأتراك ذلك لو أن ابن سعود حاول أن يشتبك معهم في معركة تقليدية واسعة النطاق. لكنهم لم يكونوا معتادين على حرب الصحراء وأوضاعها، وكانوا يفتقدون القدرة على سرعة الحركة. ولقد مات مئات منهم بسبب المرض دون أن يطلق ابن سعود عليهم رصاصة واحدة. وبمناوراته البارعة وقطعه لخطوط تمويناتهم تمكّن من التّغلب عليهم. وفي شهري سبتمبر وأكتوبر سنة 1904م حدثت سلسلة من الاشتباكات في البكيرية بين ابن سعود من جهة وبين ابن رشيد وحلفائه الأتراك من جهة أخرى. وكانت نتيجتها انتصاراً كاملاً لابن سعود. فقد قضى على القوات التركية واستولى على ذخائرهم وأسلحتهم ومدافعهم، وأجبر ابن رشيد على الانسحاب إلى حائل بعد أن خسر عدداً كبيراً من الإبل وكمية كبيرة من العتاد. وعلى أية حال فإن ابن رشيد لم يفقد كبرياءه فعسكر بعناد خارج عاصمته ليبرّ بقسمه الذي كان قد أقسمه وهو ألا يدخل حائل حتى يقضي على ابن سعود.

وبعد ذلك النجاح الكبير اضطر ابن سعود إلى ترك القصيم فجأة ليساعد في القضاء على ثورة قامت في قطر. ولم تحدث أية اشتباكات بينه وبين ابن رشيد لمدة تقترب من السنة. ثم عزم ابن رشيد سنة 1906م على أن يهاجم ابن سعود مرة أخرى، وبدأ يجمع جيشاً قوامه أكثر من عشرين ألف مقاتل والتحقت به قبيلة شمّر كلها من أقصى شمال منطقة جبل شمّر، كما التحق به عدد من قبائل أخرى أصغر منها. وأصبح لديه ما لا يقلّ عن ألفين وخمسمائة فارس من خيرة فرسان شمَّر. وحين علم ابن سعود باستعدادات عدوّه قام فوراً بجعل قواته مهيأة للحرب.

وحوالي ذلك الوقت بعث ابن رشيد رسالة إلى ابن سعود يقول له فيها: إنه لمن العار على رجلين مسلمين أن يتسببا بإراقة دماء لا ضرورة لها في حرب دائمة بينهما. واقترح أن تحلّ المشكلة القائمة بينهما بمبارزة شخصية يحصل الفائز فيها على كل شيء. وكان ذلك الاقتراح مغرياً لابن سعود الذي كان محارباً ماهراً، لكنه لم يكن واثقاً بابن رشيد ولذلك رفض الاقتراح بلباقته المعهودة. وكان أن أثنى في جوابه على شجاعة عدوه وعلق على الموقف بقوله: إن ابن رشيد بشجاعته المتهوّرة، كان لديه رغبة في الموت بينما أريد أنا الحياة. وأن رجلاً يريد أن يحيا لا يسلك سبيل الحكمة إذا نازل رجلاً يريد أن يموت. وعلى أية حال، فإن الأمر كله بيد الله وهو¬ وحده المقدر لنهاية النزاع.

وكانت خطوة ابن سعود التالية أن زحف إلى المناطق الواقعة شمال القصية حيث ما لبث أن اشتبك في مناوشات أوليّة مع جماعات صغيرة من قوات ابن رشيد وكان هذا الأخير قد نشر قواته إلى الغرب والشمال الغربي من القصيم. وفي إحدى المناسبات النادرة التي استطاع فيها أن يتغلّب على ابن سعود في المناورة زحف بسرعة نحو الشرق وعبر مناطق في القصيم حتى وصل إلى الجنوب الشرقي من عنيزة. وبذلك أصبح جيشه بين ابن سعود وبين الرياض، وتمكن من قطع مواصلات تعزيزات خصمه وإمداداته. وحين أدرك أتباع ابن سعود خطورة الموقف المحيط بهم وجد أكثرهم أنه من الحكمة أن يتفرقوا في الصحراء، تاركين قائدهم مع حفنة قليلة من جنوده المخلصين. ويقال إنه لم يبق بجانبه أكثر من مائتي رجل ومعهم مائة من الإبل وعشر من الخيل. ولم يكن هناك موقف أكثر حرجاً ويأساً من ذلك الموقف.

لقد كتبت قصص كثيرة عن معركة روضة مهنا. ولقد روى لي شخصياً عبد الرحمن بن مطرف، حامل راية ابن سعود، أخبار تلك المعركة. وكان ممن حضرها مما يجعلني أثق ثقة كاملة بصحة ما روى. وقد ذكر أن ابن سعود اجتمع بحوالي عشرة من زعماء القبائل الذين ظلوا معه رغم أن اتباعهم تفرقوا عنه. وتقرر في الاجتماع أن يحاولوا التسلّل إلى خطوط العدو بالسير ليلاً والاختفاء نهاراً. وفي الليلة التالية بدأت الجماعة الصغيرة سيرها واثقة بمهاراتها

الصحراوية وبرحمة الله أن يحميها من عيون خصمها. ومع أن ابن سعود كان يأمل أن يظل بعيداً عن أية فرقة كبيرة من جيش ابن رشيد فإنه وجد نفسه فجأة قرب معسكره لا يفصله عنه سوى كثيب من الرمال. فصعد ذلك الكثيب ووقف على قمته ليلقي نظرة فاحصة على عدوّه. ورجاه أصدقاؤه أن يبتعد عن مكانه بسرعة لكنه ظل فيه كأن قدميه قد تسمرتا في الرمل ورفض ان يتحرك. ولازدياد قلقهم عليه ازداد توسلهم إليه بأن يترك المكان فوراً قائلين له: أيها الأمير إذا فُقِدّتَ أنت فُقِد كل شيء. بل إنهم حاولوا سحبه من الكثيب، لكنه دفعهم بعيداً عنه وقال لهم، والشرر يتطاير من عينيه: انظروا. إن العدوّ غافل تماماً ولا يعلم بوجودنا وإني لن أتحرك من هنا حتى أجرب حظي معه. فقال له أتباعه بتوسل: ولكن ذلك عمل انتحاريّ! فأجابهم إنها فرصة أجلّ من أن تفوَّت. وأخبرهم بخطة استطاع أن يفكر فيها في تلك اللحظة. فوافق الزعماء على محاولة الخطة بشرط أن ينسحبوا وإياه فوراً إلى مسافة آمنة. ورفض ابن سعود أن يفعل ذلك في بداية الأمر إذ كان مصمماً على أن يشترك شخصياً في المعركة القادمة. لكن الزعماء كانوا مصرّين على رأيهم فوافقهم بتردّد على الانسحاب. وبعد أن أعطى تعليماته حول الطريقة التي سيتم بها الهجوم انطلق مع رفاقه من الزعماء إلى مكان آمن.

وكان أن قسمت القوة المكونة من مائتي رجل إلى فريقين يسير كل منهما بحذر إلى تلّ من الرمال على جانبين متقابلين من معسكر ابن رشيد على أن يتجنّبوا حراسه القلائل وانتظر رجال ابن سعود كي ينام عدوُّهم. وعند منتصف الليل خمدت أكثر نيران المعسكر وأصبح كل شيء هادئاً. فتسلّل الفريق الأول بصمت وخلسة إلى المعسكر. ولم يكن هناك إلا ومض صغير من نور، فاتجهوا إليه كفراشات تطير في الظلام إلى نار. وحين اقتربوا من ذلك الومض اتضح أنه كان شمعة في داخل خيمة. وفجأة خرج من تلك الخيمة شخص يتبعه خادم يحمل معه إبريقاً. فجمد المهاجمون فوراً في أماكنهم. لكن في خضمّ الهياج اهتزت راية ابن سعود في يد حاملها وأحدثت كراتها المعدنية والوشي الملصق بها نوعاً من الضجيج. فصاح الرجل الذي خرج من الخيمة باتجاههم قائلاً:

"وش هالدبرة يالفريخ". وكان من المعروف أن الفريخ حامل راية ابن رشيد. وكان صوت اللهجة الآمرة التي استعملها ذلك الرجل توضح أنها اللهجة التي يستعملها سيّد مع خادمه. ولم يكن ذلك الشخص الواقف بإزاء الخيمة سوى ابن رشيد نفسه. وكان قد فهم خطأ أن حامل راية ابن سعود هو حامل رايته. ولم يكن رجال ابن سعود في حاجة إلى أكثر من لحظة واحدة ليدركوا مقدار حظهم الغريب. فصاح أحدهم بزملائه قائلاً: "ابن رشيد يا طلاّبته". فتدافع المهاجمون نحوه. وبالرغم من أن ابن رشيد حاول بشجاعة أن يدافع عن نفسه بسيفه المصلت فإنه غلب على أمره وقتل. وقد أيقظت الضجة المعسكر كله فوراً وبدا أن المهاجمين باتوا معرضين للفناء. لكن في تلك اللحظة بالذات بدأ الفريق الثاني من رجال ابن سعود المرابطون في الجانب الثاني من تلال الرمل بإطلاق نيرانهم المكثّفة على المعسكر مستعملين ذخائرهم بأقصى سرعة ممكنة. وقام رجال الفريق المتسلّل داخل المعسكر بمثل ما قام به زملاؤهم الآخرون. وكانت تلك حيلة بارعة ناجحة. فقد بدا لجنود ابن رشيد المذهولين، الذين أُوقظوا من نومهم بعجلة تامة، أن معسكرهم قد هُوجِم من جميع جهاته بجيش كبير. وبعد أن حُرِموا من زعيم يقودهم تحولوا إلى غوغاء غير منظمة. ولأنهم كانوا يظنون أن عدوّهم كان بينهم بكل قواته أخذوا يطلقون النار دون تمييز داخل معسكرهم. وهكذا أصبحت أصداء نيران البنادق تملأ كل جانب حيث بدأت مجموعات من جنود ابن رشيد المرعوبين يقاتل بعضها بعضاً تحت جنح الظلام غير مدركين أن عدوهم لم يكن موجوداً إلا في خيالهم فقط.

وفي جوّ الاضطراب الذي ساد المعسكر تمكن رجال ابن سعود من الهروب دون خسائر في الأرواح تقريباً. وقد انسحبوا بأقصى ما يمكن من السرعة آخذين معهم خاتم ابن رشيد برهاناً على مقتله. وكان ابن سعود ينتظرهم في مكان معيّن سبق الاتفاق عليه. وبما أنه كان يمتطي جواداً وأن رجاله المائتين لم يكن لديهم سوى مائة بعير فإنهم لم يتمكنوا من اللحاق به إلا بعد يومين أو ثلاثة أيام. وحين علم بنجاحهم سُرِّ كثيراً. لكن مقتل ابن رشيد بدل له أمراً بعيد الاحتمال لدرجة أنه رفض أن يصدق رجاله حين أبرزوا له خاتمه وأمرهم أن

يعودوا إلى جثته قائلاً: إني لا أستطيع أن أصدقكم حتى تأتوني برأسه. فعاد رجاله فوراً إلى أرض المعركة وهم في أشد الحذر. وهناك لم يجدوا سوى موتى من رجال وحيوانات. لقد كان القتل في المعسكر كثيراً. وكان الناجون قد فرّوا عائدين إلى حائل دون أن يقوموا بأية محاولة لدفن قائدهم. فقُطِعَت رأسه وجيء بها في غمرة النصر إلى ابن سعود. وهكذا مات أعظم أعدائه، وبعد مقتل ابن رشيد في روضة مهنّا لم يعد بقاء حكم ابن سعود موضع شك على الإطلاق.





الفصل الرابع

تثبيت الحكم وتوسيعه

قال تعالى:

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾

سورة الروم (5-4)



خلال السنوات الست التي تَلَتْ معركة روضة مهنّا لم تتسع منطقة حكم ابن سعود كثيراً. ومن غير المحتمل أن ابن سعود نفسه كان يستطيع أن يقول بالضبط أين كانت حدود منطقة حكمه لأن تحديدها لم يكن على الخريطة وإنما كان طبقاً لولاءات رجال القبائل البدوية الذين ارتضوه زعيماً لهم. كان يسيطر على المناطق الممتدة من الرياض حتى حدود القصيم الشمالية. وإلى الشمال من ذلك جبل شمّر الذي كان لا يزال تحت حكم أسرة آل رشيد، وكان لا يزال معادياً لابن سعود. وعلى أية حال فإن أسرة آل رشيد، بعد مقتل عبد العزيز بن متعب، دخلت في صراع داخلي مرير للسيطرة على مقاليد الأمور في حائل. وكانت نتيجة ذلك الصراع أن اغتيل ثلاثة من حكامها في خلال سبع سنوات؛ إضافة إلى موت عدد كبير من أفرادها الصغار نوعاً ما من حيث الأهمية.

ولذا كان آل رشيد مشغولين بمشاكلهم الداخلية من أن يشكّلوا أي تهديد لابن سعود. أما إلى الجنوب من الرياض فإن ابن سعود كان يسيطر على جميع المناطق الممتدة حتى الربع الخالي. وأمّا إلى الشرق فإن حدوده كانت تمتد إلى منطقة الأحساء وكانت هذه المنطقة تحت حكم الأتراك الذين لم يكن هناك أي سبب يدعوهم ليكونوا أصدقاءَ له. ورغم أنّهم قد اقتنعوا بأنه ليس من الحكمة أن يحاولوا القيام بأية حملة عسكرية أخرى ضِدّهُ داخل الصحراء، فإنه كان لا يزال باستطاعتهم مساعدة آل رشيد ووضع العراقيل أمام ابن سعود. وبالإضافة إلى ذلك فإن استيلائهم على الأحساء قد وضع موانئ الخليج العربيّ تحت سيطرتهم. ومن هنا فإنهم كانوا يستطيعون إبقاء نجد بعيدة عن الاتصال

بالبحر. وإلى الغرب كانت الحجاز. وكانت من الناحية الفعلية إقليماً تابعاً للأتراك إذ كان حاكمها الشريف حسين ألعوبة في أيديهم. ومع أنه لم يكن لديه حينذاك أي سبب لعداء ابن سعود فقد كانت تدور في نفسه أحلام لحكم جميع جزيرة العرب. ومن هنا بدا من المحتمل حدوث نزاع بين الطرفين. بل إنه قد اتضح عدم إمكان الثقة التامة بالشيخ مبارك أمير الكويت، الذي كان يغبط ابن سعود على نجاحه المفاجئ الأخّاذ في الوصول إلى الحكم.

ومع أن ابن سعود كان محاطاً بالأعداء من الناحية الواقعية أو المحتملة فإن أكثر مشكلاته في الفترة التالية لمعركة روضة مهنّا كانت في منطقة حكمه ذاتها. كان قادراً على الاحتفاظ بولاء أتباعه له ما دامت هناك معارك ينتصر فيها وغنائم يستولي عليها، لكن بمجرد ما أخذت جذوة الحرب تخبوا بدأ أولئك الأتباع يتبرّمون ويحاولون الخروج عليه. وقد واجه عدة ثورات كان من أخطرها ثورة مطير بزعامة فيصل الدويش في شهر مايو 1907م. وكان الدويش قد هُزِمَ في معركة قُرب المجمعة وعُفِيَ عنه، لكنه ثار مرة أخرى فهُزِمَ قُرب بريدة.

وكانت الثورة التي جابهها ابن سعود، صغيرها وكبيرها، تتصف بأمرين: أحدهما أنه قضي عليها تماماً وإن لم يكن القضاء عليها دائماً سهلاً. والثاني أنه في كل حالة كان زعماء الثورة يعاملون برحمة، وغالباً ما عفي عنهم، وأُعيدوا إلى مراكزهم. وكان ابن سعود في عمله هذا لا يظهر الرحمة والكرم فقط، وإنما يعبر عن مدى ما كان يتصف به من حكمة عظيمة. كانت العقوبة التقليدية للخيانة هي القتل. لكن لو أن ابن سعود أعدم كل زعيم قبيلة ثار عليه لكان مُلزَماً أن يُعيّنَ محلّهُ رجُلاً يختاره. وكان من غير المحتمل أن يقبل أي رجل تلك المهمة لأن استياء أبناء القبائل من وجود رجل مفروض عليهم سيدفعهم، على الأرجح، إلى التخلُّص مِنهُ بالقتل عاجلاً أم آجلاً. وبالإضافة إلى ذلك فإن قتل زعيم قبيلة معيّنة قد يُصبح بداية لثارات دامية مع القبيلة ذاتها. ولهذا فقد كان ابن سعود، بعفوه عن الزعماء الذين انتصر عليهم، أقرب إلى كسب ولائهم واحترامهم في نهاية الأمر. ولقد أثبتت هذه السياسة نجاحه الباهر باستثناء حالات نادرة كفيصل الدويش وحاكم بريدة محمد أبي الخيل. وكان هذا الأخير

قد ثار سنة 1908م، فهُزِمَ وعُفِيَ عنه وأُعِيدَ إلى منصِبه. لكنه لم يلبث أن ثار مرة أخرى. ورُغمَ أنّه كان لدى ابن سعود كل الأسباب التي تدعوه إلى إعدامه بعد تكرر خيانته فإنه لم يفعل ذلك وإنما اكتفى بنفيه إلى العراق.

وفي سنة 1909م واجه ابن سعود مشاكل أخرى. فبعد سلسلة من الصراع الدموي داخل أسرة آل رشيد سيطر زامل بن سبهان على مقاليد الأمور في جبل شمّر. وبعد أن ثبّت نفسه في الحكم حاول أن يقوم بحملة واسعة النطاق داخل المناطق التابعة لابن سعود. لكنه هزم هزيمة منكرة في معركة الأشعلي. ومع أنّه كان من السهل على ابن سعود أن يتغلب على آل رشيد في تلك المعركة فإنهم ظلُّوا شوكةً في جنبه، واتضح لديه أنه لا بد من أن يحسم الموقف بينه وبينهم.

وفي تلك الفترة بدأ الشريف حسين بإثارة المشاكل. فقاد سنة 1911م حملة عسكرية قوية إلى الجهات الغربية من مناطق ابن سعود. وقد حالف الحظ تلك الحملة فاستطاعت أن تختطف أخا عبد العزيز، سعد بن عبد الرحمن، قرب القويعية التي تبعد عن المدينة المنوّرة حوالي مائة وعشرة أميال من الجهة الجنوبية الشرقية. وكان على ابن سعود أن يعترف بسيادة الأتراك على القصيم ويتعهد بدفع إتاوة رمزية إليهم مقابل إطلاق سراح أخيه سعد. على أن اعترافه بالسيادة التركية، التي لم يكن لها وجود في حقيقة الأمر، لم يكن ذا معنى، كما أن الإتاوة التي تعهّد بدفعها لم تُدفَع أبداً.

ومع ذلك فقد اعتبر ابن سعود تلك الحادثة إهانة لا يستطيع نسيانها بسهولة.

لقد كان من أعظم مشكلات ابن سعود في بناء دولة مستقرة تلك المشكلة التي واجهت كل زعيم في الصحراء العربية وهي نزعة رجال القبائل الحادّة إلى الاستقلال وحبّهم للحرب وسرعة تغيّر ولاءاتهم، كما سبق أن ذُكِر. وفي سنة 1912م قام بإحياء الحركة الدينية التطهيرية التي أنشأها محمد بن عبد الوهاب في القرن الثامن عشر. وكان هدفه من إحيائها جمع رجال القبائل على طاعة الله. وكان من أعظم خطواته في ذلك أن شجعهم على الاستيطان في أماكن مستقرة.

ومن هنا نبعت الحركة الدينية المعروفة باسم الإخوان والتي كانت مصدراً لمحاربين متعصبين على أتمّ الاستعداد للقتال في سبيل الله حتى الموت. وسوف يأتي الكلام بعد ذلك عن تكوين هذه الحركة ونموِّها ثم القضاء عليها. أما هنا فيكفي أن نشير إلى أنه وفي خلال سنة واحدة من مولد حركة الإخوان وجد ابن سعود لديه جيشاً كبيراً قوياً متحمّساً من رجال يعتبرونه أداة الله المختارة، وجنود يمكن أن يوثق باستمرار ولائهم له وتلبية ندائه كُلّما نادى للحرب.

وقد جاء أول انتصار للإخوان سريعاً جداً. ففي سنة 1913م (1331هـ) قرّر ابن سعود أن الوقت قد حان لاتخاذ مبادرة ضد الأتراك في الأحساء. وفي الثامن من شهر مايو قاد جيشه المشتمل على عدد من قوات الإخوان في هجوم ليليّ مُباغِت على مدينة الهفوف التي كانت فيها حامية تركية مكّونة من حوالي ألف ومائتي رجل. ولأن الأتراك أُخِذُوا على حين غرّة فإنهم لم يُبدوا أي مقاومة تذكر. وقد سمح لهم ابن سعود، بشهامته المعهودة، أن يغادروا المدينة بعد أن سلّموا أسلحتهم إليه. ثم أرسلهم إلى البحرين حيث أبحروا من هناك عائدين إلى تركيا. ولم يكن في بقية منطقة الأحساء إلا جنود أتراك قليلون استسلموا فور سماعهم سقوط الهفوف في يد ابن سعود. وهكذا في أقل من شهر وبقليل من سفك الدماء نجح عبد العزيز في ضم منطقة واسعة جديدة إلى حكمه ووجد مدخلاً إلى الخليج العربي ابتداءً من جنوبي الكويت حتى شمالي قطر. وعيّن حاكماً جديداً في الهفوف. ولم يكن ذلك الحاكم سوى عبد الله بن جلوي، الذي كانت هجمته العاجلة في مسجد قلعة الرياض قبل إحدى عشرة سنة إيذاناً ببداية المملكة العربية السعودية الجديدة.

وكان اندلاع الحرب العالمية الأولى ذا فائدة فورية لابن سعود. ذلك أن التزامات الإمبراطورية العثمانية في أماكن أخرى جعلت من المستحيل عليها أن تحاول استعادة الأحساء. وخلال الحرب أصبحت نجد أشبه ما تكون بمنطقة منعزلة. فالثورة العربية المشهورة، التي لعب فيها لورانس دوراً كبيراً، قامت في الحجاز؛ وهي منطقة كانت لا تزال توجد فيها قوات تركية يمكن للعرب أن يثوروا ضدها. وعلى أية حال، فإن الأتراك استطاعوا أن يسبِّبُوا بعض المتاعب

لابن سعود بدعمهم المتواصل لجبل شمَّر. وكان يحكم هذه المنطقة حينذاك سعود بن عبد العزيز بن متعب بن رشيد، الذي دارت بينه وبين ابن سعود مناوشات متقطعة. وفي شهر يناير من سنة 1915م (1333هـ) حدثت بينهما معركة ضارية - وإن كانت غير فاصلة - في جراب قرب الزلفي.

ولا زال الناس يتذكرون المعركة السابقة لأن أحد ضحاياها كان رجلاً إنجليزياً هو الكابتن شكسبير، الذي كان قبل ذلك معتمداً سياسياً في الكويت وصديقاً شخصياً لابن سعود. وكان قد أرسل إلى جزيرة العرب بوظيفة ضابط سياسي للقيام بمهمة خاصة. وقد أصرّ على مرافقة عبد العزيز في غزواته ضد ابن رشيد، كما أصرّ على أن يشارك في المعركة رغم أن ابن سعود حثّه على أن يكون بعيداً عن الخطر. وكان لدى جيش عبد العزيز أحد المدافع التركية التي استولى عليها في معركة البكيرية قبل إحدى عشرة سنة. وكان شكسبير يدير نار ذلك المدفع خلال المعركة حينما هجم على موقعه فرسان شمَّر وقتلوه. وكان موته مبعث حزن شديد لابن سعود، كما كان ضربة كبيرة للبريطانيين الذين فقدوا مُمَثّلهم الوحيد في نجد. ولقد اتضّحت أهمية ذلك قرب نهاية الحرب حين أراد البريطانيون أن يبدأوا مفاوضات مع ابن سعود لإقناعه بمهاجمة حائل لأنهم كانوا يخشون احتمال تدخّل آل رشيد، بمساعدة الأتراك، في أعمالهم في فلسطين. ولم يكن لديهم من يمثلهم في الرياض. ولذلك اضطروا إلى إرسال بعثة خاصة لهذا الغرض. وقد عرضوا على ابن سعود مبالغ كبيرة من المال وعشرة آلاف بندقية وكمية وافرة من الذخيرة وما لا يقلّ عن أربعة مَدافع ميدان. وكان ذلك بمجموعهِ مصدر قوّة تُمكّنهُ من القضاء على استحكامات حائل الدفاعية. وقد قبل ابن سعود ذلك العرض، لكن الأسلحة لم تُسَلّم إليه أبداً. وكان سبب ذلك أن الرجل المسؤول عن البعثة البريطانية، وهو هاري سانت جون فيلبي، قام - بمبادرة شخصية منه - برحلة إلى الحجاز لمقابلة الشريف حسين. ولحرص الشريف على إعاقة ابن سعود بأية وسيلة منَعَ فيلبي من أن يرجع من عنده. ومن هنا لم يكن يوجد ممثل بريطاني في الرياض ليُتمَّ الاتفاقية ويقوم بالإجراءات الضرورية. وحين وصل إلى ابن سعود ممثل بريطاني آخر كان

الأتراك قد هُزِمُوا في فلسطين ولم يعُد البريطانيون في حاجة إلى أية مساعدة من نجد. ومع ذلك حاول ابن سعود أن يقوم بهجوم على جبل شمَّر فحاصر مدينة حائل. لكن الحصار فشل لعدم وجود المدافع البريطانية التي يمكن بها تقويض أسوار المدينة، فاضطر عبد العزيز إلى الانسحاب إلى الرياض.

وعلى الرغم من نكسة ابن سعود المُشَار إليها فإن منطقة جبل شمَّر لم تستطع أن تبقى دولة مستقلة عن حكمه أكثر من ثلاث سنوات أخرى. ففي سنة 1919م (1338هـ) اغتِيلَ سعود بن رشيد على يدي ابن عمه، عبد الله بن طلال، خلال نزهة خارج مدينة حائل. فقُتِل عبد الله فوراً بأيدي خدم سعود الأوفياء، وسُجِنَ أخوه محمد الذي كان متآمراً معه. ثم سيطر على الإمارة عبد الله بن متعب، حفيد عدوّ ابن سعود القديم عبد العزيز بن متعب بن رشيد. لكنه لم يكن يملك شجاعة جدّه ولا مقدرته. وفي عهده أصبحت إمارة جبل شمر ضعيفة مفكّكة. فاستطاع ابن سعود غزوها بسهولة، وأقنع كثيراً من رجال قبيلة شمر بالانضمام إلى جيشه وفي إحدى محاولات عبد الله بن متعب اليائسة أطلق سراح ابن عمه، محمد بن طلال، من السجن، فقام هذا بالثورة ضده، واضطر عبد الله إلى أن يلجأ إلى ابن سعود. وأخذ محمد ابن طلال على عاتقه مهمة الدفاع عن حائل. وكان مع ابن سعود في حصاره لها هذه المرة المَدافع التركية التي استولى عليها في معركة البكيرية قبل سبعة عشر عاماً. وكانت تلك المدافع قد صارت عتيقة جداً بحيث لم يكن من المؤكد ما إذا كانت لا تزال صالحة للاستعمال. ومع ذلك فإن التهديد بقصف المدينة كان كافياً لجعل أهلها يفقدون معنوياتهم وقدرتهم على الصمود. وكان يحرس أحد أبواب حائل أفراد من أسرة آل سبهان، الذين كانوا أقارب لآل رشيد. وكان لديهم من الأسباب ما يدفعهم إلى التذمُّر من مجرى الأحداث في مدينتهم لأن عدداً من أقاربهم قُتِلوا خلال الصراع الأسري الأخير. وكانوا بالتأكيد غير راغبين في أن يكونوا عُرضة لقنابل المدافع الثقيلة من أجل محمد بن طلال. ولذلك اتفقوا سراً مع ابن سعود على أن يسمحوا لجيشه بدخول حائل تحت جنح الظلام. وما أن بات الجيش داخل الأسوار حتى استسلمت الحامية دون مقاومة تُذْكَر. وبعد تسع عشرة سنة من الصراع أصبح عبد العزيز بن سعود سيّداً على جبل شمَّر.

ولقد كان ابن سعود، كعادته، شهماً عند انتصاره فضمّ جيش آل رشيد إلى جيشه، كما اصطحب معه إلى الرياض عدداً من أُمَرائهم الشباب، بما فيهم محمد بن طلال، ليبقوا هناك ضيوفاً مكرمين. وبمرور الزمن أصبح كثير منهم أتباعاً أوفياء له. ولقد تسنّى لي في العشرينات من هذا القرن أن أتعرّف على عبد الله بن متعب شخصياً. وكان يعيش في الرياض بمرتب من ابن سعود. وكان يبدو سعيداً راضياً بحياته. وكان دائماً مُستّعداً للتّحدث. وكنت أناقش معه كل شيء تحت الشمس إلى تجاربه في حائل التي كان لا يرغب أن يقول عنها أي شيء على الإطلاق ومن المؤسِف أنه مات في الرياض، خلال الخمسينيات من القرن، في ظروف حزينة جداً.

أمّا محمد بن طلال فقد ظَلّ تحت الحراسة في غرفة من غرف القصر مُدّة من الزمن. ثم وُضِع تحت الإقامة الجبرية في بيت خاص مع خدم وحرس شخصيين يعتنون به. وبعد فترة استطاع أن يتسلّل من منزلهِ متنكِّراً بملابس امرأة ثم نفذ من أنظار حرس القصر الملكي بادّعائه أنه امرأة فقيرة لديها استرحام للملك. وصعد الدرج إلى الطابق الأول ووقف إزاء الباب المفتوح على المجلس العام المنعقد صباح ذلك اليوم. ومن هناك بدأ يشق طريقه بين جمهور من البدو الجالسين، وهو أمر من المستغرب أن تقوم به امرأة. وكان أن ارتاب الملك فوراً في شأنه فخفّ إليه ونزع منه سلاحه وكتّفه بردن ثوبه. ثم أخذه الحرس بعيداً، وسُجِنَ مرّة أُخرى في بيته مع تشديد الحراسة عليه. وبعد ذلك أقسم على موالاة الملك وتعهد بألّا يُكَرِّر تصرُّفَه فمُنِحَ حُرّية أكثر من ذي قبل لدرجة أنه جاء مع جيش ابن سعود في معركة السبلة رغم أنه كان لا يزال تحت الحراسة. وظل ابن طلال تحت الإقامة الجبرية بقيّة حياته. وكانت نهايته أن قُتِل بيد أحد خدمه الخاصّين الذي انتحر فورَ اغتياله له.

وحين أصبح ابن سعود حاكماً على كل وسط جزيرة العرب قرر المشائخ والعلماء أن يكرّمُوه ويضفوا عليه لقباً خاصاً. فأقاموا احتفالاً عامّاً في الرياض وأعلنوا أنه سلطان وإمام نجد.





الفصل الخامس

الحجاز وعسير

(ومن يجعلِ الضِرغامَ بازاً لصيدِهِ تصيَّدَهُ الضِرغامُ فيما تصيّداً)

المتُنبِّي



عند نهاية الحرب العالمية الأولى أصبح واضحاً أن حائل لم تكن الجهة الوحيدة التي لا بدّ من مواجهة نهائية معها. فالشريف حسين بعد أن ألقى عن كاهله نير السيادة التركية بمساعدة البريطانيين أخذ يعاني من أوهام العظمة بازدياد، وبدأ يدّعي ادعاءات جوفاء بسيادته على كل دول الجزيرة العربية بما فيها نجد. ولم يكن أحد يعلم من أين استعدّ تلك السلطة وجميع تلك الدول كانت حينذاك مستقلة ولا تدين له بأي ولاء. وقد كتب الشريف رسائل ذات لهجة متعالية إلى عدد من حُكّام الجزيرة العربية، ومن ضمنهم ابن سعود، يقول فيها ما معناه إنه قد عزم على إنشاء دولة عربية - يكون بطبيعة الحال رئيساً لها - وسأل كل واحد منهم أن يعترف بسيادته عليه. وفي تلك الظروف كان جواب ابن سعود آية في ضبط الأعصاب فقد ردّ عليه، بوصفه نداً له، رداً مهذَّباً مشيراً إلى أن نجداً مستقلّة وأنه لذلك لا يسَعه أن يستجيب إلى طلبه. وعلى أية حال فإنه أبدى ثقته بأن نجداً والحجاز ستظلان تتعايشان بسلام بوصفهما جارتين صديقتين. ويقال إن الشريف لدى استلامه لهذه الرسالة الدبلوماسية جداً استبدّ به الغضب الجامح.

ولقد انصبّ النزاع بين الحجاز ونجد سنة 1919م على واحة الخرمة التي تبعد عن مكة حوالي مائة وعشرة أميال من الناحية الشرقية. كان الشريف يعتبر هذه الواحة جزءاً من مناطق حكمه. لكن أهلها كانوا يخالفون رأيه؛ فقد أعلنوا أنهم رعايا مخلصون لابن سعود. وفي سنة 1918م أرسل الشريف حملتين تأديبيتين ضد الخرمة، لكن الدفاع عنها في كلتا الحملتين تمّ بنجاح. فصمم

الشريف على أن لا تقع أخطاء في المرة الثالثة. وفي سنة 1919م (1327هـ) جهّز جيشاً مكوناً من ثلاثين ألف مقاتل من بقايا جيش العهد التركي السابق ومن فرق من جيشه الخاص الذي حارب الأتراك مع لورانس، وجعل قيادته لابنه عبد الله. ويقال إنه لم يأمر ابنه بالقضاء على الثورة في الخرمة فقط وإنما أمره أيضاً أن يكتسح نجداً ويعبرها ليقضي فصل الصيف في بساتين الأحساء.

وكان جيش عبد الله مُجَهّزاً تجهيزاً ممتازاً بالنسبة لمقاييس الصحراء؛ لأن معظم معدّاته وأسلحته من المعدّات والأسلحة التي أمد البريطانيون بها الثورة العربية والتي كانت لا تزال في حوزة أبيه. ومع ذلك فقد بدا أنه لم يكن مستعجلاً في تنفيذ الأوامر الموجهة إليه. فقد أمر قوّاتِه أن تجتمع في أطراف مدينة تربة، وبعد أن حصّن معسكره ظلّ هناك والإمدادات تتوالى عليه دون أن يتحرك. ويبدو أنه قرر أن بساتين الأحساء يمكن أن تبقى أسابيع أخرى من دونه.

وكان لتأخر عبد الله في تحركه نتائج قاسية بالنسبة للحجاز. فبينما كان منتظراً في تربة وصلت أخبار تجمع جيشه إلى الرياض وسمع بها أحد ضيوف ابن سعود، الشيخ خالد ابن لؤي، الذي كان قريب النسب من الشريف ذاته. وكان ابن لؤي أحد زعماء قبائل جنوب الحجاز، كما كان عضواً بارزاً في جيش الأشراف. وكان الأمير عبد الله قد أهانه ذات يوم فترك الحجاز فوراً والتجأ إلى ابن سعود. وعند سماعه بتحرّكات عبد الله سارع إلى سؤال مضيفه أن يسمح له إمّا بإعداد جيش للدفاع عن نجد وإمّا بمهاجمة عبد الله بما يمكن جمعه في أقرب وقت من أبناء قبيلة عتيبة. ولم يكن الاقتراح بالاعتماد على قبيلة عتيبة وحدها في الهجوم اقتراحاً طائشاً كما قد يبدو لأول وهلة؛ ذلك أن كل المنطقة الممتدّة بين وسط نجد ومكة المكرمة لم تكن تسكنها سوى هذه القبيلة تقريباً. فإذا أمكن تعبئتها ضد الغزاة فسوف يتعيّن على عبد الله أن يتقدّم على نجد عبر منطقة معادية له كل العداء، وسوف يكون عُرضَة للمتاعب وقطع تموين إمداداته في أي وقت. وحين تقدّم ابن لؤي باقتراحه إلى ابن سعود لم يكن جيش الأشراف قد تحرّك فعلاً إلى داخل مناطق حكمه، لكنه كان يُشكِّل تهديداً لها فقط. ومن هنا فإن ابن سعود لم يشعر في تلك المرحلة بضرورة الاشتراك المباشر

في أي هجوم ضد الشريف. فأخبر ابن لؤي أن باستطاعته أن يخطط وينفّذ ما يريد على مسؤوليته الخاصة، وأن لقبيلة عتيبة أن تنضّم إليه إن أرادت ذلك. وكان هذا الموقف من السياسة التي يلجأ إليه ابن سعود أحياناً، فيحصل من جرّائها على نتائج باهرة. ذلك أنها سَتُمكّنه من الاستفادة بأي نجاح يحرزه ابن لؤي ومن التّنصُل من عمله عند فشله.

وقد انضمّ إلى ابن لؤي سلطان بن بجاد، أحد رؤساء عتيبة وأحد زعماء الإخوان، فانطلقا سراً من نجد إلى منطقة تربة حيث يوجد جيش الشريف. وكانا يجمعان المقاتلين من قبيلة عتيبة وهما في طريقهما إلى تلك المنطقة. وحينما وصلا إلى حدود الحجاز كانت معهما قوة مكوّنة من ثلاثة آلاف مقاتل بينهم جماعات من الإخوان. ومع ذلك فقد كانوا لا يزيدون على عشر جيش الشريف. وكان من الواضح أنهم لن يستطيعوا الاشتباك معه في معركة تقليدية. ومن هنا قرّر ابن لؤي وابن بجاد مهاجمته بغتة أثناء الليل.

وما كان جيش الشريف، بتجهيزه وأسلحته وتحصيناته الممتازة، ليجد صعوبة في صدّ هجوم كهجوم أعدائه لو أن قائده كان قائداً كُفؤاً. لكن كان واضحاً منذ البداية أن عبد الله لم يكن جندياً. فقد كان هو وأبوه مبتدئين في فنون حرب الصحراء، وليست لديهما معرفة حقيقية بقبائل نجد ولا طُرُقها في القتال، ولم يكونا يقدّران أهمية وجود كشّافة يقظه دائماً لأي هجوم مثل ذلك الهجوم الذي كان مبيَّتاً حينذاك ضد جيشهما. كان الشريف حسين وابنه عبد الله من حُكّام المدن لا من حُكّام الصحراء. وكانا يُبدِيان تعالياً ونفوراً في تعاملهما مع زعماء البادية ورجال القبائل. وبالإضافة إلى ذلك كله كانا بخيلَين في تقديم الهِبات إلى البدو الزائرين. وكانا في ذلك مختلفين تماماً عن ابن سعود الذي كان كرمه مشهوراً في جميع أنحاء جزيرة العرب. ونتيجة لذلك كانت غالبية البادية معاديةً سراً وعلانية للشريف، ولم يكن هناك احتمال كبير أن يوجد بينهما من يرى جدوى إخبار الأمير عبد الله بتقدم عدوّه إليه. ومع ذلك فإن عبد الله قد أنذر بالهجوم الذي كان وشيك الوقوع. فقد قِيل أن امرأة كبيرة بالسن أوقفته عندما كان يريد دخول خيمته في تلك الليلة التي وقع فيها الهجوم وحثّته على

أن يكون حذراً لأنها رأت حلماً بأن خطراً ما قد وقع غير بعيد من جيش الأمير. وكان أن استشاط عبد الله غضباً وأمر جنوده بطردها.

وحينما كان جنود عبد الله يطردون تلك المرأة من المعسكر كانت قبيلة عتيبة تحيط به بصمت وهدوء. وكانت الخطة التي وضعها ابن لؤي وابن بجاد مشابهة للخطة التي وضعها ابن سعود نفسه قبل ثلاثة عشر عاماً في معركة روضة مهنّا. فقد قسّما قواتهما المكونة من ثلاثة آلاف مقاتل إلى ثلاث مجموعات؛ اثنتان قوام كل منهما ثلاثمائة رجل وثالثة تشتمل على بقية القوات. وكان على إحدى المجموعتين الصغيرتين أن تأخذ طريقها على شمال المعسكر، وعلى الثانية أن تطوقه وترابط غربه. أما المجموعة الرئيسة فكان عليها أن تظل شرقاً عنه. وحين بات كل شيء هادئاً بعد منتصف الليل أطلقت كل المجموعات الثلاث النيران في وقت واحد على الجنود النائمين في المعسكر فاستيقظوا ليجدوا الرصاص ينهال عليهم من كل جانب. ومثلما حدث في روضة مهنّا خُدِعَ جنود الشريف فظنّوا أن المهاجمين لهم قوة هائلة، وأخذوا يطلقون النار في كل اتّجاه. وقد تسبّب إطلاق النار كيفما اتفق في نشوب معارك عنيفة داخل المعسكر بين جماعات من جنود عبد الله أنفسهم كانت كل منها تعتقد بأن الجماعة الأخرى من جيش العدو. ثم تحوّلت المجموعتان الصغيرتان المهاجمتان من مكانيهما وانضمتا إلى المجموعة الرئيسة وبدأ الجيش النجدي كله بمهاجمة جيش الشريف، وحوّل الاضطراب الموجود فيه إلى فزع تام. ثم فك اشتباكه مع ذلك الجيش وانسحب إلى نجد بأقصى سرعة ممكنة، تاركاً وراءه ناراً تلتهم نفسها بنفسها. وهكذا سحق جيش الشريف وفر من نجا منه إلى مكّة مُخَلّفاً في أرض المعركة مئات القتلى وكل ما كان لديه من مدافع وبنادق وذخيرة وعتاد. أما الأمير عبد الله نفسه، الذي أيقَظه الحادث المزعج بعد منتصف الليل، فقد كان مندهشاً ومرتبكاً إلى الحدّ الذي لم يستطع معه أن يعرف ماذا كان يحدث من حوله. وكل ما عرفه أنه قد هزم بطريقة ما، وأن عليه أن يهرب لإنقاذ حياته. وقد استطاع أن ينسلّ من المعسكر على بغل ومعه عدد قليل من خدَمِه المخلصين، واتّجه إلى الطائف فوصلها بعد ثلاثة أو أربعة أيام.

وكان عامل التليفون في مكتب بريد الطائف رجلاً اسمه أبو نصيف. وقد أخبرني أنه حين سمع بوصول الأمير مع حفنة من خدَمِه وأتباعه اتّصل تليفونياً بالشريف حسين في مكة وأخبره بوصول ابنه المنهزم على ظهر بغلته. فغضب الشريف لدى سماه الخبر، وبعد أن أبدى تعليقات لا يمكن أن تعاد هنا استشهد ببيت الشعر المشهور:

ألا ذهبَ الحِمارُ بأمِّ عمرو فلا رجِعَتْ ولا رَجِعَ الحمارُ

وبعد الهزيمة المنكرة التي وقعت في تربة سنة 1919م أصبحت الحجاز معرّضة لهجوم آخر ضدها. وقد جاء ابن لؤي إلى ابن سعود يحثّه على أن يقوم بغزو فوريّ لها. لكن ابن سعود رفض ذلك رفضاً باتاً. لأن الشريف كان لا يزال يتلقى مساعدة من بريطانيا، وكان أي تحرك ضده مغامرة خطيرة للغاية. وعلى أية حال فقد كان ابن سعود على وشك التحرك لمهاجمة حائل، ولم يكن في وسعه أن يوفّر الوقت والإمكانات لأعمال عسكرية أخرى. بل إنه بعد استيلائه على حائل كان، أيضاً، مشغولاً في أماكن أخرى بحيث لا يستطيع إشغال نفسه بالحجاز وقد أدّت حيطته، كما هي العادة، إلى نتائج مفيدة. فقد بدأت الأحداث في غرب الجزيرة العربية تتحوّل تحوّلاً واضحاً لمصلحته. ولم يمض وقت طويل حتى أُضيفت منطقة عسير إلى حُكمِهِ دون جُهدٍ تقريباً.

ومنطقة عسير تقع على البحر الأحمر جنوب الحجاز. وكانت في بداية العشرينات من هذا القرن تتمَتّع بنوع من الاستقلال الذاتي تحت حكم الأمير حسن بن عائض، الذي كان مقرّه في عاصمتها أبها. وكان حسن قبل ذلك بزمن قصير قد دعّم مركزه بهزيمته للإدريسي الذي كان ينافسه في المنطقة. وكان انتصاره بسبب المساعدة التي كان يتلقاها من الشريف حسين. فأصبح ابن عائض متعالياً ومغالياً في الثقة بنفسه، وأخذ يتحالف مع الشريف بصورة مطردة، وحاول أن يقسو على كل معارضيه ويضطهدهم.

ولقد أساء ابن عائض الحكم على رغبات شعبه حين رمى بثقله مع الهاشميين. وكانت القبائل في عسير تنتمي إلى بني شهر وشهران وقحطان

وعسير مع وجود جماعات من سبيع وعتيبة. وكانت كل هذه القبائل سلفية في معتقداتها الدينية. ولذلك فقد كانت تنظر إلى سكان المدن الحجازية بريبة وعدم ثقة، وكانت متعاطفة مع الدعوة الوهابية. ومع بروز الإخوان واتساع نفوذ ابن سعود أصبح من المتوقع أن تتطلع تلك القبائل إلى الرياض لا إلى مكة بحثاً عن القيادة والإرشاد. وفي سنة 1921م وفدت جماعة من زعماء القبائل في عسير إلى الرياض وشكت على ابن سعود من سوء المعاملة التي كانت تعانيها على يدي ابن عائض. فوافق ابن سعود على أن يتوسّط لهم عنده. لكن ابن عائض رفض أن يتناقش مع الوفد السعودي، واعتبر الفكرة كلها تدخلاً سياسياً لا مبرّر له في شؤونه الداخلية. ثم ضاعف من اضطهاده لزعماء القبائل، فاضطر كثير منهم إلى الهرب من عسير خوفاً على حياتهم.

وكان ابن عائض يهدف من تصرفاته إلى إغاضة ابن سعود. وكان أن اعتبر ابن سعود هذا التصرف إهانة لا يمكن التغاضي عنها. فبعث جيشاً كبيراً بقيادة عبد العزيز ابن مساعد إلى عسير في نهاية 1921م. وحين وصل ابن مساعد إلى منطقة بيشة عسكر هناك وبعث رسالة إلى ابن عائض يطلب منه أن يؤكد ولاءه لابن سعود. فما كان من ابن عائض إلا أن أجاب إجابة بسيطة مباشرة. ذلك أنه أرسل رسولاً ومعه حزمة صغيرة تحتوي على مشط من الرصاص. ولم يكن في الإمكان توجيه دعوة للقتال أكثر صراحة من ذلك. وما كان ابن مساعد الرجل الذي يرفض مثل تلك الدعوة. فتقدّم بجيشه فوراً إلى عسير. وفي وادي حجلة وجد جيش ابن عائض متحصناً في مواقعه الدفاعية بقيادة محمد بن عبد الرحمن بن عائض. وكانت نتيجة المعركة التي دارت هناك هزيمة ساحقة للقوات العسيرية، التي انسحبت إلى أبها حيث كان حسن بن عائض يعمل بجد لإصلاح استحكاماته الدفاعية. وكان فقدان الروح المعنوية بين الجنود العسيريين كبيراً لدرجة أنه حين بدأت القوات السعودية تتقدم نحو أبها هرب كثير من أفرادهم بأسلحتهم وعتادهم، ولم يبقَ إلّا قوة ضئيلة مرتعبة تدافع عن المدينة. وحينذاك أحسّ زعماء القبائل في المنطقة بأن نصر السعوديين قد بات وشيكاً. ولأنهم كانوا دائماً يُفضّلون الانضمام إلى الجانب المنتصر ليشتركوا في أية غنائم

متيسرة فقد رموا بثقلهم مع ابن مساعد. وتم الاستيلاء على أبها دون صعوبة. ثم اضطر حسن بن عائض بعد أن زالت كبرياؤه على الاستسلام. فعامله ابن مساعد بلطف وأرسله مع أفراد آخرين من أسرته إلى الرياض. وهناك استقبله ابن سعود بالشهامة والكرم اللذين كان يبديهما دائماً لمن انتصر عليهم. بل إنه عرض على ابن عائض أن يكون أميراً له في عسير. لكن ابن عائض كان أشد صلفاً من أن يقبل ذلك العرض. ومع ذلك فقد سمح له بأن يعود إلى عسير حيث بقي هو وأسرته في قلعته الجبلية القديمة المسماة حمالة.

على أن ملحمة عسير لم تنتهِ تماماً عند ذلك الحدّ. ذلك أنّ ابن مساعد عيّنَ فهد العقيلي أميراً لأبْهَا. واتّضحَ أن العقيلي لم يتصرّف تصرُّفاً يجلِب إليه مودّة السُكّان. ولذا فإنّ القبائل سرعان ما حرّضَت حسن بن عائض على الثورة ضِدّه. فوافقَهُم على ذلك، وزَحَف على رأس قوّة كبيرة لمحاصرة أبها. ودافَعَت الحامية السعودية دفاعاً ضارياً عن المدينة، لكنها سقطت في نهاية الأمر. وجاء دور العقيلي ليؤخَذ أسيراً. وكان ردّ فعل ابن سعود على تلك الأحداث سريعاً، فقد أرسل قوّة كبيرة إلى عسير بقيادة ابنه فيصل. وبوصوله انهارت الثورة واستُولِيَ على أبها دون مقاومة تُذكَر. وكان فيصل حكيماً إذ عيّن أميراً جديداً، اسمه عبد العزيز ابن إبراهيم، أثبت أنه أكثر شعبية من سلَفِهِ لدى السكان. أما سيء الحظّ حسن بن عائض فقد وُجِدَ هو وأسرته أنفسهم مرّة ثانية أسرى في طريقهم إلى الرياض. وقد استقبله ابن سعود بحِلْمِه وكَرَمه العظيمين استقبالاً حارّاً وعفا عمّا قام به من دَورٍ في الثورة، غير أنّه في هذه المرة لم يسمح للأسرة أن تعود إلى عسير، وأذن لها - كما أذن لآل رشيد من قبل - أن تعيش في الرياض تحت نوع خفيف جداً من الإقامة الجبرية لكي يكون قادراً على مراقبتها مراقبة حازمة لكنها لطيفة.

وحين أتيتُ إلى الرياض كنت كثيراً ما أرى ابن عائض وابنه في السوق حيث كانا يعامَلان معاملة متساوية مع سائر رعايا ابن سعود.

ولقد قُدِّر لمنطقة عسير أن تنتعش تحت الحكم السعودي، فأصبحت ذات حظوة لدى الأمير فيصل الذي وجد أنه يستطيع دائماً أن يعتمد على صداقة وولاء سُكّانها. وقد منح رجال قبائلها مطلق الحرية في السفر والعمل في أي جزء آخر من البلاد السعودية، فانتهزوا تلك الفرصة ووجّهوا ما لديهم من نشاط وطاقات لمصلحتهم. وأصبح ينطبق عليهم المثل المشهور: "بشّر النخل بفلاّح جديد".

ولأن استيلاء ابن سعود على عسير قد حدث بعد وقت قصير من معركة تربة فقد كان ضربة قاسية للشريف حسين. فقد أصبح السعوديون يحيطون به من الشرق والجنوب معاً وكان من المتُوقَّع أن يكون الشريف في غاية الحذر من عمل أي شيء قد يثير ابن سعود. لكنه استمر في أفكاره المعهودة بشأن قوّته وأهميته، وظل يعتبر نفسه الزعيم الطبيعي للجزيرة العربية. وفي سنة 1924م ارتكب خطأً جسيماً أدّى إلى سقوطه. فقد كان السلاطين العثمانيون لمدة قرون يعتبرون خلفاء للمسلمين. وقد رأت الحكومة التركية الجديدة، التي استولت على مقاليد الأمور عند نهاية الحرب العالمية الأولى، أنّه لم يعد هناك داع لاستمرار الخلافة فألغتها. وكان أن حاول الشريف حسين فوراً ملء الفراغ فأعلن نفسه في احتفال مهيب خليفة للمسلمين. وكان ذلك العمل موضع استهجان المسلمين في كل مكان، خاصّة الإخوان الذين كانوا يعتبرون الحجاز مرتعاً للظلم والإلحاد.

وكان أن قام سلطان بن بجاد، بمبادرة شخصية منه، بإعداد جيش من الإخوان غالبيتهم من قبيلة عتيبة وقادهم عبر الصحراء لمهاجمة الشريف. ولم تكن تلك الحملة الخطيرة تحظى بمساعدة من ابن سعود. ولكن من المُحتَمَل أنّه كان يُباركها سِرّاً. ومرة أخرى أخذ جيش الأشراف على حين غرّة. ففي صباح أحد الأيام من شهر سبتمبر سنة 1924م (1343هـ) أخذت مجموعات استطلاعية لقبائل محاربة تراقب قلب مدينة الطائف من خلال مرتفعات الجبال المحيطة بها. وكانت الطائف، التي تبعد عن مكة بحوالي أربعين ميلاً، العاصمة الصيفية للحجاز. ولم يرْتَبْ سُكّانها برؤية أولئك المحيطين بها، بل ظنّوهم أفراداً من

القبائل المحلية يرعون حيواناتهم في تلك الجبال. لكن هؤلاء كانوا في الواقع ينتظرون الفرصة المناسبة للاستيلاء على المدينة. وكانت في الطائف حامية عسكرية بقيادة الشريف علي بن الحسين لكن معظم جنودها كانوا معسكرين في قرية الهده القريبة منها. ومن المحتمل أن القلعة التركيبة القديمة الموجودة في الطائف لم تكن تضُمّ إلا قوّة رمزية للمحافظة على النظام والقانون بين السكان المحلّيين. وقد اكتسح الإخوان المدينة، التي لم تكن مرتابة على الإطلاق، بسرعة واحتلوها دون مقاومة تُذكَر. ثم مضوا في طريقهم نحو الهده وهجموا على الحامية الموجودة فيها بضراوة وكبدّوها خسائر فادحة.

وكانت التقارير التي أعلنتها حكومة الشريف للعالم الخارجي عن حوادث الطائف تنطوي على ادّعاءات بأن الإخوان تصرّفوا تصرُّفاً وحشياً، وأنهم قتلوا النساء والأطفال دون رحمة. وقد ردّد بعض الأجانب تلك الادِّعاءات في كتاباتهم عن هذا الموضوع كما لو كانت حقيقة لا جدال فيها. ولكني أعتقد أنه لا أساس لها من الصحة. وقد أخبرني أمير الطائف نفسه أنه لم يُقتَل أحد في المدينة سوى أفراد الحامية وبعض الأهالي الذين حاولوا المقاومة. ومن المُرَجّح أنّ المسؤولين الأشراف روّجوا تلك التقارير رغبة في الإضرار بسمعة ابن سعود والإخوان، وحرصاً على صرف الأنظار عن الهزيمة الكبيرة التي مُنْيَت بها قوات الحجاز. على أن نجاح تلك الدعاية المُغرِضة كان في حدّ ذاته ذا نتائج عكسية بالنسبة للأشراف. ذلك أن الحجازيين صدّقوها فدبّ الرعب في نفوسهم وانهارت معنوياتهم. وكان من أثر تلك الدعاية أن حرّم بعض علماء الهند الحج إلى مكة مدّة من الزمن.

ولم يمض وقت طويل حتى سقطت مكة المكرمة نفسها بأيدي الرجال الأشداء الذين سبق أن استولوا على الطائف. ولم تُبدِ مكّة المكرّمة أية مقاومة للغُزاة لأن الشريف حسيناً نفسه كان قد تركها وذهب إلى جدة. وبعد الاستيلاء على المدينة المقدسة بقليل قدم عليها ابن سعود في أكتوبر سنة 1924م لأول مرة في حياته. ولم يدخلها مَلِكاً فاتحاً وإنّما دخلها حاسر الرأس مرتدياً لباس الإحرام البسيط. وكانت معه قوات كبيرة من ضمنها فرقة من قبيلة مطير بزعامة فيصل الدرويش الذي كان أحد قادة الإخوان.

وفي أثناء ذلك تعقّبت طلائع المحاربين من رجال القبائل بقايا جيش الشريف الهارب، فاستولت على الرغامة وحاصرت مدينة جدة التي التجأت إليها بقية قوات الحجاز. وقد جرت مواجهات عديدة بين المهاجمين والمدافعين بين الرغامة وجدة، وكانت في غالبها سجالاً بين الطرفين. وكان يوجد في جدة بضع دبابات بدائية كان المدافعون يعلِّقُون عليها آمالاً كبيرة. لكنها حينما تركت أسوار المدينة أصبح مسيرها العطل أو الوقوع في أيدي المهاجمين.

وأخيراً وصل ابن سعود إلى ميدان المعركة وتسلم القيادة. وكان بدون شك قادراً على اقتحام جدّة من غير مجهود كبير لو أراد ذلك. لكنه آثَرَ الحكمة والأناة لِئلّا تُسفك دماء لا موجب لها من جراء الهجوم على هذه المدينة الذي كان يدرك أنها ستخضع له في نهاية الأمر. ومنذ بداية الحصار طلب وجهاء جدة من الشريف حسين أن يتنازل عن الملك لابنه علي. وكان جوابه على ذلك قول الشاعر:

مشيناها خُطىً كُتِبَتْ علينا　　ومن كُتِبَت عليه خُطىً مَشاها

فترك البلاد إلى العقبة، ثم ذهب إلى قبرص، فتُوفيَّ فيها بعد فترة وأُحضِرَ جسده إلى المسجد الأقصى حيث دُفِنَ هناك. وكان قد نُوديَ بابنه علي مَلِكاً على الحجاز فور مغادرته لها في أكتوبر سنة 1924م.

وكان حصار جدة أمراً ذا أهمية خاصة. فقد تحصّنت القُوّات السعودية في سفوح التلال الواطئة شرق المدينة مما أتاح لها أن تراقب ميناءها بدقة، ومَنَحها موقعاً دفاعياً ممتازاً في حالة أي هجوم عليها. وكانت التلال أبعد من مرمى المدافع الموجودة في جدة، فحاولَت حاميتها أن تتغلب على هذه المشكلة بأن وضعت مدافع على سطوح البيوت العالية، وأخذت توُجِّه نيرانها إلى القوات السعودية ليلَ نهار. ولسوء حظِّها لم تفلح محاولتها في إيصال النيران إلى تلك القوات، ولم تنتج إلّا إضعاف الأبنية التي كانت قد نصبت عليها المدافع وإزعاج أهل جدة خلال ساعات الليل. على أن الحصار لم يكن كاملاً على أية حال. فقد ظلّت السفن المختلفة تأتي إلى ميناء جدة وتذهب منه دون انقطاع. وكان من

حكمة ابن سعود أنه لم يحاول أبداً أن يوقِف مجيئها وذهابها؛ إذ لو فعل ذلك لأثار تعقيدات دولية كان في غِنى عنها. ولم يكن من المُستغرَب في تلك الظروف أن يستغرق الحصار أحد عشر شهراً. وفي أثناء ذلك كانت هناك عِدّة محاولات للتّوسُط من أجل إيقاف الحرب أو الاستسلام بشروط. وكان أحد الوسطاء سانت جون فيلبي الذي أُرسِلَ مرّة أُخرى ليتَفاوضَ مع ابن سعود ممثلاً عن السطات البريطانية في مصر.

وبينما كان ابن سعود محاصراً لجدّة وضعت قوّاته الأخرى حصاراً على المدينة المنورة. وكانت فرقة صغيرة من هذه القوات بقيادة ابنه الأمير محمد، لكن غالبيتها كانت مُكوِّنة من رجال قبيلة مطير بزعامة فيصل الدويش. وقد سقطت المدينة من غير صعوبة في ديسمبر سنة 1925م في وقت لم تُبْدِ فيه جدّة أيّة علامة للاستسلام. وبدا للدرويش أن ابن سعود كان في حاجة ماسّة إلى تعزيزات جديدة، فأراد زعيم الإخوان الداهية أن يُحوِّل الموقف لصالحه. وكان ابن بجاد يعسكر خارج مكة المكرمة في منطقة تُسمّى المعابدة حيث كان يقطن فريق من قبيلته عتيبة. فذهب إليه واقترح عليه أن يتّصلا بابن سعود، ويطلُبا منه أن يجعل أحدهما أميراً على المدينة المنورة مقابل مساعدتهما المستمرة له في حربه مع قادة الحجاز. فوافق ابن بجاد على اقتراحه وانطلقا فوراً لمقابلة ابن سعود في مخيّمة في الرغامة حيث عرضا عليه اقتراحهما، لكن ابن سعود رفض الاقتراح رفضاً باتاً. فقد كان يدرك أنه من الأفضل عدم إعطاء هذين الرجُلين الطَمُوحَين المتشدّدَين مناصب في الحجاز حتى وإن فقد تأييد قبيلتي مطير وعتيبة. وكانت الاستجابة لطلبهما تعني حتماً الدعوة إلى ثورة ضدّه في المستقبل. وما أن ذاق الزعيمان مرارة رفض اقتراحهما حتى انسحبا بأتباعهما على نجد، ولم يشتركا في الصراع بعد ذلك.

وكان للحادثة المؤسفة في الرغامة أثراً كبير في المستقبل. فابن بجاد لم يأخذ معه كل قبيلة عتيبة حين ترك الحجاز. وكانت زعامته محصورة في الدرجة الأولى على برقا من هذه القبيلة. أما الروقة، الأصغر حجماً، فقد كان زعيمها عمر بن ربيعان الذي ظل شديد الإخلاص لابن سعود. وفي غضون سنوات قليلة أصبح

ذلك الانقسام القبلي من الأهمية بمكان. فالروقة حافظت على تأييدها القوي لابن سعود بينما ظل امتعاض برقا بزعامة ابن بجاد ناراً تتأجج حتى تحول بعد فترة قصيرة إلى لهب في ثورة الإخوان.

وفي نهاية ديسمبر سنة 1925 (1344هـ) وصلت الهجمات المتقطعة على جدة إلى نهايتها حيث استسلمت تلك المدينة. وباستسلامها سقطت بقية مدن الحجاز، كينبع والمدن الشمالية، كما تسقط قطع الدومينه. ولم يمضِ وقت طويل إلّا وقد أصبحت منطقة الحجاز بكاملها في حوزة سلطان نجد من غير منازع. وبعد أن استسلمت جدّة ودخلها ابن سعود منتصراً طبق فيها سياسة حكيمة ملؤها التسامح والرحمة. فقد أخبر السكان أن في إمكانهم أن يعودوا إلى أعمالهم التي كانوا يزاولونها، كما طلب من موظفي الحكومة السابقة أن يبقوا في وظائفهم. وكان ذلك مما وفّر عليه مشكلة حل الجهاز الإداري زمن الأشراف وإحلال جهاز جديد محلّه، كما أنه أكسَبَه في نفس الوقت شعور الامتنان والولاء من جانب الموظّفين الحكوميين الذين احتفظوا بمراكزهم ومصادر معيشتهم.

وبعد أن رتّب ابن سعود الأمور في جدّة عاد إلى مكة المكرمة حيث سَعُدَ بأداء الحجّ للمرّة الأولى في حياته. وكان حتى سنة 1925م يُدعَى بلقبه الرسمي، سلطان نجد، كما كان يُدعى بألقاب أُخرى مثل الإمام والشيخ. وفي احتفال مؤثر عُقِد في مكّة المكرمة في العاشر من شهر يناير سنة 1926م (1340هـ) نودِيَ به أيضاً، ملكاً للحجاز.



الشيخ عيسى بن علي شيخ البحرين أول من آوى العائلة السعودية في منفاها عندما تركت الرياض سنة 1890 م.

تصوير الجمعية الجغرافية الملكية



الشيخ مبارك الصباح شيخ الكويت (يجلس في الوسط) وابن سعود (إلى اليسار) وشقيقه سعد (يقف في الوسط) وباقي العائلة السعودية الذين حصلوا على ملجأ لدى الشيخ مبارك حتى استولى ابن سعود على الرياض سنة 1902م.

تصوير الجمعية الجغرافية الملكية



ابن سعود مع بعض اخوانه وأبناه قرب ثاج في المنطقة الشرقية حيث كان الأمير ابن سعود يخيم مع الكابتن شكسبير.

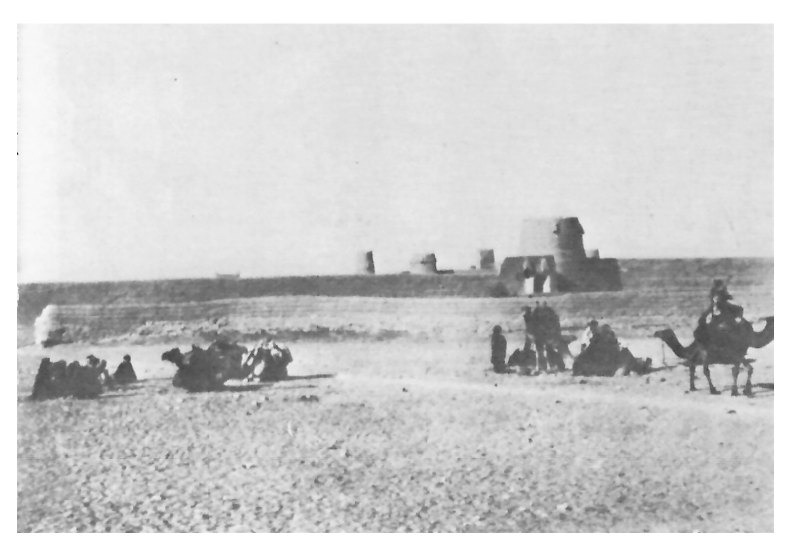
تصوير الجمعية الجغرافية الملكية

الأمير سعد بن عبدالرحمن بن سعود شقيق الملك. تصوير الكابتن شكسبير سنة 1911م.

الجمعية الجغرافية الملكية

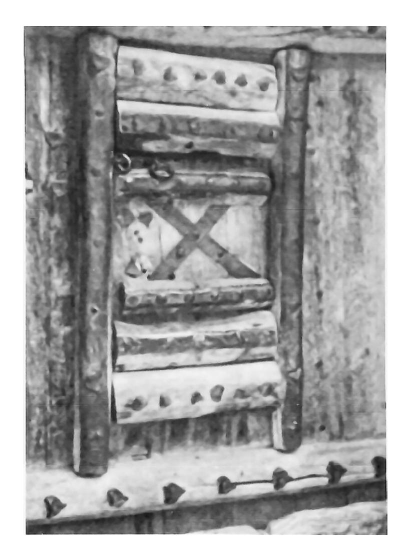


القصر القديم بالرياض من الخارج　　　　　تصوير بوير فوتو



سور الرياض الخارجي وهو من الطين وتظهر بوابة الأحساء سنة 1912م.

تصوير الجمعية الجعرافية الملكية



بوابة قلعة المصمك بالرياض، وتبين الخوخة التي دخل منها عجلان أمير ابن رشد، أثناء محاولة ابن سعود وأتباعه الاستيلاء على المدينة سنة 1902م.

تصوير فينا



أحد الإخوان بلباسه الخاص سنة 1923م.

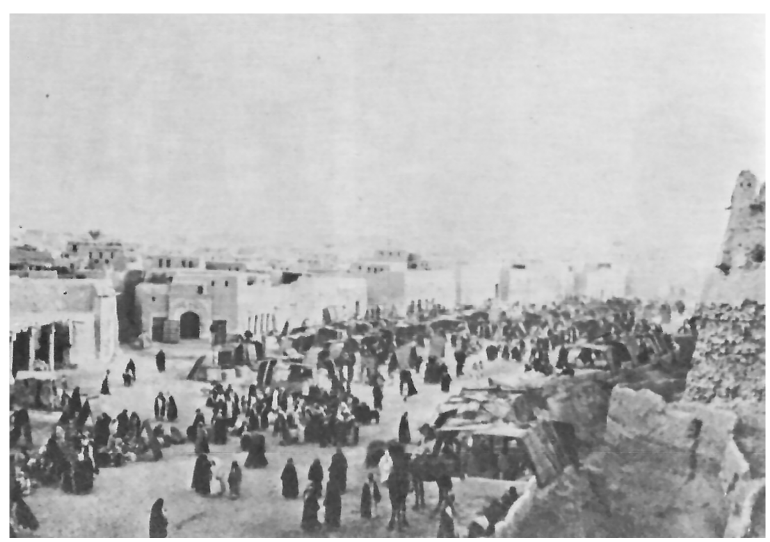


إثنان من الاخوان في الكويت سنة 1926م.



منظر عام لمدينة نجدية، عنيزه

تصوير بوير فوتو



السوق في الهفوف عاصمة الاحساء التي استولى عليها ابن سعود سنة 1913م.

تصوير بوير فوتو



حاكم أبها عاصمة عسير في طريقه إلى جامع أبها التي سقطت في ايدي السعوديين سنة 1921م.

تصوير بوير فوتو



مدينة صنعاء عاصمة اليمن سنة 1920م.

تصوير وكالة كيستون للصحافة



الشريف حسين بن علي
في عمان سنة 1924م
بعدما تنازل عن الحكم
لصالح ابنه علي.

تصوير جريدة التايمز



الأمير عبدالله بن الحسين الذي هُزِم في تربة سنة 1919م. تصوير ماجنوم





الفَصْلُ السَّادِس

ظُهُورُ الإِخْوَان

قَالَ تَعَالَى:

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾

سورة الكهف (17)



ترجع أصول حركة الإخوان إلى الدعوة الإصلاحية التطهيرية التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في القرن الثامن عشر. وقد وُلِد ذلك المُصلِح في بلدة العيينة سنة 1703م (1115هـ)، ودرس العلوم الدينية على أبيه، الذي كان قاضياً للبلدة المذكورة والمتوفي سنة 1740م، وقد ساء ابن عبد الوهاب ما رآه حوله من انحراف عن الدين الإسلامي الصحيح، خاصة تلك الخرافات التي انتشرت بين الناس كعبادة الأضرحة وتقديس الأولياء، فأخذ يدعو إلى تطهير العقيدة مما لم يأمر به الله ولا رسوله، وأوضح أن عبادة غير الله ضَلال وكُفر.

وفي سنة 1740م اتصل ابن عبد الوهاب بالأمير عثمان بن معمّر ونال تأييده، لكنه توقف عن ذلك التأييد حينما عارض الحركة حاكم الأحساء سليمان بن محمد آل حميد. فاضطر المصلح إلى ترك العيينة واتّجه إلى الدرعية حيث رحَّب به أميرها محمد بن سعود. واتفق الرجلان على نشر الدعوة بكافة الوسائل. وقد أدّى نجاح الجهاد الذي تلا اتفاقهما إلى سيادة دعوة ابن عبد الوهاب في أكثر مناطق جزيرة العرب. وظلت تلك الحركة قوية حتى قضت عليها عسكرياً قوات محمد علي، حاكم مصر، سنة 1818م (1233هـ)، على أن روح الحركة ظلت حيّة، خاصة في منطقة نجد، كما أن قادة آل سعود ظلّوا يؤيدون مبادئ دعوة ابن عبد الوهاب كابراً عن كابر. وقد نشأ ابن سعود نفسه وتربى على تلك المبادئ، وبعد نجاحه السريع في الوصول إلى حكم البلاد أصبح المجال مفتوحاً لإحياء المبادئ المذكورة. وقد تمثل ذلك الإحياء في قيام حركة الإخوان.

في سنة 1912م كان ابن سعود قد أسس لنفسه دولة في صحراء بلاد العرب. لكن مصير تلك الدولة كان معتمداً على ولاء البادية المتغيّر سريعاً. وكان من المحتم أن تتفكّك دولته بمرور الزمن، كما تفكّكت دول عربية أقامها غيره، ما لم يجد طريقة يضمن بها استمرار ولاء القبائل له. ومن هنا برزت له فكرة ذكية جداً وهي إنشاء مستوطنات (هُجَر) يستقر فيها البدو ويعملون في الزراعة بدلاً من حياة التنقل والترحال. وقد أدرك أن تلك الهجر حينما تتأسس بصورة جيدة فإنه ستوجد لدى سكانها كل الأسباب التي تجعلهم يؤيدون حكومة قوية ثابتة تمكنهم من الزراعة بسلام وبهذه الطريقة يمكن القضاء على الفوضى التي كانت سائدة في الماضي. وكان ابن سعود يأمل أن يغرس عقيدة ابن عبد الوهاب في تلك الهجر حتى يرتبط ساكنوها به لا برباط الرغبة المشتركة في السلم فقط وإنما برباط العقيدة الدينية الجامعة أيضاً.

وكانت لكل قبيلة موارد مياه تعتبرها ملكاً خاصاً بها. وقد شجّع ابن سعود زعماء القبائل بالهِبات والمِنَح أن يبنوا بيوتاً سكَنيّة حول تلك الموارد. لكن رغم محاولاته المُضنِية لإنشاء هُجَر ناجحة فإن البدو كانوا متردّدين في قبول الفكرة. فحدثت عدة انتكاسات في هذا المجال. على أنه تغلّب عليها بكرمه الدائم من بذل المال وإعطاء الإبل وغيرها مما جعل رجال القبائل المتردّدين يقتنِعون بجدوى التعاون بالنسبة لهم.

وكانت الأرطاوية أول هجرة أُنشِئَت في إطار الخطّة المذكورة وذلك سنة 1913م (1331هـ)، وكان سكانها أول من سمّوا أنفسهم باسم الإخوان. ثم انتشرت الحركة بسرعة في وسط الجزيرة العربية، خاصة نجد. وعُيِّن علماء دين في كل هجرة لتعليم سكانها عقيدة ابن عبد الوهاب. وقد نجح هؤلاء في تعليمهم لدرجة أن الإخوان سرعان ما اشتهروا بتعصبهم الديني. ورغم أن إقامة الهجر من الأحداث الجوهرية الهامة في تاريخ الجزيرة العربية الحديث فإني لم أجد تفصيلاً عنها في الكتب التاريخية التي قرأتها باللغة الإنجليزية إلا نادراً. وبما أن غايتي من هذا الكتاب ملء بعض الفجوات التي أهملها التاريخ فإني قد ذكرت

قائمة بالهُجَر المهمّة والقبائل التي استوطَنَتها والزعماء الذين تولوا مقاليد الأمور فيها[3].

ولم يكن الهدف من هُجَر الإخوان مقتصراً على خلق استقرار سياسي وإنما تجاوز ذلك إلى غرض عسكري. فقد أصبح لدى ابن سعود، للمرة الأولى، احتياطي من رجال مستعدين دائماً للقتال تُعرَف أمكنتهم ويعتمد على ولائهم. ورغم وجود المنافع المادية التي يمكن الحصول عليها نتيجة الاستقرار فإن رجال القبائل لم يهجروا حياة الترحال بدون أسف. وكان يتردّد على ألسنتهم قول أحد شعرائهم بمناسبة بناء فيصل الدويش بيتاً من الطين في الأرطاوية:

زلّ الطرب والتَبدوي فات	من يوم فيصل بنى طينه
لا واهني من قرا النصبات	وبمصحف قد عرف دينه

وكانوا قد افتقدوا، بوجه خاص، الغزوات التقليدية التي كان يقوم بها بعضهم على إبل وغنم البعض الآخر، والتي كانت أقرب إلى الرياضة منها إلى الحروب الحقيقية. وقد جعلتهم طبيعتهم القلقة وعدم تسامحهم الديني توّاقين إلى شنّ الحروب على الكفار. ولأن الكافر في عيونهم كان تقريباً كل من ليس من الإخوان فإن حركتهم أصبحت سلاحاً في يد ابن سعود يستطيع أن يشهره في وجوه أعدائه متى شاء.

ولم يكن لدى الإخوان أي خوف من الموت في الحروب؛ لأن الموت في المعركة هو الطريق المؤكدة إلى الجنة التي يعتقدون حق الاعتقاد بأنهم سيجدون فيها جداول المياه الباردة والنسيم العليل والنساء الجميلات وكل ما تشتهيه نفس البدوي ويهفو إليه قلبه. وقد ألقوا الرعب في قلوب كل رجال القبائل التي لم تكن تشاركهم عقيدتهم. وكانوا إذا تحركوا نحو الشمال الشرقي من الجزيرة العربية وتوغّلوا في العراق هربت القبائل من أمامهم عبر الفرات، وإذا اتجهوا نحو الشمال الغربي هربت القبائل الأردنية إلى سوريا، وإذا ساروا جنوباً لجأت

3) انظر الملحق السادس من هذا الكتاب.



قبائل اليمن إلى جبالها الحصينة التي يصعب اجتيازها. وكان استيلاء ابن سعود على كل من الحجاز وجبل شمّر بسهولة يرجع في الدرجة الأولى إلى جهد الإخوان. ولقد مرّ زمن في أواخر العشرينات من هذا القرن كانوا يسيطرون فيه على كل جزيرة العرب، وكان في استطاعتهم أن يضُمّوا أيّ جزء منها إلى دولة ابن سعود لو سألهم أن يقوموا بذلك. وقد كتب المؤرخ البريطاني المشهور، آرنولد توينبي، عدّة مقالات عن حركة الإخوان بين سنتي 1922 و 1924م، وتكهّن بأنه إذا استمر نموّ الحركة السريع فسوف تحتوي كل شباب الجزيرة العربية وما حولها. وقد يتسنّى لها أن تعيد التاريخ الأول للإسلام وأن تنفجر بزحفها على البلدان المحيطة بها في آسيا وشمال إفريقيا[4]. لكن هذا الأمر لم يحدث. ذلك أن الإخوان، بدلًا من تسخير قوتهم ضد أعدائهم الأجانب، اغترّوا بأنفسهم وجبروتهم وركزوا سطوتهم في الداخل فثاروا ضد سلطة حكم ابن سعود.

وكان الإخوان سلاحاً ذا حدّين، فمنذ بداية حركتهم كانوا مصدر متاعب بطريقة من الطرق. بل إنه لم يمضِ إلا وقت قصير من الاستيلاء على مكة المكرمة حتى تسبّبوا في إحداث قطيعة سياسية خطيرة مع مصر. فقد كان من العادة أن ينسج المصريون كسوة الكعبة من قماش جميل مزركش كل عام. وقد شهد صيف سنة 1925م أول موسم حج تكون فيه مكة المكرمة تحت حكم ابن سعود، وكانت تلك المدينة مليئة برجال القبائل من الإخوان الذين كانوا يؤدون حجَّهم لأول مرة. وكان المصريون حريصين على إيجاد انطباع جيد عنهم لدى الحاكم الجديد للبلاد المقدّسة. فرأوا أن يجعلوا المراسم التقليدية التي تصحب إحضار الكسوة إلى مكة المكرمة ذات أُبّهة خاصة في تلك المناسبة. وحملوها بقافلة باذخة عبر أبواب تلك المدينة تتقدمها فرقة موسيقية ويحيط بها حرس المحمل المصريون[5]. وكان أن استشاط الإخوان غضباً لأنهم، بما هم عليه من محافظة دينية متشدّدة، كانوا يعتبرون عزف الموسيقى علناً تدنيساً للحرمات. وطلبوا من الموسيقيين أن يُوقِفوا عزفهم، لكن هؤلاء شعروا بالإهانة فرفضوا طلبهم

4) كان يتوقع أن يحدث ذلك بعد توحيد البلدان المختلفة داخل الجزيرة العربية بطبيعة الحال.

5) المحمل جمع حمل يوضع على بعير يرمز إلى السيادة.

واستمروا في عزفهم. فهاجمهم الإخوان فوراً وأطلقوا عليهم النيران. ولم ينتج عن هذه الحادثة قطع المصريين علاقاتهم السياسية مع العهد الجديد فحسب بل إنهم رفضوا أن ينسجوا الكسوة بعد ذلك أبداً. ولهذا السبب أصبحت الكسوة منذ ذلك الوقت تعمل بأيدي عمّال سعوديين وهنود في مكة ذاتها.

وكانت الروح التطهيرية لدى الإخوان من العنف بحيث كانوا يعتبرون أي نوع من أنواع التقنية الحديثة شراً يجب تفاديه. ومن ذلك أنهم كانوا يعتبرون ساعة اليد من عمل الشيطان إذ لم يرد لها ذكر في القرآن، وكانوا يرون من المستحيل أن تعمل مثل هذه الآلة إلا بسحر. وهذا ينطبق على السيارات والتليفون وأجهزة اللاسلكي وأكثر الأجهزة التي كان الملك يحتاجها لإدخال التقدم إلى دولته. وحين التحقت بجلالته كانت الحكومة والخدمات العامة في مكة مجهزة في الغالب بالكهرباء والمكائن الحديثة. وكان فيها مكتب بريد متطوّر وخدمة تليفونية، أما في الرياض فلم يكن هناك أي شيء من هذا على الإطلاق وكانت الخدمة البريدية الرسمية الوحيدة خادماً يأخذ رسائل الملك المهمة إلى أمراء المدن الرئيسية ويعود بأجوبتهم على ظهر بعيره. وإذا كان في حالة نفسية مناسبة فقد يوافق على حمل رسائل الخاصة أحياناً. ولم تكن هذه الحالة كافية بالغرض. وكان من الواضح أن هناك حاجة ماسّة للمواصلات الحديثة. وكثيراً ما عبّر ابن سعود عن رأيه بأنه ليس كل شيء في الحضارة الغربية شراً. وكان هدفه دائماً أن يأخذ ما هو حسن من الغرب ويرفض ما كان سيئاً. لكن الإخوان لم يقتنعوا بسهولة. وكان ابن سعود مضطّراً باستمرار إلى إيجاد مختلف الطُرُق والوسائل لإقناع رعاياه بقبول المخترعات النافعة.

وكان يكفي لإقناعهم في بعض الأحيان أسلوب بسيط، كما حدث حينما أمر أن تُتلى آيات من القرآن عبر التليفون. فاضطر المستمعون إلى أن يوافقوا على أن الآلة التي تحمل كلام الله عبر أسلاكها لا يمكن أن تكون من عمل الشيطان. لكنه كان من الضروري اتخاذ موقف أشد صرامة عندما أُدخِل اللاسلكي إلى الرياض. فحين ارتفعت أصوات الاحتجاج على ذلك لم يوقفها إلى دعوة الملك الحازمة لكل من لا يوافق عليها أن يغادر المدينة.

لكن تلك الأمور كانت تافهة إذا ما قورنت بالأمور الخطيرة التي رفضها تعصُّب الإخوان. فقد قتل أحد هؤلاء رجلاً من أسرته ذاتها لأنه لم يتمسك بتعاليمهم الصارمة. وبالإضافة إلى ذلك كانت للإخوان سُمعة مؤسفة لعدم اتّباعِهم تقاليد الفروسية المتوارَثة عبر القرون في الحروب القبلية. فإشاعة قتلهم الأطفال والنساء في الطائف كانت مثالاً لما كانوا يُتّهمون به من وحشية. على أن سمعتهم المتمثلة في وحشيتهم في الحروب لم تكن مبنية على أساس لا يقبل الجدل؛ إذ لم يكن هناك سوى حوادث فردية بُولِغ في أمرها من قِبَل أعداء الملك. لكن لأن الإخوان كانوا متشددين في الأمور الدينية صدّق كثير من الناس ما كان يرويه خصومهم عنهم. وكان ابن سعود كثيراً ما يشعر بالحرج حين يرى الناس يعتبرون أفضل جنوده قتّالين لا رحمة لديهم.

لقد سبق أن ذكرت بأن بذور ثورة الإخوان بُذِرت حينما رفض ابن سعود أن يعيّن ابن بجاد والدويش أميرين في مكة والمدينة بعد الاستيلاء عليهما. فقد غضب الرجلان وانسحبا بأتباعهما إلى قلب نجد حيث ما لبثا أن شرعا في التآمر لإسقاط الملك. وكانا يدركان، بتجربتهما المُرّة، أن الثورة المسلحة ستكون وبالاً عليهما. فقررا أن يتخذا وسيلة أكثر مهارة. ومن هنا اتجها إلى العراق والأردن وأخذا، فجأة، بدون رحمة، يهاجمان مخيمات ونقاط حدود منعزلة. وكانا نادراً ما ضربا مرتين في مكان واحد. وتركا دماراً وتلفاً لدى مغادرتهما تلك المناطق. وكانت إحدى الهجمات الشهيرة على الحدود العراقية قد نفذّتها مجموعة كانت تابعة للقوات السعودية في حصار جدة. فقد هاجمت تلك المجموعة، بزعامة فيصل الدويش، مكاناً يسمّى إكلاوة كان يخيّم فيه بنو حسين من بادرة العراق. وكان ذلك المكان قرب بلدة الزبير. ومن الصدف أني كنت في هذه البلدة خلال زيارة قصيرة قمت بها من الهند. وقد أرادت السلطات العسكرية البريطانية في قاعدة الشعيبة أن تذهب إلى مكان الهجوم لتطّلع على الأضرار الناتجة عنه. وطلبت من أمير الزبير أن أذهب مع رجالها لأترجم لهم. لكني رفضت أن أصحبهم قائلاً: أني لا أريد أن أشترك في أي إجراء ضد الإخوان.

وكان لدى الإخوان ما يستطيعون أن يبرّروا به هجماتهم على العراق. فقد أخذ العراقيون يحدُّون من دخول النجديين إلى بلادهم وبنوا خطاً من الاستحكامات على طول حدودهم مع نجد. وكانت أولى المخافر التي حصّنوها بصوة وبصيّة ثم أضافوا إليهما السلمان. فاعتبر البدو هذه الخطوات اعتداءات على حقوقهم التقليدية في حرية الرعي والانتقال غير المقيّد عبر الحدود. وكانوا على أية حال يعتبرون العراقيين كفاراً، ولذلك فهم صيد حلال على أن السبب الحقيقي لتلك الغزوات كان أمل الإخوان في أن السلطات البريطانية في كل من العراق والأردن ستعتقد أن ابن سعود نفسه كان وراءها فتعمل على الإطاحة به. وقد حقق الإخوان بعض النجاح في هذه الخطة. وظلُّوا يواصلون غزواتهم تلك لمدة ثلاث سنوات. وكانوا يخرجون في كل موسم عبر حدود العراق والكويت والأردن فيهاجمون أي قبيلة أو مجموعة من البدو يجدونها في طريقهم وينهبون المواشي ويقتلون أي إنسان يقاومهم وقد احتجّ العراقيون والبريطانيون بشدة لدى ابن سعود على تلك الغزوات، واعتبروه مسؤولاً عن أعمال أولئك الغزاة لأن معاهدة جدة سنة 1927م قد اعترفت به ملكاً للحجاز وسلطاناً لنجد. وكان ممثل بريطانيا في تلك المعاهدة السيد كلبرت كلايتون. وكان جواب الملك عن ذلك الاحتجاج أنه لم يأمر بتلك الغزوات ولا شأن له بها. ومع ذلك استمرت الحوادث. فانتقد ابن سعود الغزوات علناً في مناسباتٍ عديدة، لكن العراقيين والبريطانيين نظروا إلى موقفه بارتياب وأصروا على أنه لا بد أن يكون مؤيداً للغزاة أو على الأقل لا يريد بذل أي جهد لإيقافهم. وما زلت أذكر أن أعضاء في ديوان الملك نفسه كانوا يعتقدون أنه كان يعُدّ العُدّة للاستيلاء على العراق. لكن، كما اتضح فيما بعد، لم يكن لدى الملك مثل تلك النية. وفي ذلك الوقت تقريباً وجّهت الصحف العراقية كثيراً من الدعاية العدائية الموجهة ضد النجديين، وتعمّدت الإشارة على معركة سابقة هزم فيها النجديون على أيدي العراقيين. وقد أقرّ الملك بذلك، لكنه أضاف قائلاً: "دعوا البريطانيين يقفوا على الحياد وسوف ننهي الأمر بيننا بالقوة". فتوقف العراقيون عند ذلك الحدّ، لكنهم أرسلوا وفوداً غاضبة إلى الرياض، وساد الجوّ تَوتّر عام من جرَّاء قعقعة السلاح.

وحينئذٍ أصبح واضحاً أن شيئاً ما كان لا بدّ أن يعمل لإيقاف الغزوات. وقد حاول الملك أن يؤثر على رجال القبائل بإعطائهم هدايا ثمينة، كعادته، لكنّ ذلك لم يفد كثيراً. فأعلن في كل المدن والقرى داخل حكمه بأن تلك الغزوات مخالفة لأوامره مخالفةً تامة. لكن ذلك أيضاً لم يؤدِّ إلى نتيجة مفيدة. وأخيراً أصبح واضحاً لديه سنة 1928م أن إجراءً حازماً يجب أن يُتّخَذ. فقرر أن يعقد اجتماعاً في الرياض يحضره كل الزعماء المؤثرين من علماء الدين ورجال القبائل في المملكة يهدف إلى إقناعهم بإعادة توكيد ولائهم له، ومن ثَمَّ عزل الإخوان الثائرين.

وانعقد في الرياض اجتماع أصبح يعرف باسم "الجمعية العمومية". وفي الواقع أن سنة 1928م (1347هـ) لا تزال تُذكَر في جزيرة العرب بسنة "الجمعية العمومية". وقد دعي إلى الاجتماع كل زعماء القبائل الكبيرة بما فيهم كثير من قادة الإخوان أنفسهم أو المتعاطفين معهم. كما دُعِي إليه كبار علماء الدين وأمراء المدن الكبيرة في المملكة. وكان مجموع هؤلاء حوالي خمسين ومائتي رجل من أعظم رجال البلاد. وخلال الأسبوعين السابقين للاجتماع الأخير كان زعماء الإخوان يصلون إلى الرياض مع أتباعهم في مجموعات صغيرة. وكانوا خلاصة رجال الصحراء المقاتلين إذ كانوا أشداء، محاربين، لديهم شعور عميق بالاستقلال. وكان الملك مشغولاً في التفاوض مع كل وفد، لكن رجال القبائل كانوا غير راغبين في التسوية. وكان "سلطان" الاسم الأول لابن بجاد، فسار أتباعه في شوارع الرياض وأسواقها وهم يهتفون بقولهم: "لقد ظهر للدين سلطان جديد". وقد هزّ ذلك رجال المدينة فأجابوهم: "أنتم تدّعون أنكم مسلمون أنقياء، والمسلم لا يمكن أن يكون متكبّراً مثلكم". لكن الإخوان لم يخالجهم أي حياء في ذلك وردّوا عليهم بطريقتهم المعهودة: "المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف".

وحينما حان وقت الاجتماع ذاته لم تكن هناك غرفة كافية في القصر تتسع لكل أولئك الوافدين. ولذلك عقد الاجتماع، الذي كنت سعيداً بمشاهدته، في باحة القصر. وقد جلس العلماء عن يمين الملك، وامراء المدن والمناطق عن يساره، وجلس زعماء القبائل وممثّلوهم في وسط الباحة. وبدأ جلالته الاجتماع بإلقاء خطبة حماسية وبّخ فيها رجال القبائل المخالفين له وجعلهم مسؤولين

عن محاولاتهم تمزيق المملكة بتصرّفهم العنيف الذي لا مبرّر له. وانتقدهم بازدراء بقوله: إنهم يتهمونني بإحضار الكفار إلى وطني، نجد. وأوضح استنكاره لاعتداءاتهم على الحدود العراقية وهجماتهم العنيفة عليها، ناهيك عن غزواتهم على قوافل وممتلكات القبائل التي لا تنتمي إليهم داخل المملكة. لكن المتعاطفين مع الإخوان لم يأخذوا ذلك الانتقاد باستخذاء. فقد قالوا إنهم لم يفعلوا إلا ما يقتضيه واجبهم الديني من مهاجمة الكفار وإعادتهم إلى العقيدة الصحيحة. ثم أثاروا احتجاجاتهم المعتادة حول مخافر الحدود العراقية. وبعد نقاش طويل سألهم الملك عما يريدون بصراحة. فأجابوا بأنهم يطالبون بأن تزال المخافر التي بُنيَت على الحدود العراقية، وان يُمنَع استعمال التليفون وغيره من الأدوات الشيطانية في المملكة، وأن تُعَاقَب القبائل التي يعتبرونها مشاركة، كجهينة وبلي، وتعاد إلى طريق الصواب، وأن تُنَفّذ أوامر القرآن بالقوة على الجميع بأقصى ما يمكن من الدقة وبدون استثناء. وعند هذا الحدّ قال جلالته ببراعته المشهورة في المناورة: "مع أنه لا توجد منطقة واحدة ولا قبيلة واحدة ولا مدينة بمفردها. بل ولا شبر من الأرض في كل أنحاء المملكة إلا وقد أخذته بسيفي في ميدان المعركة فإني مستعد للتنازل عن الحكم والتخلّي عن جميع سلطاتي لأي رجل تختارونه بدلاً مني". وحينئذٍ طغت الدهشة على كل المجتمعين واستبدّت بهم الحيرة. وبعد صمت قليل صاح جميع الزعماء الحاضرين بصوت واحد يعلنون احتجاجهم المخلص ضد فكرة استقالته. فاستفاد من الارتباك الذي أوجده والتفت إلى العلماء وسأل كل واحد منهم مباشرة عن رأيه فيه، حسناً كان أم سيئاً، وعما إذا كان معه أم ضده. ولم يكن من المستغرب أن حظي بإجماع العلماء على الثقة به وعدم تفكيرهم بإحلال أي رجل محلّه. وكرّر الملك تلك الأسئلة على أمراء المدن ثم على زعماء القبائل فكانت إجاباتهم مطابقة لإجابات العلماء. وبعد أن أقرّ كل المجتمعين بأنهم موالون له طلب من كل واحد منهم أن يجدّد البيعة له. فبايعه أفراد أسرته أولاً، ثم تلاهم العلماء، فأمراء الميدان، وأخيراً زعماء القبائل. وقد احتجّ بعض أمراء القصيم البارزين بأنهم سبق أن بايعوه منذ بداية حكمه، وقال أحدهم، وهو عبد العزيز بن سُليم أمير عنيزة: لقد بايعتك في الكويت. لكن الملك أقنعهم بأن تلك مبايعة

جديدة. فبايعه كل منهم في نهاية الأمر، وفي ذلك الخضَمّ من قسم إعلان الموالاة نُسِيَت مطالب الإخوان ولم تحظَ بأيّة مناقشة بعد ذلك.

وبعد أن انفضّ الاجتماع عاد الأمراء وزعماء القبائل إلى أوطانهم حاملين معهم هدايا الملك السخيّة من سيوف وعطور وأموال وأطعمه، بل ومجوهرات لنساء بعضهم. وقد أعقب الملك نجاحه في الاجتماع بالسَفر إلى القصيم حيث قابل مرة أخرى مُمَثِّلي القبائل المخالفة له، وأعطاهم مزيداً من هدايا الأسلحة والمؤُن. ثم أقنع القبائل بأن توافق على عدم القيام بمزيد من الغزوات وعدم إثارة أي اضطرابات أخرى. وبعد أن قام بكل ما يستطيعه لإخضاع الإخوان بالطُرُق السلمية مضى في رحلته السنوية إلى مكة المكرمة لأداء الحج.

وكان الناس حينذاك يأملون أن يهدأ الإخوان لفترة معينة. لكن هؤلاء كانوا أكثر قوة من أن يهدؤوا طويلاً بفعل الهدايا والخطب. وما أن غادرهم الملك حتى شرعوا، مرّة أخرى، بالإغارة على الحدود بشكل أبعد عمقاً أشد خطراً. وقد دفعت تلك الإغارات العراقيين إلى اتخاذ إجراءات تأديبية قوية. وبمساعدة القوات الجوية البريطانية أخذوا يقصفون الغزاة من رجال القبائل. وكانوا في بعض الأحيان يتعقّبونهم إلى نجد ويقصفون مخيماتهم وموارد مياههم. وكانت إحدى هجماتهم على قبيلة مطير في اللصافة حيث أصيب عدد كبير من النساء والأطفال. فاضطر الملك إلى تقديم احتجاج شديد اللهجة إلى الحكومة البريطانية. ثم واصل محاولاته للتفاوض مع رجال القبائل، لكنهم كانوا يزدادون تعنتاً. كثيراً ما رفضوا مجرد المجيء إليه في الرياض. ولم يكن من غير المعتاد أن ترى أعداد كبيرة من الإخوان المسلحين يدخلون على هذه المدينة ويخرجون منها معلنين بصراحة عن قوتهم وعدم احترامهم لسلطة الملك.

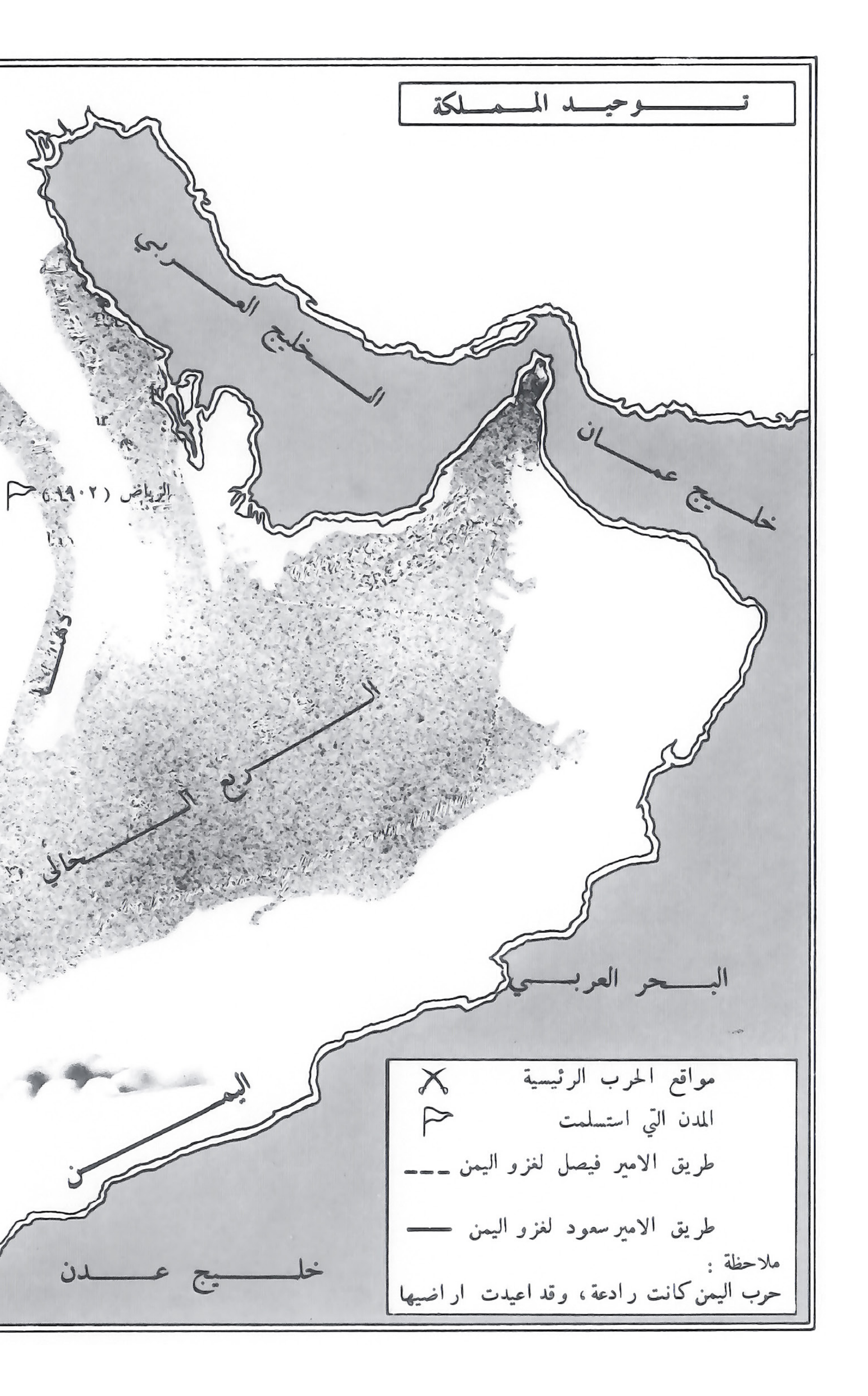
وحينما تصاعدت قوة الإخوان أكثر فأكثر ازداد نفوهم في الحياة اليومية للناس العادين في المملكة لدرجة أن أولئك الذين لم يمرُّوا بتلك التجربة يصعب عليهم تصوّرها. وقُبَيل وصولي إلى الرياض أول مرة سنة 1926م جلد الإخوان علناً رئيس الديوان الملكي، وهو من هو في مكانته، بمجرد الشك في أنه لم يؤدّ

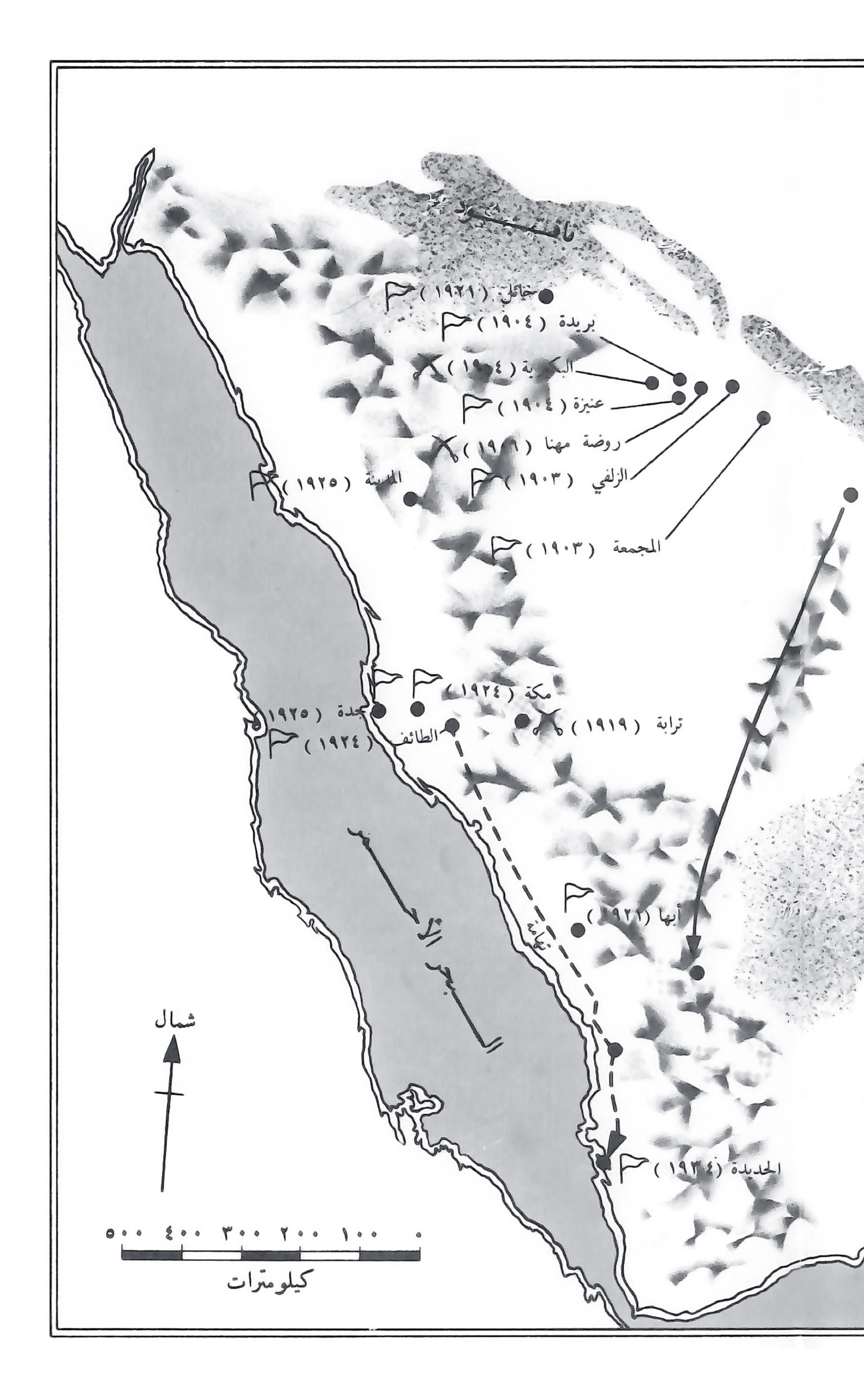
الصلاة مع الجماعة. وكانت جماعات منهم تجوب الشوارع وتتصرف بوصفها شرطة دينية عيّنت نفسها لتعاقب كل شخص لا يتبع تعاليمها الصارمة. أمّا هم فقد تحلُّوا بأقصى ما يُمكِن من العزوف عن الحياة الدنيا، إذا حرّموا على أنفسهم كل متعة مهما كانت ضئيلة. وكانوا يحرّمون الموسيقى، كما سبق أن ذُكِر عند التعرض لحادثة المحمل المصري في مكة، وكانوا يكرهون الشعر والشعراء، ويصرّون على لبس الملابس الخشنة؛ إذ يعتبرون لبس الحرير بذخاً محرّماً. وكانوا لا يبيحون أي نوع من أنواع الحليّ. بل إن كثيراً منهم ذهب إلى أبعد من ذلك ورأى وجود إزالة الخيوط الذهبية المنسوجة في عباءاتهم. وكان من المحتمل أن يمسكوا بأي رجل يظهر وشارباه غير محفوفين أو ثوبه أطول مما هو معتاد فيوقفوه حتى يقصوا الزائد من شعره أو ثوبه. ولم يسلم ابن سعود نفسه من موقف كهذا الموقف. فقد قيل إنه زار مرّة محلّ فيصل الدويش في الأرطاوية فحيّاه مضيفوه بقولهم إن ثوبه كان أطول مما ينبغي، وجاؤوا بمقص فأزالوا منه ما زاد عن الحد المعتاد، والملك لا يزال مرتدياً للثوب.

وكان من الصعب جداً على قادم جديد مثلي، غير معتاد على ذلك النوع من التقشُّف الصارم، أن يبقى بعيداً عن المشاكل. ولسوء حظي كنت أدخن كثيراً قبل أن آتي إلى الجزيرة العربية. وكانت رؤية الإخوان لسيجارة في يد إنسان تعني جلده على الأقل. وكانت السجاير في جدة تباع في السوق السوداء. وبقليل من الحذر استطعت أن أنغمس في رذيلتي بطريقة سهلة. لكن الأمور كانت مختلفة تماماً في الرياض حيث كانت عيون الإخوان تترصد في كل مكان، وحيث كان لا يمكن الحصول على التبغ بأية حال. وكان لا يزال لديّ قليل من سجائر تمكّنت من الحصول عليها من سائق سيارة هندي. فأخفيتها في إحدى العوارض الخشبية من سقوف القصر، وأخذت أدخن واحدة كلما شعرت بأن لا أحد حولي. وعلى الرغم من جهودي في إزالة الدخان فإن الأنوف الحساسة للعلماء الذين كانوا يعملون في القصر قد اكتشفت الرائحة. ولم أتخلّص من ذلك الاكتشاف إلا بصعوبة. وبعد ذلك أقلعت عن التدخين. وكان ذلك بدون شك أمراً حسناً لصحتي وإن كان شاقاً على نفسي وأعصابي.

وفي بداية سنة 1929م كان من غير المستطاع السيطرة على الإخوان. فحوالي ذلك الوقت أقدموا على ارتكاب جريمة شنيعة حين هاجمت قوة منهم قافلة كبيرة للتاجر المشهور ابن شريدة، الذي كان في طريقه من بريدة إلى دمشق. وقد حاول ابن شريدة وعدد من رجاله أن يقاوموا لكنهم قُتِلوا وأُخِذَت قافلتهم. وتلا تلك الحادثة ما كان أسوأ منها. ففي اليوم الثاني عشر من شهر رمضان، والملك يتأهب للتوجه إلى الحجاز لأداء الحج، وردت الأنباء بأن اثنتين من أعظم قبائل الإخوان، عتيبة ومطير، اجتمعتا في شمال القصيم استعداداً للقيام بأعظم هجوم شامل على الأراضي العراقية. فأدرك ابن سعود عدم جدوى محاولاته إقناعهم بالطرق السلمية، وان الحركة التي أنشأها لنشر السلام والاستقرار في مملكته صارت أداة للعنف والفوضى. ولقد أصبح واضحاً كل الوضوح أنه يجب سحق الإخوان، وأن القوة يجب أن تواجَه بالقوة. فبدأ جلالته يستعد للحرب وقلبه مُثقل بالألم.




توحيد المملكة
الخليج العربي
خليج عمان
الرياض (١٩٠٢م)
الربع الخالي
البحر العربي
اليمن
خليج عدن
مواقع الحرب الرئيسية
المدن التي استسلمت
طريق الامير فيصل لغزو اليمن
طريق الامير سعود لغزو اليمن
ملاحظة :
حرب اليمن كانت رادعة ، وقد اعيدت اراضيها


حائل (١٩٢١)
بريدة (١٩٠٤)
عنيزة (١٩٠٤)
روضة مهنا
الزلفي (١٩٠٣)
المدينة (١٩٢٥)
المجمعة (١٩٠٣)
مكة (١٩٢٤)
جدة (١٩٢٥)
(١٩٢٤)
الطائف
تربة (١٩١٩)
أبها (١٩٢١)
تهامة
البحر الأحمر
الحديدة (١٩٢٤)
شمال
٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠
كيلومترات





الفَصلُ السَّابِعُ

معركة السُّبلة

إذا لم يَكُنْ إلّا الأسِنّةُ مَركَبٌ فما حِيلُة المُضطَر إلّا رُكُوبُها

"الكُمَيت الأسَديّ"



كان أول إجراء اتخذه ابن سعود لدى سماعه بتجمع قبيلتي عتيبة ومطير أن بعث رسائل إلى أمراء المدن وطلب منهم القدوم إلى الرياض برايات الجهاد. وكان يتبع تلك الرايات كل المحاربين الموالين للملك. وقد جمع جلالته قواته بأقصى سرعة وإن كانت الأمور غير ميسرة بالنسبة له لأن تلك الحادثة كانت في شهر رمضان. وقد طلب من أتباعه أن يفطروا ليكونوا أكثر قوة في القتال. فتردّد بعضهم في بداية الأمر، لكنهم أخيراً اتّبعوا الأكثرية فأفطروا.

وكان مِمّن وقف إلى جانب الملك في وقت الحاجة أحد أنصاره القدامى، وهو عبد الله بن جلوي، الذي جهزّ جيشاً من رجال القبائل المحلّية في الأحساء، وأرسله بقيادة ابنه فهد إلى المنطقة الشمالية لعرقلة قبيلتي شمّر والعجمان اللتين كانتا تتجمعان لمحاربة الملك. وكان جلالته قد وكّل إلى عبد العزيز ابن مساعد، أمير حائل، مهمة عرقلة حركات ابن مشهور الذي كان قد التفّ حوله أتباعه من عنزة وأفراد قليلون من شمّر. وبذلك استطاع أن يمضي في حملته شمال الرياض وهو واثق بأن جناحيه الشرقي والشمالي آمنان.

وحالما جهزّ الملك قوّة كافية انطلق من الرياض إلى بريدة عاصمة القصيم عبر بلدة شقراء قاعدة الوشم. وكان يصحبه غالبية رجال ديوانه حيثما ذهب حتى في أيام الحرب. ومن هنا كنت سأمضي معه بدون شك. وكان أكثر جيشه قد امتطوا الإبل، لكن قسماً منهم على رأسهم الملك استقلوا السيارات. وكان الملك قد أصبح يعتبر السيارات عظيمة النفع في الحروب بشرط أن لا تعطب أو تنغرز في الرمال. ذلك أنها أسرع من الإبل وأسهل تناولاً عند إرادة القيام بهجوم

مفاجئ أو انسحاب عاجل. ومع ذلك فقد تُرِكَت السيارات في بريدة لأن أرض الصحراء بعدها كانت صعبة جداً بحيث كان من غير الصواب المجازفة بالسفر عليها.

وأذكر أن جلالته عقد عدة اجتماعات في بريدة حضرها عدد كبير من البدو الموالين له. فتحدث إليهم ومازحهم بدون كُلفة باعثاً فيهم الشجاعة ومسدياً إليهم النصيحة كلما رآهم في حاجة إليهما. وكان كل رجل من رجال القبائل تحدث إليه يعطيه رأياً حول قوّة ومكان العدوّ أو ولاء قبيلة معيّنة أو فخذ من افخاذها. وبهذه الطريقة استطاع الملك جمع معلومات كثيرة رغم أن قسماً منها كان متناقضاً. وكان من المُمتع أن يراقب المرء تلك الطريقة الفريدة التي كان جلالته يرفع بها المعنويات ويجمع المعلومات في وقت واحد، وتلك المهارة الفذّة التي كان يمحص بها التقارير ويَزنها للحصول على صورة دقيقة للوضع العسكري الشامل.

كان هناك يوم مطير قبيل مغادرتنا بريدة فتفتّحت الصحراء بالألوان، حيث نمت الأزهار والأعشاب بواسطة الغيث. وفي طريقنا إلى المعركة بدَت الطبيعة وكأنها ترجو لنا النجاح. وبينما كنا نسير كان جلالته يتحدث إلى أكبر عدد ممكن من الزعماء ورجال القبائل. وكان الهدف من ذلك إبقاء الروح المعنوية حيّة وإشباع رغبته المتفتحة دائماً لسماع الأخبار. وقد اتجهنا من بريدة على النبقية حيث تقرر أن ننتظر هناك حتى وصول ابني الملك، سعود ومحمد، من الرياض. وكان الأمير فيصل قد بعث قبل ذلك للمحافظة على الحجاز. وقد اتضح لي بعد ذلك أن الإخوان كانوا على علم بتحركاتنا خلال ذلك الوقت، وأن مطلق بن الجعباء، أحد رؤساء مطير، قد اقترح الهجوم على الرياض قبل أن يغادرها الأمير سعود. وكان يقول إنه لا يوجد من يحميهم هناك إلا قليل من الخدم، فدعونا نذهب لنقضي عليهم. وهذا سيجعل الملك مقطوعاً في الصحراء. وكان يمكن لمثل هذه الخطة أن تنجح. لكنها لحسن الحظ لم تنفذ فوصل الأمير سعود وأخوه سالمين ومعهما خدمهما وعدد كبير من الحاضرة والبادية الذين التحقوا بهما في الطريق.

وقد بقينا حوالي أسبوع في منطقة النبقية. وكانت منطقة طريفة ذات تربة خصبة حمراء شبيهة بالطين تنمو فيها نباتات صحراوية كثيرة. ولكن أكثر الناس في المعسكر لم تكن تحدوهم الرغبة في التمتع بنباتات الصحراء المدهشة. ذلك أن الجو كان يزداد توتراً، وكنا جميعاً ندرك مقدار أهمية المعركة القادمة بالنسبة لمستقبل المملكة. وذات ليلة جرت حادثة صغيرة بعد صلاة المغرب؛ إذ سُمِعَ إطلاق نار من بُعد، فصار كل رجل في حالة تأهب. وهرَعَ الملك نفسه من خيمته يصيح صيحة الحرب ويسأل عما حدث. وقد ثبّطه عدد من زعماء البادية من الذهاب إلى ناحية مصدر النار، فأرسل بعض الخدم لتقصي الموضوع. وقد اتّضح أن إطلاق النار لم يكن سوى إشارة لنفر من قبيلة شمّر كانوا قد ذهبوا ليبحثوا عن مورد ماء فضلوا طريقهم. وكان رفاقهم يطلقون النار ليهدوهم إلى مكانهم. وقد أوضحت تلك الحادثة السهولة التي يمكن بها حدوث نكبات كتلك التي حدثت في روضة مهنّا وتربة. فرغم أنه لم يكن هناك سوى بضع طلقات من بعيد فقد أصبح كل امرئ في المعسكر يحدق في الظلام مشدود الأعصاب مستعداً لإطلاق النار على أي شيء يتحرك. وكان من الممكن جداً أن يبدأ بعضنا بإطلاق النار على البعض الآخر.

وانطلقنا في صباح اليوم التالي متّجهين إلى بلدة الزلفي عبر سلسلة من كثبان الرمل الكبيرة. وكان أكثر سكان هذه البلدة من قبيلة عتيبة. وحين اقتربنا منها وافتنا الأخبار بأن الإخوان قد أرسلوا إليها حوالي ثلاثين رجلاً من قبيلة عتيبة محاولين إثارة أهلها ضد الملك والسماح لهم بالاستيلاء على حصونها. وكان هذا مثالاً للتخطيط السائد حينذاك في الحرب الصحراوية. فلو أن الإخوان نجحوا في جعل الزلفي تقف ضدنا لكنّا قد وقعنا بين كثبان الرمل بدون ماء. وحالما أدرك الملك الخطر بعث خمسمائة رجل إليها أملاً أن يقبضوا على رسل الإخوان ويحتلّوا البلدة. وقد سمح أهل الزلفي بتردّد لرجال ابن سعود أن يدخلوا بلدتهم، فهرب رجال الإخوان منها. وهكذا كاد يقع الخطر. كان أهل الزلفي في موقف حسّاس ممزقين بين ولاءين متعارضين؛ ولاؤهم لملكهم وولاؤهم لقبيلتهم. ولم يقنعهم بأنه من الأفضل لهم مساندة الملك إلا بعد وصول قواته إليهم في الوقت المناسب.

ومع هذا فإن استقبالهم لجلالته كان أقل من أن يوصف بالحماس. فبدلاً من إسراع السكان كلّهم للترحيب به، كما يحدث عادة، لم يستقبله إلا حفنة من وجهائهم يبدو عليهم القلق.

وتتكوّن بلدة الزلفي من قريتين متجاورتين. وقد أقام جلالته خيامه بين هاتين القريتين. وكان بالقرب منها جبل حوله أرض مخصبة، فأُخِذَت الإبل إلى هناك لتُرعَى. وما كِدنا نستقرّ حتى أقبلَت الإبل دفعة واحدة مسرعة إلى مخيّمنا. وكان من الواضح أنها ذُعِرت من شيء ما. وما لبثنا أن علِمنا ذلك الشيء. كان هناك رسولان، أحدهما من عتيبة والثاني من مطير، قد هبطا من الهضبة المرتفعة التي كان يخيّم فيها الإخوان. وقد أخبرا أحد جامعي العشب (الحواشيش) المحليّين قرب تلك الهضبة بأن يقول لنا إنهما قادمان على مخيّمنا في اليوم التالي.

وفي اليوم التالي المذكور قَدِم على مخيّمنا عبد العزيز بن فيصل الدويش ممثلاً قبيلة مطير وماجد بن خثيلة ممثلاً قبيلة عتيبة، وقالا للملك: لقد أرسلنا زعماء القبيلتين. إننا نطلب العفو منك، ونرجو أن تحلّ خلافاتنا بالطرق السلمية. ونحن لا نريد الحرب. ولقد علم المتمرّدون أن الغزو على قافلة بن شريدة قد أغضب الملك جداً. وإعراباً عن حُسن نواياهم أن يدفعوا ثمن الإبِل التي كانوا قد استولوا عليها. وكان جواب الملك نستطيع أن نتحاكم إلى قاضي الشرع ونرى ما الذي يحكم به. وكان القاضي المُعيَّن من قِبَل الملك ينظر في الأمور طبقاً لأحكام القرآن. وكان له أن يحكم في القضايا الجنائية. وقد أراد الملك بجوابه أن يضع زعماء الإخوان أنفسهم بين يدي القضاء الشرعي ليتبيَّن ما إذا كانت أعمالهم إجرامية في نظر الشريعة أم لا. وبما أنهم سيُتّهمون بعدد من أعمال القتل والسرقة فإنه لم يكن مستغرباً أن تكون الفكرة غير مستحبة لدى رسوليّ الإخوان. وقبل أن يغادر الرسولان بذل لهما الملك، بكرمه المعهود، هدايا من المال، ثم دعا رؤساء القبائل الذين كانوا معه وسألهم عن آرائهم في استرحام المتمردين. وكنت أراقب تجمع هؤلاء الزعماء حول الملك. وما زلت أذكر أني شعرت فجأة في تلك اللحظات بأن ما كنت أشاهده دراما عظيمة إلا أن تمثيلها

لم يكن يدور تخيلاً على خشبة مسرح ضيّق وإنما يجري من أجل الحياة والموت على الامتداد الواسع للصحراء المفتوحة.

كان عبد المحسن الفرم، رئيس قبيلة جرب، أول من تكلم. وكان شديد الغضب، فصاح قائلاً: "أيها الإمام إن هؤلاء الناس جاؤوا ليخدعوك ويستدرّوا عطفك، وإني لا أريد أن أشترك في هذا الاجتماع. سأذهب إلى المعركة وحدي". ولدى قوله ذلك امتطى فرسه مسرعاً وكادت تعدو به لو لم يقفز ولي العهد، الأمير سعود، ويمسك به وهو يصرخ: لا تذهب. فلن تعيش حتى ترى غروب الشمس. وبعد شجار خفيف أدرك عبد المحسن حماقة ما قام به وعاد الاجتماع إلى النقاش بطريقة أكثر رصانة. وقد اتفق الجميع على أن مقترحات المتمرّدين للتّسوية السلمية غير مقبولة. لكن ابن سعود، الذي لم يكن مثل عبد المحسن الفرم مستسلماً للانفعالات الحادة، أدرك أنه ربما وُجِدَت إمكانية لحلّ مشكلاته مع الإخوان دون اللجوء إلى معركة شاملة. فبعث رسالة على رؤساء قبيلتي مطير وعتيبة يسألهم مرة أخرى أن يتحاكموا معه إلى الشرع معلناً أنه سيخضع لحكمه مهما كان.

وإعراباً عن حسن نيّته أرسل أحد علمائه على مخيم الأعداء ومعه تعليمات كل ما يستطيع من أجل تسوية الخلاف. وكان العالِم الذي أُوكِلَت إليه تلك المهمّة عبد الله العنقري، الذي كان من أبرز علماء المملكة. وكان العلماء، بوصفهم زعماء دينيين، موضع تقدير خاص من الجميع، كما كانوا في منجى من الضرر حتى في زمن الحرب. وكان من الممكن جداً أن يوثق باحترام الإخوان لذلك التقليد احتراماً تاماً، خاصة أن الشيخ عبد الله العنقري كان مسؤولاً عن الشؤون الدينية في المنطقة الواقعة حول معقل الإخوان، الأرطاوية.

وبدون انتظار إجابة رسالته أمر الملك أتباعه بأن يطووا خيامهم ويتجهوا إلى السبلة التي تقع قرب جبل طويق وتبعد عن الزلفي حوالي أربعة أميال تقريباً. وكانت تلك الخطوة معقولة لأن موقعنا في الزلفي لم يكن سليماً من الناحية الاستراتيجية. فهو سهل يشرف عليه جبل مرتفع. وإذا ما احتلّ المتمردون

المرتفعات أصبح من الصعب زحزحتهم عنها. وقد قررّ الملك أن يكون هناك قبلهم. وكانت الرحلة على السبلة تمرّ فوق سفح جبل طويق المنحدر بشدة. وكان ذلك أحياناً صعباً علينا وقاسياً على إبلنا. ونزلنا أخيراً في وادٍ صغير قرب قمة الجبل. ولم يكن رجال استطلاع العدوّ بعيدين عنّا أبداً. وكنا نستطيع أن نرى بعضهم متّخذين مواقعهم على الجانب الآخر من الوادي فوق قمة تلّ صغير.

قضينا يومين في السبلة والملك ينتظر الإجابة على رسالته. وكان التوتّر عظيماً. وقد حدث ما كاد يسبب هلعاً. ذلك أن أفراداً من الروقة الموالين للملكة من قبيلة عتيبة كانوا قد ظلّوا طريقهم أخذوا يطلقون النار في الهواء لجلب الانتباه إليهم. ولم تأت الإجابة على رسالة الملك فبعث برسالة أخرى. وفي هذه المرّة أجاب الإخوان بإرسال مندوب قال للملك: إذا كنت تريد حكم الشرع فأتِ إلى مُخيّمنا واجلس مع عالمك الخاص، ودعه يحكم في الأمر. وكان لدى جلالته شك كبير حول هذا الاقتراح لكنه على أية حال دعا الزعماء الذين كانوا معه لمناقشته. وقد قرروا بالإجماع أن ذلك الاقتراح مجرد خديعة، وأن الملك إن ذهب إلى مخيّم العدوّ فلن يعود منه أبداً. واتباعاً لنصيحتهم ردّ على الإخوان بأن اقتراحهم غير مقبول. فاقترحوا حلاً وسطاً بأن يقيم الملك خيمة بين المعسكرين المتضادين وأن يقابله هناك اثنان من ممثليهم. وقد اعتبر هذا الاقتراح خطراً أيضاً فرفض. وبعد كثير من الأخذ والردّ وذهاب الرُسُل وعودتهم اتفق أخيراً على أن يقابل أحد رؤساء الإخوان الملك في معسكر جلالته وفق إجراءات أمن دقيقة.

وفي اليوم التالي علمنا أن ذلك الرئيس لم يكن إلا صعب المراس فيصل الدويش نفسه. وقد استقبل ذلك الخبر استقبالاً مثيراً. فكل واحد مِنّا كان توّاقاً إلى إلقاء نظرة على ذلك الرجل العظيم. ورغم أن الدويش كان عدوّاً لنا فإنه كان يتمتّع بجاذبية شخصية لم يتفوق عليه فيها سوى الملك نفسه. فقد كانت بسالته وجلده وصبره من الأمور الأسطورية. وكانت شجاعته المنكرة للذات تلهم أتباعه الطاعة التامة له. وحين وصل إلى مخيمنا كان غير مسلح، لكنه كان مصحوباً بثمانية خيَّالة من قبيلة مطير بوصفهم حرساً خاصاً له. وكان أحدهم

ابن عمه فيصل بن شبلان. وقد اشترط الدويش شرطاً مهماً قبل أن يوافق على مقابلة جلالته وهو أن تكون خيمة الملك خاليةً إلاّ من الملك نفسه. وكانت خيمتي قريبة من خيمة جلالته. ولذلك كان موضعي جيداً لمراقبة ما كان يجري. وكان لخيمة الملك فتحة في كل زاوية من زواياها الأربع. فذهب إلى كل فتحة من هذه الفتحات اثنان من حرس الدويش. وبدقة عسكرية رفعوا كل أروقة الخيمة الأربعة في وقت واحد ليتأكدوا أن الاتفاق منفّذاً. وكان الملك وحده في الخيمة كما كان متفقاً عليه. وقد أقسم كل من الزعيمين ألا ينال الآخر بسوء. ثم أعطى جلالته الدويش الأمان التقليدي قائلاً: أنت في حمايتي، ودخلا إلى الخيمة. وقد دامت المحادثات بينهما أكثر من ساعة. ثم خرج الدويش وأمر حرسه الشخصيين بأن يلقوا السلاح لأنه قد تمّ الاتفاق على هُدنة مؤقتة. وبعد ذلك دُعِيَ الدويش إلى تناول الغداء مع الملك وأُكرِمَت وفادته إكراماً يليق بضيف مبجّلٍ مثله.

وقد أمر الملك بإجراء عرض عسكري تقليدي على شرف ضيفه، وإن كان جلالته بدون شك قد أراد من ذلك، أيضاً، التذكير بقوّته ومهارته من الناحية العسكرية. وكان أول المستعرضين الفرسان، حيث كان أفراد كل قبيلة يطلقون صيحات الحرب القديمة الخاصة بهم. وقد ألَّف الزعيم غير المهادن، عبد المحسن الفرن، شعاراً حربياً جديداً لتلك المناسبة، فصاح وهو يمرّ بالدويش قائلاً: "صبي التوحيد. أنا أخو من طاع الله. يا ويل عدوّ الشريعة منّا". ولئلّا يفوت المعنى على المتمرّدين صاح أحد رجال القبائل التي معنا بفيصل بن شبلان قائلاً: خذها يا بن شبلان. وفي هذه الاستعراضات عثرت إحدى الخيل ببيت نمل وكسر رجلها فقُتِلَت. وأخذ الفارس العنان منها واقترب من الملك وهو يقول بأسلوبه الصحراوي الصريح: العوض يا محفوظ. فأجابه الملك: أبشر به. لكن أحد حرس الدويش الذي كان واقفاً بالقرب منه همهم: حضّر عنانها. وقد فسّر خدم الملك ذلك بأنه سخرية قصد بها لن تحصل على شيء. فغضبوا وأمسكوا بالرجل يريدون تمزيقه بسبب كلامه الطائش. ولم يتمّ اجتناب حادثة كريهة كادت تقع إلا بتدخُّل الملك شخصياً ووضع فوراً حراسة مشددة لحماية الدويش ورجاله من أي عنف آخر.

وحين غابت شمس الصحراء ببطء خلف التلال الغربية استقبل الملك والدويش مكة وصلّيَا صلاة المغرب. وليس هناك ما يضاهي روعة الغروب في الصحراء، والكُثبان الرملية يظلّلها النور الذهبي الذي تلقيه الشمس الغاربة. لقد كانت تلك لحظة مهمة ومثيرة لنا جميعاً، خاصة جلالته الذي كان يدعو الله بحرارة أن يتم اجتناب الحرب. وقد أمضى الدويش تلك الليلة في خيمة مجاورة لخيمة الملك كانت في العادة خاصة بخدم جلالته الشخصيين. وكان ذلك لحماية الضيف من ناحية، لكنه كان، أيضاً، من أجل تمكين ابن سعود من مراقبته مراقبة حذِرة. واستمرت المحادثات خلال اليوم التالي. وعندما اقترب الليل حاول الملك مرة أخرى أن يقنع الدويش بتسوية الخلاف عن طريق عرض الموضوع برمّته على محكمة شرعيّة. فأجابه الدويش بقوله: "سأتحدث مع ابن بجاد، وقد نعود غداً، لكني أنذرك بأننا إذا لم نعد فإن غيابنا يعني الحرب". وعند غروب الشمس امتطى الزعيم المتمرّد ورجاله صهوات جيادهم وذهبوا. ويقال إن الدويش حينما وصل إلى مخيّمه أخبر ابن بجاد بأن جيش الملك كان مليئاً برجال المدن السمان الذين لا نفع فيهم حينما تقع المعركة الحقيقية. وقد سُمِعَ وهو يقول لابن بجاد: إنهم مزاود بلا عُرَى.

وقد تلت مغادرة الدويش ليلة متوتّرة في معسكر الملك حيث كان الجميع ينتظرون ماذا سيحمله صباح الغد. وكان جلالته مهتماً بشأن احتمال هجوم مباغت، فوضع حراساً متقدّمين يُسَمَّون "الظهور" بين معسكرنا وبين العدوّ، كما أمر أن تُطلَق رصاصة واحدة في أوقات منتظمة طول الليل ليبقى جنوده يقضين وإن كان قد اتخذ الحيطة فأخبر كل واحد منهم بهذا الأمر مقدّماً.

وكان اليوم التالي هو الثلاثين من شهر مارس عام 1929م (1347هـ) ومع انبلاج خيوط الفجر الأولى ارتدى جلالته لباس المعركة. وبعد صلاة الصبح أمر رجاله أن يتزوّدوا بالماء إذ أن التزوّد الكثير به مهمّ في حالة الاضطرار إلى الانسحاب بعيداً عن مواردنا خلال سير المعركة. وكان جيش الملك قد ازداد شيئاً فشيئاً طوال الأيام الثلاثة السابقة حيث وصل إليه الموُالُون من رجال القبائل والمدن المجاورة الذين كانوا توّاقين إلى زيادة حجم قوّات جلالته وإنقاص موارد

خزينته في وقت واحد. فقد كان يدفع إلى كل رئيس قبيلة التحق به ستة جنيهات ذهبية وإلى كل فرد من رجال القبيلة أو سُكّان المدن ثلاثة جنيهات. ولعلّه من الصعب تحديد الحجم الذي وصل إليه جيش الملك حينذاك بدقة، ولكني أقدّره بين ثلاثين وأربعين ألف رجل. أما جيش الإخوان فكان أقلّ من ذلك بكثير إذ لا يزيد عن خمسة عشر ألفاً. بل من المحتمل أنه لم يكن أكثر من عشرة آلاف رجل. لكن رجال الإخوان كانوا محاربين أشداء عرَكَتهُم التجارب فأصبحوا شجعاناً ذوي عزيمة لا تلين. وكان جيش الملك الذي تكوّن بسرعة قد احتوى على كثير من الرجال الذين كانت تجاربهم في حرب الصحراء قليلة أو غير موجودة. ومن هنا كانت تهيّبنا من المعركة لأن الموقف كان أبعد من أن يكون مضمون النتيجة. وقد لا يأتي مساء اليوم التالي إلا وكلنا موتى أو هاربون أمام جيش الإخوان المنتصِر.

وكان من المعتاد كل صباح أن يستدعي "الظهور" الذين أُرسِلوا ليلاً إلى المعسكر ليرتاحوا ويتناولوا طعام الإفطار. ومع أن الفطور لم يكن في العادة سوى تمر وماء - أو قهوة لمن هم أسعد حظاً - فإن هؤلاء كان يعلّقون عليه اهتماماً كبيراً. فقد كان سُكّان وسط الجزيرة العربية يرون أن التمر يحتوي على كل ما يحتاجون إليه من تغذية. وكانوا يسمُّونه مسامير الرُكَب معتقدين بأنه يمنحهم قوة عظيمة. وبما أنه لم يبدُ بأن الدويش وابن بجاد قادمان فإن الملك قد أمر "الظهور" أن يبقوا في مكانهم لفترة من الزمن، على أن يرسل إليهم فطورهم فيما بعد. وفي محاولة أخيرة لتفادي الحرب بعث الملك رسولاً إلى الإخوان طالباً منهم الجواب النهائي على مطالبه. ثم أمر جيشه أن يتقدّم نحو واد يسمّى وادي ابن جار الله كان على بعد عشرين دقيقة للماشي. وكان حتى ذلك الوقت بمثابة أرض محايدة بيننا وبين العدوّ. وكان جلالته يمتطي حصاناً رائعاً. أما رجال حاشيته، وأنا من بينهم، فكانوا يسيرون خلفه على الأقدام. وخلال أحداث الساعة التالية استطعت أن أسمع وأرى بوضوح كل شيء قام به الملك.

وبينما كنا نسير قَدِمَ رجل من معسكر العدوّ واتجه نحونا وهو يصيح: أين الملك؟ أين الملك؟ فدلّوه على جلالته وقال له: أيها الإمام نرجوك أن تحفظ رؤوس قومنا وسوف نقوم بأي تعويض تريد أن ندفعه جزاء أعمالنا سواء كان إبلا أم

أي شيء آخر تطلبه منا. ما نريد إلا الحفاظ على حياة قومنا. فأجاب ابن سعود بهدوء: المسألة ليست مسألة إبل فقط. لقد قتلتم أناساً، وعلى رؤسائكم أن يقفوا أمام الشرع ويلتزموا بقراره. وكان هناك تقليد في الصحراء تجعل رئيس القبيلة مسؤولاً عن أية جريمة قتل يرتكبها فرد من قبيلته حتى يعثر على القاتل الحقيقي ويحكم عليه. وفي هذه الحالة لم يتقدّم أي واحد من الرؤساء ويتحمّل مسؤولية قتل وسلب من كانوا في قافلة ابن شريدة التي كانت في طريقها إلى دمشق.

ثم عاد رسول الملك وهو يقول: سيدي. لم أستطع الوصول إليهم. فما أن اقتربت منهم حتى بدأوا يطلقون النار عليّ. فصمت جلالته لحظة ثم صاح: توكلوا على الله واستعدّوا للحرب. وانحنى إلى الأرض وأخذ حفنة من التراب ورماها في اتجاه العدوّ، اقتداء بفعل النبيّ صلى الله عليه وسلم. وكان المعنى الرمزي لذلك الدعاء إلى الله بأن يُشتّت شمل جيش العدوّ.

وحين اقترب جيش الملك من العدو اندلع الرصاص الكثيف من كلا الجانبين حوالي عشر دقائق. وكان العدوّ في وضع أفضل من وضعنا لأنه قد اتخذ مواقع على الجانب الأعلى من وادي ابن جار الله، وبَنى حائطاً مؤقتاً من الصخور الكبير ليحمي نفسه. وفي تلك اللحظة حالف الحظ الملك. فقد رأى الأعداء من موقعهم المرتفع عدداً كبيراً من رجال ابن سعود يعودون مسرعين إلى المخيّم فظنّوا ان نيرانهم قد أجبرت قواتهم على التراجع. وكان ذلك مخالفاً للحقيقة لأن ما كان يشاهده الإخوان عودة "الظهور" الذين كانوا متعبين بعد حراستهم الطويلة في العراء. وكان جلالته قد أمر بعودتهم إلى خلف خط النار ليتناولوا تمرَهم وماءهم. ولِظنّ الأعداء بأنهم كانوا منتصرين تركوا مواقعهم الحصينة ونزلوا مسرعين إلى الأرض المنخفضة ليتعقّبوا رجال الملك.

وكان بين قوّاتنا مفرزة لا بأس بحجمها من حملة الرشاشات، مجهّزة بأربعة مدافع، تحت قيادة إبراهيم بن معمّر. وكان الملك يشك في أن الإخوان قد علموا بوجود هذه الرشاشات. ومن هنا أعطى أوامره المشددة لإبراهيم أن لا يضيع

فرصة المفاجأة فيستخدمها قبل الوقت المناسب. بل عليه أن ينتظر حتى تسنح فرصة ملائمة يكون لاستخدامها فيها أعظم الأثر: فظلّ رجاله جالسين وراء أسلحتهم دون أن يطلقوا طلقة واحدة وشعورهم بالأزمة يزداد خلال المراحل الأولى من المعركة. وقد أدّى صبرهم ثمرته المرجوّة. ذلك أن الإخوان أصبحوا هدفاً ممتازاً بمغادرتهم تحصيناتهم وتقدّمهم إليهم في جماعات مُتراصّة. فأصدر ابن معمّر أوامره بإطلاق النار عليهم. وكانت النتيجة حاسمة. ففي بضع ثوان كان كل رجال القبائل المتقدّمين تقريباً قد قتلوا أو جُرِحُوا جراحاً بليغة. وحين رأى الإخوان الذين لم يصابوا ما حدث شرعوا في الانسحاب فوراً. وفي تلك اللحظة أمر ابن سعود ابنيه سعوداً ومحمداً، اللذين كانا ينتظران على الجناح الأيمن، أن يهجما بالفرسان على أفراد الجيش المنسحِب. وحين اقتربوا منهم أصبح انسحاب الإخوان فوضى؛ فقُتِل كثير منهم بأيدي فرسان الأميرين الجذلين وهم يتعقّبون مشاة العدوّ الهاربين، وحينما أدرك ابن سعود ما كان يحدث بعث إلى ابنيه يأمرهما بأن يعودا إليه. وكان، لرحمته المعهودة، قد كره القتل الذي لم يكن له مبرّر، كما أنه من ناحية أخرى كان يخشى أن يذهب فرسانه إلى أبعد مما ينبغي فيجدوا أنفسهم مقطوعين عن بقية جيشه. وقد أطاع الفرسان أمر الملك على مضض وتركوا الإخوان ينسحبون إلى الأرطاوية، دون المزيد من الأذى.

وهكذا انتهت معركة السبلة. ومن المحتمل أنها لم تدم أكثر من نصف ساعة. وقد يبدو غريباً أن يرى الإخوان المشهورون بالشجاعة يهربون بدلاً من أن يصمدوا ويحاربوا. لكن ينبغي أن يعلم أن القتال حتى آخر رجل لم يكن أبداً من تقاليد حروب الصحراء. فقد كان من المعتاد والمقبول جداً الانسحاب من ميدان المعركة متى اتّضح أن رياح الحظّ قد بدأت تهُبّ لمصلحة العدوّ. وكان للمرء أن يعيش ليحارب في يوم آخر، كما كان من السهل على القوة المنهزمة أن تتجمع مرةً أخرى. وكان الرجل الذي يفضّل أن يبقى ويحارب في مثل تلك الظروف يعتبر غبياً أكثر مما يوصف بالشجاعة. ونتيجة لذلك فإن عدد الإصابات في حروب الصحراء لم يكن في العادة عالياً. ومع أنّ آلافاً كثيرة من الرجال قد اشتركوا في معركة السبلة فإنه لم يُقتَل من جيش الملك إلا مائتا رجل تقريباً،

ولم يُجرَح منهم إلا عدد مقارب لعدد أولئك القتلى. لكن خسائر الإخوان كانت، بفضل رشّاشات ابن معمّر، أعظم من ذلك، إذ قتل منهم حوالي خمسمائة رجل وجرح مثل هذا العدد تقريباً. وكانت الخسائر تعتبر في الحقيقة أعلى من المعتاد بالنسبة لمعركة صحراوية.

وبعد المعركة عاد الفرسان على معسكرنا بمعنويات مرتفعة وفي حالة غامرة من البهجة. وكان واضحاً أن الملك قد فاز فوزاً كبيراً. ذلك أن تلك المعركة كانت المرة الأولى التي عانى فيها الإخوان هزيمة عسكرية. وكان من التقاليد القديمة التي تعود إلى عهد الرومان أنه بعد كل معركة يراق فيها دم تنتهي الولاءات القديمة وتعلن ولاءات جديدة محلها. ومن هنا فإن كل رؤساء القبائل والأمراء في المعسكر أتوا إلى خيمة الملك وقدموا له ولاءهم من جديد. وكان هناك تقليد آخر وهو أن المحاربين لهم الحق في التعويض عن خسائرهم في المعركة. ومن هنا تشكَّل طابور طويل من رجال القبائل خارج خيمة جلالته يطالبون بالتعويض عمّا فقدوه في المعركة من خيل وإبل وأسلحة. ولا شك أن كثيراً منهم كان مُبالَغاً فيما ادّعاه أو كاذباً فيه تماماً. ولكن الملك كان كريماً بطبيعته، ولم يكن الوقت وقت مراعاة الحرص المالي على أيّة حال. فأعطى كل المطالبين أوراقاً مكتوبة تُخوّلهم الحصول على نقود من خزينة الدولة في الرياض.

ثم قدم إلى الملك زائر لم يكن متوقّعَاً. وكان ذلك الزائر ابن عم الدويش، فيصل بن شبلان. وقد دخل المعسكر حاملاً كومة من العشب على كتفيه لئلّا يرى وجهه أحد. وحين استوقفه بعض أتباع الملك سأل عن خيمة وليّ العهد، الأمير سعود، قائلاً: أن هذا عشب لخيله. وحين أُرشِدَ إلى خيمة الأمير ترك العشب خارجها ودخل إليها. وكان أوّل ما فكّر فيه الأمير أن ابن شبلان قد أتى ليغتاله. لكن ابن شبلان، الذي لم يكن مسلّحاً، قال فوراً: أنا دخيلك. وأرجوك أن تأخذني إلى أبيك لأني أريد أن أتحدث معه. فأُخِذَ إلى الملك وأخبر جلالته أن نساء الدويش سيأتين على معسكره في اليوم التالي. وكان هذا تقليداً آخر من تقاليد حروب الصحراء يرمز إلى قبول الرئيس المغلوب بالهزيمة. وكان من المتُّفق عليه أن يعطى نساء القبيلة المهزومة طعاماً وخيمة ويبقين لدى المنتصر ثلاثة

أيام، ولا يتعرّض أحد لهُنّ بسوء لأنهن في حماية مضيفهنّ. وبعد ثلاثة أيام تعود النساء إلى أهلهن. وبعد أن بلّغ ابن شبلان رسالته أعطى أماناً حتى عاد إلى هُجَرته، الأرطاوية، التي لم تكن تبعد كثيراً عن المكان الذي كان الملك قد عسكر فيه.

وقد وقع حادث مؤسف بعد معركة السبلة. ذلك أن جماعة من رجال القبائل المتمرّدين جاؤوا إلى أرض المعركة ليروا إن كان هناك من جرحاهم من لا يزال حيّاً، فأخطأ خدم الأمير محمد وظنّوهم غُزاة فقتلوهم. وقد غضب الملك لذلك غضباً شديداً، وهدّد بإعدام الخدم. لكن غضبه هدأ بعد أن أدرك بأن هناك خطأ حقيقياً في الموضوع. وباستثناء هذا الحادث فقد روعيت كل عادات الشهامة والفروسية، وعُولِج الجرحى من كلا الجانبين. وكان الذي يعالجهم طبيب الملك الخاص، مدحت شيخ الأرض. ومن المؤسف أنه لم يكن في وسع ذلك الطبيب أن يعمل شيئاً كثيراً؛ إذ كانت الإمكانات التي بين يديه محدودة جداً. على أنه كان أمراً جديداً في حروب الصحراء أن يوجد طبيب على أية حال. وقد وُضِعَ أحد جرحى العدو في خيمة مجاورة لخيمتي. وكان رجلاً عملاقاً قد أصيب في ساقيه كلتيهما وفي إحدى ذراعيه. لكنه لم يئنّ بالشكوى، بل ظل جالساً في الخيمة وكأنه لم يحدث له شيء. ولم تكن مثل تلك الصلابة نادرة بين محاربي الصحراء الأشداء.

وبعد أن أمضى الملك حوالي ثلاثة أيام في السبلة بعث نساء الدويش إلى أهلهن، وتهيأ لمغادرة المكان. وكان يدرك بأن مزيداً من القتال قد يكون ضرورياً لأن المتمردين الذين هربوا من السبلة يمكن أن يتجمعوا بسهولة ويتحدوه مرة أخرى. قرّر المسير إلى الأرطاوية التي لم تكن أبعد من بضعة أميال إلى الشرق. وكانت الأرطاوية أول هجرة للإخوان، كما ذُكِر سابقاً، وقد أصبحت حينذاك بلدة متوسطة الحجم. وكان يحكمها الدويش نفسه وهي مركز قوّته. وقد اختارها الإخوان المنهزمون بوصفها أنسب مكان يلجأون إليه. وكانت الطريقة الوحيدة التي يستطيع الملك أن يضمن بها إنهاء التمرّد هي أسر زعماء الإخوان، خاصة ابن نجاد والدويش. وكان يقال حين ذاك بأن الدويش كان في الأرطاوية. وكان الملك مستعدّاً لأخذ الهجرة بالقوة إذا اقتضى الأمر لكي يقبض عليه.

وفي طريقنا إلى الأرطاوية أتينا على ممرّ ضيق واجهتنا فيه جماعة مكونة من حوالي خمسين فارساً بقيادة عبد العزيز الدويش. وبجسارة عظيمة اقترب ذلك القائد من الملك وقال له: يا محفوظ. ماذا تريد؟ فقال له الملك: أريد الأرطاوية. فسأله: وماذا تريد بالأرطاوية؟ فأجابه الملك أريد أباك ولا شيء آخر. فرجاه عبد العزيز الدويش أن لا يهاجم الأرطاوية واعداً إياه بأن يحضر أباه إليه. فوافق جلالته على ذلك فوراً. إذ كان يوجد في تلك الهجرة حوالي سبعة آلاف رجل، ولم يكن من الممكن أخذها إلا بإراقة كثير من الدماء. وأمَر جيشه أن يجتنبها ويعسكر في مكان يسمى زبدة كان قد اتفق مع عبد العزيز الدويش على أن يأتي بأبيه إليه.

وقبل أن نغادر المكان أناخ جلالته ناقته ودعاني إلى الغداء معه. واحضر طبّاخه الطعام المكوّن من الرّز واللحم. وبعد الغداء امتطينا إبلنا واتجهنا إلى زبدة. وكان لجلالته ناقة أصيلة لديها قدرة طبيعية على أن تمنح راكبها أعلى ما يمكن من الراحة فوق الأرض الصخرية. وكانت تلك الناقة الرائعة قد بدت بمثابة الكاديلاك. وكان كل بعير عادي يهزّ راكبه في كل اتجاه حسب انخفاض الأرض وعلوّها لكن ناقة الملك كانت تبدو لمن يراقبها وهي تسير في تلك الأرض الصخرية كما لو كانت تسير في خط مستقيم كل الاستقامة. وإذا كان هناك نوع أصيل من الخيول العربية تمنح راكبها الراحة فإن مثل ذلك النوع نادر في الإبل. أمّا جملي فقد كان عنيداً سيء الطبع بطيء السير غير مريح. وقد مررت بأعظم تجربة مخيفة في الطريق إلى زبدة لأنه كان يسير ببطء لدرجة أني تخلّفت عن بقية جماعتي ووجدت نفسي وحيداً في مكان موحش مليء بالصخور الكبيرة. وكان الجمل عنيفاً يرميني ذات اليمين وذات الشمال وهو يحاول أن يجد موضع قدميه على تلك الأراضي الصعبة. وكنت خائفاً أن تنكسر رجله فأصبح في البريّة دون وسيلة نجاة. وفجأة رأيت بدويين. ولم يكن ذلك مما يخفّف قلقي بل مما يزيده إذ لو كانا عدوّين لكان من اليسير عليهما أن يقتلاني للاستيلاء على بندقيتي ومؤونتي. ومن حسن حظي أنهما تجاهلاني. واستمر جملي يترنّح في مسيرته. وبعد وقت، بدا لي أنه أبديّ، وصلت أخيراً إلى مكان مفتوح ورأيت الآخرين وإبلهم. ولا داعي للقول بأني لم أنل منهم إلا قليلاً من التعاطف إذ كان كل واحد منهم يظن أن إضاعتي الطريق نكتة عظيمة على أية حال.

وبعد قليل وصلنا إلى زبدة وخيّمنا هناك. وكان قد أعدّ الطعام المكوّن من رز فوقه لحم وسمن. وأخذنا ننتظر عبد العزيز الدويش وأباه. وقد أتيا في اليوم التالي، حيث فوجئنا برؤية فيصل الدويش محمولاً على نعش. وكان سبب ذلك أنه قد جُرِح في معركة السبلة؛ فقد أصابته رصاصة في أحد جنبيه وخرجت من الجنب الآخر. وكان من الواضح أن جرحه خطير جداً. وقد استغرب الجميع أنه كان لا يزال حياً. وكان أول عمل قام به عبد العزيز الدويش حين دخل مخيمنا أن رجا الملك أن يغتسل ويغير ملابسه قبل أن يقابل أباه ليتأكد من أن ثياب جلالته خالية من أية رائحة عطرية. وكان لدى سكان المنطقة فكرة بأن رائحة الطيب يمكن أن تؤثر تأثيراً سيئاً في الجراح. فاستجاب جلالته لذلك الرجال وأمر طبيبه الخاص في نفس الوقت أن يعالج فيصل الدويش. وحين التقى الزعيمان وبخ الملك الدرويش على ما ارتكبه من أعمال سيئة، ثم قال له: أنت لست كفؤاً لي، فأنا أشد بأساً. ولذلك فإني أعفو عنك. وأنت حر في الذهاب إلى أيّ مكان تريد. وسأعطيك كل ما تحتاج إليه. ولكني سأحكم على أفعالك المقبلة، حسنة كانت أم سيئة، وسأتّخذ حيالها الموقف المناسب. فأعرب الدويش عن امتنانه، وقال للملك أنه يريد الذهاب إلى الكويت. وطلب من جلالته نقوداً واسلحة وقِرَباً للماء وأدوات للتّروية. فكتب الملك فوراً رسالة على وكيله في الكويت، عبد الله النفيسي، ليمدّه بما طلب، وسلّم تلك الرسالة إلى الزعيم المتمرّد.

ولقد فوجئنا جميعاً أن نرى جلالته يدع الدويش يذهب بتلك السهولة. ولكن الملك كان أعظم ما يكون عطفاً ساعة النصر. وقد بدا في ذلك الحين أنه لن يخسر كثيراً من جراء السماح لذلك الزعيم في أن يذهب حراً طليقاً. فقد كان جرحه خطيراً للغاية، وكان من شبه المؤكد أنه سيموت بسببه. وكان هناك سبب آخر قد يكون أهمّ من ذلك. كان جلالته حريصاً على القبض على ابن بجاد، وقد أدرك أن هذا الزعيم سيكون أقل تمنُّعاً في تسليم نفسه طواعية حين يسمع بالمعاملة التي لقيها الدويش. وبالإضافة إلى ذلك كان هناك أمر من الممكن أن الملك قد علمه فراعاه، وإن كنت شخصياً غير عالم به. فبعد سنوات من تلك المعركة أخبرني ابن فيصل ابن شبلان، الرجل الذي سبق أن ذكرت مجيئه متنكراً

إلى خيمة الأمير سعود في السبلة، أنه كان هناك خمسة آلاف رجل من رجال الدويش يحيطون بمخيم ابن سعود سراً حين أتى إليه زعيمهم مع قليل من خدمه، وكانوا مستعدين للهجوم على المخيّم إذا لم يترك ذلك الزعيم حراً.

وبعد الاجتماع بالدويش أرسل جلالته إلى ابن بجاد يطلب منه أن يقابله في بلدة شقراء. وحينئذ اتجه هو وحاشيته إلى المجمعة حيث بقينا يومين. وقد نزل الملك هناك لدى الشيخ إبراهيم العنقري، الذي كان أحد العلماء المشهورين وقاضي منطقة سدير. ثم سرنا إلى شقراء، التي كانت تبعد حوالي خمسين ميلاً جنوباً بغرب، وانتظرنا بصبر لنرى ما إذا كان ابن بجاد سيستجيب لطلب الملك أم لا. وكان ابن بجاد رئيس قبيلة عتيبة التي تمتد مناطقها من الرياض إلى مكة المكرمة والتي كانت أكبر بكثير من قبيلة مطير. ولهذا كان أقوى من الدويش بالنسبة لعدد الرجال الذين كانوا تحت قيادته. لكن الملك كان يعتبر الدويش أعظم خطراً منه، لأن الدويش كان ذكياً ماكراً بشكل غير عادي. أما ابن بجاد فرغم شجاعته وصلابته فإنه لم يكن مشهوراً بنفاذ الرأي. وقد تلقّى الطعم وقدم إلى الشقراء مع حوالي خمسين رجلاً من قبيلته. وكان بدون شك ينتظر أن يُعامَل كما عُومِل الدويش. لكن في ذلك الوقت لم يكن هناك حينئذ جنود من الأعداء يحيطون بمخيّم الملك. فأخذ جلالته يوبّخه بقوله: أنت لست شيئاً يا ابن بجاد. كنت تظن نفسك كبيراً. ولكن الدويش هو الذكي. ثم القى القبض على ابن بجاد ومن معه بسرعة وأُرسِلُوا مقيّدين إلى الرياض.

وبعد أن غادرنا شقراء ذهبنا إلى حائل عن طريق بريدة والرس. وبينما كنا في بريدة ذهب الملك فجأة إلى عنيزة حيث تزوج فتاة من أسرة الشبيلي المشهورة. وكان هدفه من ذلك الزواج التعبير عن امتنانه وتقديره لأهل عنيزة الذين منحوه دعماً قوياً ضد الإخوان. وكان قد أمر أتباعه أن يسيروا إلى الرس وينتظروه هناك. غير أن اثنين من كُتّابه لم يتقيدا بأمره وذهبا إلى عنيزه. وكانا ببساطة حريصين على زيارة تلك البلدة، ولم يفكرا أن جلالته سيعارض في زيارتهما لها. وفي المساء دخلا مجلس أميرها. ولسوء حظهما وصل الملك نفسه إلى مجلس الأمير بعد قليل من وصولهما إليه وشاهدهما متلبسين بجريمة مخالفة أمره.

فأمر بسجنهما، ولم يطلق سراحهما إلا بواسطة الأمير لدى الملك حين قال: أنتم جميعاً ضيوف في بلدتي، فأرجوك أن تعفو عنهما. ولم يكن الملك قد أخبر أحداً بعزمه على الزواج، فكان ذلك مفاجأة تامّة لنا حينما وصل إلينا في الرس وأنبأنا بأن معه زوجة جديدة.

وحين وصل الملك إلى الرسّ واجهته مشكلة دبلوماسية دقيقة. فقد كان معه في السبلة الشيخ صالح بن عذل، أحد وجهاء الرس والذي كان يعتبر من أعقل الرجال في نجد. وحين علم بأن الملك سيزور بلدته رجاه أن يتغدى معه في بيته. ووافق الملك على ذلك. وبعد أن وصل جلالته إلى الرس دعاه أميرها إلى الغداء. فاضطر الملك إلى الاعتذار موضحاً بأنه قد سبق أن وافق على الغداء مع الشيخ صالح بن عذل، وأنه لن يقيم في البلدة إلا يوماً واحداً. فاغتمّ الأمير وقال: إذا لم تقبل دعوتي سأترك البلاد ولن أعود إليها. فقرر الملك أن يحلّ تلك المشكلة بطريقة ذكية، واقترح أن يعدّ طعام الغداء من قبل الشيخ صالح ويؤكل في بيت الأمير. ورضيا بذلك الحلّ الوسط. ولأن بيت الأمير لم يكن من السعة بحيث يكفي أتباع الملك كلهم فقد وزعنا إلى ثلاث مجموعات طبقاً لما هو معتاد في الديوان الملكي في الرياض. وأرسلت كل مجموعة لتناول الغداء في بيت من بيوت البلدة. أما بقية الأتباع فقد وُزِّعُوا بين السكان. وذهبنا جميعاً إلى البيوت التي خُصِّصت لنا.

وقد حدثت في البيت الذي خصص لأتناول الغداء فيه حادثة مؤسفة. فقد جرت العادة في الرياض أن يقدم اللحم فوق الرزّ. ولكن العادة في الرسّ كانت تختلف عن ذلك إذ يتقدم الرز قبل اللحم. وحين جيء بالرُزّ غضب رئيس الديوان ظانّاً أننا قد أُهِنّا بعد تقديم اللحم لنا. فخرج من البيت وأمرنا أن نتبعه. وبينما كنا في طريقنا للخروج من البيت وصل اللحم فأحرجنا إحراجاً شديداً لأن العادة المتبعة أن لا يعود المرء إلى مائدة الطعام بعد أن يقوم منها. ونتيجة لذلك كان علينا أن نغادر البيت ونمضي دون غداء. ومما زاد الأمر سوءاً أن المضيف شكانا إلى الملك لما اعتبره إهانة له بمغادرتنا المفاجئة لمائدته.

وينبغي أن نذكر أن الأمراء لم يكونوا معيّنين من قِبَل الحكومة، بل كان أهل البلدة ينتخبونهم. وقد تعيّن الحكومة في حالات نادرة، خلفاً للأمير المتوفي، ولكنها عادة تحترم رغبات السكان وتعترف بها. وكان الأمراء موالين للحكومة، كما كانوا يُعتَبَرُون مالكين لبلدانهم.

وبعد مغادرة الرس واصل الملك سيره إلى حائل، عاصمة آل رشيد سابقاً ومعقل قبيلة شمّر التي كانت مشهورة في أرجاء جزيرة العرب لا بشجاعة رجالها فحسب وإنما بجمال نسائها أيضاً. وقد بلغت شهرة بنات حائل درجة جعلت خيال كل فرد منا يحلق في أجواء بعيدة، وأصبحت الرغبة العامة لدى الجميع التزوج من هناك دون أي تأخير. وقد تزوج كثيرون فعلاً، بنات من تلك المنطقة. ومن بين هؤلاء هندي كان أحد سائقي سيارة الملك. وكانت قد سحرته القصص التي سمعها عن الجمال في المنطقة فتصور أن كل فتاة فيها لديها قسما كليوباترة، وعبّر عن رغبة عارمة في الزواج. وقد وعده بعض أصدقائه أن يرتّبوا له فوراً زواجاً من عذراء حلوة. ووُجِدَت الفتاة. وبُدِئ باتخاذ إجراءات مراسيم الزواج. ثم تمّت تلك الإجراءات أمام القاضي الشرعي المحليّ. وكان والد الفتاة حاضراً، ولكن الفتاة نفسها إن كانت موجودة فقد كانت وراء حجاب. ذلك أن الرجل لم يكن ليرى زوجته بدون حجاب إلا ليلة الزواج. وعندما حلّ الظلام سار أصدقاء ذلك الهندي المشوق معه إلى خيمة زوجته الجديدة. وهناك رجوا له ليلة سعيدة وتركوه. ومع بزوغ فجر اليوم التالي علت صرخة غاضبة من فراش العرس، وخرج الهندي من الخيمة، وطلق زوجته فوراً. وليس في الإمكان إلا التصور بأنه في ضوء الفجر البارد اكتشف أن الفتاة التي قدمها إليه أصدقاؤه لم تكن كليوباترة أحلامه تماماً.

وبعد مغادرة حائل سافر الملك وحاشيته إلى الحجاز ليؤدي الحج الذي كان قد حدث ما أوقفه عنه قليلاً. ورتّب أن تتبعه أسرته وزوجته الجديدة على هناك فيما بعد. وبينما كان في الحجاز أمر بإطلاق سراح بعض أهالي مكة المكرمة وجدة البارزين الذين كانوا تحت الإقامة الجبرية بتهمة التآمر، وقد وصلت إليه في جدة برقية من البحرين تحمل أنباء سيئة مفادها أن الأمير فهد بن جلوي

قد قتله أفراد من قبيلة العجمان. وكان ذلك صدمة شديدة لجلالته لأن فهداً كان صديقاً عزيزاً لديه. فقد كان يحمي جناحه الشرقي خلال معركة السبلة والظروف المحيطة بها، تماماً كما كان عبد العزيز بن مساعد، أمير حائل، يصدّ هجمات ابن مشهور في الشمال. وكان من المحتمل أن يخسر الملك تلك المعركة لولا مساعدة كل من فهد وابن مساعد، وكلاهما من أبناء عمومته.

ولم تكن معركة السبلة، كما سنرى، نهاية متاعب الملك مع الإخوان. ولكنها قد كسرت ظهر حركتهم، وأوضحت للجميع أن ابن سعود عازم على أن يكون سيد بيته، وأنه لن يقبل ان ينتزع الآخرون منه سلطته. كما أن تلك المعركة قد أحدثت آثاراً بعيدة المدى ظلّ الناس يشعرون بها فترة طويلة. ذلك أن تلك القبائل أو بطون القبائل، التي انضمّت إلى التمرّد صارت موضع ازدراء سنوات عديدة، بينما حظِيَت القبائل التي أيّدت الملك بالرضى. وعند وفاة جلالته، بعد أكثر من عشرين عاماً، كانت تلك الآثار لا تزال عاملاً مهماً في سياسة الجزيرة العربية.





الفَصلُ الثَّامِن

نِهَايَةُ الإِخْوَان

”صبِيٌّ التوحيدِ، أنا أخو من طاع الله، يا ويل عدو الشريعة منا“

”انشودة حرب. عبد المحسن الفرم“



لم يكن حزن الملك عند سماعه بموت فهد بن جلوي شيئاً يذكر بالقياس إلى ألمه حين علم بالظروف التي وقع فيها موته. فكما سبق أن ذُكِر كان فهد، خلال أحداث معركة السبلة، يحمي جناح الملك الشرقي ضدّ الإخوان المتمردّين من قبيلة العجمان في الأحساء. وعندما سمعت هذه القبيلة نتيجة المعركة قرّرت أن الوقت قد حان للتفاوض، وبعث رئيسها، ضيدان بن حثلين، على فهد يخبره بأنه يرغب في لقائه. واتّفق الطرفان على أن يأتي ابن حثلين إلى معسكر فهد في مكان يسمّى الصرّار. وظل الرجلان يتحادثان خلال معظم ساعات النهار، ولكن الليل حلّ وهما لم يصلا إلى اتفاق. فطلب فهد من ضيدان أن يبقى عنده تلك الليلة. لكنّ ابن حثلين قال له: أرجوك أن تبقيني لأني قد ذكرت لأتباعي إن لم أعُد إليهم عند منتصف الليل فليأتوا إليّ. فاعتبر فهد هذا الكلام تهديداً له وفقد أعصابه. ثم أمر خدمه بأن يقيدوا ابن حثلين ويُبقوه في إحدى الخيام. ومرّة أخرى أنذر ضيدان فهداً بأن تصرّفه معه غير حكيم وقال له: إن قبيلة العجمان برمّتها ستهجم عليك لأنهم سيظنّون أن شيئاً ما قد حدث لي. فأجاب فهد: دعهم يأتوا.

وبعد منتصف الليل بقليل أتى العجمان فعلاً. وكانوا في حالة نفسية عنيفة جداً لا يرتدون إلا مآزر مستعدّين للموت من أجل رئيسهم. واستيقظ فهد منزعجاً بأصوات النيران أثناء الهجوم عل معسكره، فارتدى ملابس المعركة بسرعة، وفي فورةٍ من الغضَب أمَرَ بفكِّ قيود ابن حثلين وقطع رأسه. فنُفِّذَ أمرهُ فوراً. وكان ذلك أسوأ ما يمكن أن يفعله لأن جيشه ذاته كان يحتوي على عدد

كبير من رجال قبيلة العجمان الذين كان واضحاً ان ولاءهم له لم يكن مؤكداً. وحين علموا بأن ابن حثلين قد قُتِل غدراً انضمّوا فوراً إلى المهاجمين وقضوا على بقية جيش فهد. أما فهد نفسه فقد أسرع على حصانه وأمر خادمه بأن يفك رباطه. لكن الخادم العجمي، بدلاً من إطاعة أمره، التفت إليه وأطلق عليه الرصاص فأرداه قتيلاً، ونتيجة لهذه المعركة المروّعة وجد الملك أن رجال قبيلة العجمان كلهم تقريباً قد أصبحوا في حالة ثورة علنية ضدّه، وأنه لم تكن لديه في تلك المنطقة قوات تستطيع السيطرة عليهم.

ولم يمضِ وقت طويل حتى وردت إلى جلالته أخبار أشدّ سوءاً من تلك الحادثة. ذلك أن فيصل الدويش لم يمت من جراحه كما توقع كل إنسان، بل شُفِيَ منها بسرعة وأصبح يحمل السلاح من جديد متزعّماً قبيلته في غارات على القبائل المؤيِّدة للملك. وقد انضم إليه كثير من قبيلة عتيبة برئاسة الدهينة، الذي كان قد هرب بعد معركة السبلة إلى العراق، والتجأ إلى ملكها فيصل. وفي طريق عودته إلى نجد قابل الدويش واتفقا على أن يقود عتيبة في ثورة جديدة ضد ابن سعود. وكانت عتيبة تسيطر على كل المنطقة الواقعة بين مكة والرياض. ومن هنا فقد كان الملك في حقيقة الأمر معزولاً عزلاً تاماً في الحجاز دون أن تكون لديه وسيلة للعودة إلى عاصمته. وكان الوضع في غاية الخطورة. كانت هناك مناطق واسعة من البلاد معادية للملك حينذاك. وكانت القبائل والمدن الموالية له لا تملك القدرة على الدخول في معركة ضد المتمردين. ولا ترغب في ذلك لكن جلالته لم يكن الرجل الذي تقهره أو تفت في عضده مصاعب من هذا النوع. كان حينذاك قد طوّر علاقاته الودية مع الحكومة البريطانية فاتّفق معها على أن تبيع إليه أربعة آلاف بندقية وتشحنها من مدارس إلى البحرين ليزود بها القبائل القليلة التي ظلّت مؤيدة له في الأحساء. وكان السعر الذي طلبته بريطانيا عالياً جداً لدرجة جعلت الملك يرتاب في الأمر ويقول: أستطيع أن أحصل على كل الأسلحة الضرورية في جدة وأحملها منها إلى المنطقة الشرقية على اربعمائة بعير دون زيادة في التكاليف. وعلى أية حال فقد كان من المستحيل لمثل تلك الحمولة أن تمرّ بسلام عبر مناطق كل القبائل الثائرة.

وقد قرَّر الملك أن يجمع كل ما لديه من قوّة ويحاول أن يشقّ طريقه إلى الرياض عبر مناطق القبائل الثائرة. ذلك أن جلالته لم يفقد أبداً ثقته أو توازنه. وكان - كما كان دائماً - رابط الجأش واثقاً بالنصر. وكانت له، بطبيعة الحال، مجالات من التفوُّق على أعدائه. لقد أمضى ثلاثين سنة مليئة بالحروب الناجحة، ولذا فقد كان يعرف بانه لا يوجد من يضاهيه خِبرةً بوصفه قائداً صحراوياً. وكان يحظى بتأييد بريطانيا مما يتيح له الحصول على أسلحة أفضل من تلك التي كان يحصل عليها المتمرّدون. وكانت لديه الأموال التي يستطيع أن يشتري بها ولاء بعض القبائل التي لم تكن لتُؤيّدَه بدون هِباته. وبالإضافة إلى ذلك كلّه كانت لديه وسائل اتصال لاسلكية في جميع المدن الكبرى من المملكة، وذلك ما يمكّنه من الحصول على آخر المعلومات فيوجّه قوّاته بسرعة إلى أي مكان يحتاج أن يوجّهها إليه. وكانت قوّات المتمردين مفتقرة على كل هذه التسهيلات غير عالمة بما كان يجري خارج مناطقها، عاجزة عن التعاون فيما بينها تعاوناً فعّالاً.

وبينما كان جلالته يواصل مسيرته الشاقّة عبر الصحراء من مكة على الرياض جمع قوّة كبيرة من رجال القبائل المؤيدة له، ومن الجنود غير النظاميين وأمدّهم بالإبل والأسلحة والمُؤن. وكان الملك وحاشيته يركبون سيارات بينما كان يصحبهم عدد كبير من الرجال على ظهور الإبل. وكان معه رجال ديوانه كالعادة. ولم نواجه أيّة مشاكل جدّية حتى وصلنا على عفيف الواقعة في منتصف الطريق بين مكة والرياض. وكانت معقلاً لعتيبة، ولذلك اقتربنا منها بحذر. ولم يقم أحد بمهاجمتنا، ولكن تلك القبيلة لوّثت البئر بالطريقة التقليدية الفعّالة.

وهي إلقاء جثتي رجل وحمار ميتين فيها. فأمر جلالته ابنه محمداً وجماعة من ثلاثمائة أو أربعمائة رجل أن ينظفوا البئر. وانتظرنا ثلاثة أيام حتى اعتقد بأن الماء قد أصبح صالحاً للشرب. ومع ذلك فإن عدداً كبيراً ممن شربوا منه قد أصيبوا بإسهال شديد. فبذل طبيب الملك الخاص جُهدَاً بمعالجتهم منه بالحُقَن. لكن من سوء الحظ أن أولئك المحاربين الأشدّاء لم يكونوا معتادين على التطبيب من أي نوع. ولذا كانت الحُقَن مما زاد من انزعاجهم.

وكان في طريقنا من عفيف إلى الرياض ممرّ جبلي ممتاز لنصب الكمائن بحيث يمكن أن يوقِف قليل من الرجال المهَرَة المتحصّنين فيه تقدُّم جيش كامل. وكان جلالته يعتقد بأن رجال قبيلة عتيبة الموجودين في عفيف سوف يرصدون له في ذلك الممرّ. ولذلك قر أن يستدير من حوله ويتجه إلى القاعية التي تبعد عن ذلك المكان حوالي خمسين ومائة ميل شمالاً بشرق. وكانت القاعية، أيضاً، من الأماكن التي تسكنها عتيبة، فأرسل الملك وفداً إلى هناك ليطلب من جميع رجالها القادرين على القتال أن يغادروها. ولم يسمح بالبقاء فيها إلا للنساء والأطفال وكبار السن. وقد وصل الملك إلى القاعية بالسيارة، وبقي هناك أربعة أيام منتظراً وصول المسافرين معه على ظهور الإبل ومتيحاً الفرصة لهم ليستريحوا بعض الوقت في ذلك المكان. ثم سرنا شمالاً إلى الدوادمي. وكان سيرنا بطيئا ومتعباً لأن السيارات غرزت في وادي الرشاء، وكان إخراجها من الرمل أمراً عسيراً. وقد قابل الملك في الدوادمي رؤساء الروقة من قبيلة عتيبة الذين كانوا يسكنون المنطقة ويؤيدون جلالته. وكان على علم بان أولئك الرؤساء، رغم موالاتهم له. كانوا يؤوون أفراداً من بني عمومتهم وأقاربهم الذين انضموا إلى المتمردين. ولم يلبث أن أخبر الرؤساء بأنه غير راضٍ عن إعطائهم حماية لأولئك الأفراد، وأن حمايتهم لهم يجب أن تنتهي. وبعد ذلك الاجتماع واصل سيره إلى الرياض دون أن يتعرّض أحد سبيله طيلة سفره.

وخلال الأسابيع القليلة التالية أصبح الوضع أسوأ مما كان. صحيح أن الرياض لم تقع تحت حصار، لكنها كانت مثل جزيرة في بحر من الثورة. وكانت مغمورة برجال قبائل من غير المؤكد معرفة ولاءاتهم. وكانت محاطة بقبائل معادية حتى أصبح من الخطر أن يغامر المرء بالابتعاد عنها. ولم يكن في نيّة ابن سعود أن يدع الأمور تبقى كما هي عليه. وكان أول إجراء مُضاد اتّخذه أن أمَرَ ابنه سعوداً أن يذهب إلى الأحساء ليستولي الأمور فيها بدلاً من عبد الله بن جلوي الذي مرض مرضاً شديداً بعد موت ابنه فهد. وسار سعود ورجاله فوراً إلى المنطقة الشرقية بالسيارات. ومن سوء الحظ أن العجمان كانوا يتوقعون أن يقوم ابن سعود بمثل هذا الإجراء فكمنوا لابنه في رمال الدهناء الناعمة التي تبعد عن الرياض حوالي ستين ميلاً.

ولعلّ الدهناء من أعظم المظاهر الجغرافية في جزيرة العرب فهي تمتّد في شريط ضيق مستمر من صحراء النفود في الشمال حتى الربع الخالي في الجنوب. ولا يوجد فيها موضع أعرض من أربعين ميلاً. ومن هنا فإنها تشكّل نهراً بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة؛ إذ تلقي الرياح فيها باستمرار رمالاً دقيقة كالبودرة حتى تصل إلى بحر الربع الخالي الواسع. ولهذا السبب فإني أسمي الدهناء دائماً "نهر الرمال" وهو وصف أستطيع أن أدّعي بأني صغته شخصياً لأني لا أعلم مؤرخاً او جغرافياً سبقني إلى استعماله. وهي تشبه النهر بمعنى آخر أيضاً. فالمسافر يصل إليها فجأة، والانتقال إلى أرضها الرخوة من الأرض الصلبة المحيطة بها يتمّ دون مقدمات مثلما يحدث الانتقال من شاطئ النهر إلى النهر ذاته. والرمل قرب سطحها غالباً ما يكون رطباً، لكن مهما تعمقّتَ في الحفر فلن تجد ماء على الإطلاق. ولهذا السبب كثيراً ما وُصِف الرجل الذي لا يفي بوعده بأنه كالدهناء.

وكثبان رمل الدهناء المتنقّلة تجعلها مكاناً ممتازاً للكمائن. وقد نجح العجمان في مباغتة الأمير سعود وقتلوا عدداً من أتباعه وأسروا آخرين. ولم يكن استعمال السيارات في هذه المرة ذا نفع كبير. ذلك أن أكثرها غرزت في الرمال، وصار من السهل على المتمردين أن يستولوا عليها ويحرقوها. ومن حسن الحظ أن الأمير سعوداً كان قد استعار سيارة أبيه المرسيدس القوية التي كان تصميمها ملائماً للأراضي الرملية. واستطاع بتلك السيارة أن ينجو من الأسر ويمضي قدماً في طريقه إلى الأحساء. وقد أخذ رجاله الذين أُسِرُوا على الكويت التي كانت، حينئذٍ، تقف موقفاً حيادياً. ثم أطلق سراحهم بعد ذلك وعادوا إلى المملكة. ومن الصُدَف أن أخي كان مسافراً على الهفوف مع إحدى القوافل الصغيرة حينما كان الأمير في طريقه إلى هناك، وقد مرّ الأمير ورجاله بتلك القافلة قبل يوم واحد من وقوعهم في كمين العجمان. وفي اليوم التالي كان أخي ومن معه أول من وصل إلى مكان الحادثة. وكانت جثث خدم الأمير لا تزال مُلقاة على الأرض. أما السيارات فقد نُزِعَت منها بعض الأشياء كالمصابيح ونحوها قبل أن تُشعَل النار فيها. وقد قابل أخي الأمير سعوداً في الهفوف وأخبره بما رأى، فلامه الأمير على عدم قيامه بدفن جثث القتلى. ومن سوء الحظ أن قيامه بذلك كان مستحيلاً؛ إذ لم تكن لديه الأدوات اللازمة لحفر القبور.

وبعد أن أرسل الملك الأمير سعوداً ليتولى الأمور في المنطقة الشرقية التفت إلى الجهات الغربية فأرسل قوة كبيرة من البادية والحاضرة بقيادة الأمير خالد بن محمد بن سعود لمهاجمة جناح عتيبة الشرقي. وأعطى، في نفس الوقت، تعليمات باللاسلكي إلى ابنه فيصل في الحجاز ليقوم بمهاجمتها من الغرب. وبذلك وضع عتيبة أمام هجوم منسّق من جهتين. ورغم أن تلك القبيلة حاربت بشجاعة فقد كان أغلب أقسامها مبعثراً في جماعاتٍ صغيرة استطاعت قوّات الملك أن تكتسحها واحدة بعد أخرى. وفي غضون شهرين فقط تم إخضاع القبيلة وأصبحت الطريق بين مكة والرياض مفتوحة من جديد.

وكان أمراً جيداً أن بعث الملك ابنه سعوداً لتقوية دفاع الهفوف. فقد كان فيصل الدويش المخيف يلعب دوره في الثورة هناك. وكان مصمّماً على أن يحتلّ الهفوف بالقوات الكبيرة التي انضوَت تحت قيادته من قبيلتيّ مطير والعجمان. لكن كان عليه قبل أن يقوم بذلك الأمر، أن يُخضِع قبيلة العوازم الصغيرة الموجودة في المنطقة والموالية للملك. ولم يكن العوازم من القبائل المشهورة في الحروب.. غير أنهم كانوا في تلك المناسبة يحاربون دفاعاً عن بيوتهم وقُراهم، وكانوا قد حصلوا على إمدادات وفيرة من الأسلحة والذخيرة التي أرسلها البريطانيون من مدارس. ولذلك لم يستطع الدويش أن يهزمهم. وكان أن أضطر إلى أن ينسحب ذليلاً من منطقة الهفوف كلّها.

وقبل أن يبدأ الدويش عملياته في الأحساء بعث ابنه عبد العزيز مع فيصل بن شبلان للقيام بغزوات كبيرة في شمال البلاد. وكانت لديهما أوامر بمهاجمة كل القبائل الموالية للملك. وقد نجحت تلك الغزوات واستطاع المتمردون أن يُحدِثوا أضراراً بالغة ودماراً شديداً في المنطقة، كما استولوا على أعداد كبيرة من الإبل. ولكن القائدين اختلفا حول طريق عودتهما. فقد رأى عبد العزيز الدويش ان يتّجها إلى أم أرضمة. لكن ابن شبلان كان قد سمع بأن فرقة كبيرة من شمّر موالية للملك قد اتّجهت إلى هناك. وقد رأى أنه من الخطر المجازفة بالاشتباك معها، واقترح طريقاً أخرى للعودة. وكانت سرعة الغضب لدى عبد العزيز الدويش واضحة وضوح حمرة لحيته. وقد استشاط غضباً واتّهم ابن

شبلان بالجبن، وأصرّ على الذهاب إلى أم رضمة. وهنا غضب ابن شملان، الرجل العملاق، غضباً شديداً. وبعد مجادلة حادّة انطلق مع خمسة وعشرين ومائة رجل من أتباعه عبر حدود العراق إلى موارد مياه السلمان. ومن هناك اتّجه جنوباً وعاد إلى الأرطاوية بسلام.

أما عبد العزيز الدويش فقد واصل سيره إلى أم رضمه التي كان السفر إليها يستغرق ستة أو سبعة أيام. وكان ذلك في منتصف فصل الصيف، ولم تكن هناك موارد ماء قبلها. وحين اقترب منها كان رجاله قد أوشكوا على الموت ظمأ، وكانت إبلهم منهكة، وقد أدخَلوا قِطَعا من القماش في أدبارها. وكان ذلك طريقة تقليدية لمنع دخول الهواء إلى معدة الحيوان وهي فارغة لأن دخوله إليها يعتبر خطراً على حياته. وكما توقع ابن شبلان كانت تنتظرهم في أم أرضمه قوة كبيرة من شمّر جيدة التسليح بقيادة نداء بن نهير. وقد تجمّعت تلك القوة في مواقع دفاعية حول آبار الماء. وكان نداء قد بعث إلى عبد العزيز بن مساعد، أمير حائل، يطلب منه إرسال نجدات إليه، لكن هذه النجدات لم تصل إلا بعد نهاية المعركة. ورغم أن عبد العزيز الدويش وجماعته كانوا أقل عدداً من القوة الشمّرية بكثير فإنه لم يكن أمامهم إلا مهاجمتها. ذلك أن مواصلة السير من دون ماء كانت ستؤدي إلى موته وموت رجاله معه. وكانت المواجهة نكبة للإخوان. فقد قام الدويش بهجومه ومعه سبعمائة رجل من أتباعه، واستطاعوا أن يقتلوا عدداً كبيراً من شمّر، ومن بينهم ابن نهير نفسه. لكن القتال لم ينته إلا وقد قُتِل الدويش وخمسون وأربعمائة رجل من أتباعه. أما بقيّتهم، الذين لم يكونوا قادرين على مواصلة القتال من شدة التعب، فقد أُسِرُوا. وبعد انتهاء المعركة بقليل وصل عبد العزيز بن مساعد إلى أم أرضمة، وقتل الأسرى في مكانهم. ولقد جازف ابن مساعد كثيراً بإعدامِهِ هؤلاء دون أن يطلب إذناً من الملك بذلك. على أن جلالته في تلك الظروف وافق على تصرُّف ابن مساعد؛ إذ شعر بأن الوقت قد حان ليجعل من المتمرّدين درساً لأولئك الذين كانوا يعرقلون بناء مملكته.

وفي غضون ذلك تحرّك فيصل الدويش بسرعة وسرّية إلى نجد بعد أن فشل في تحقيق أي انتصار في الأحساء. وكان يأمل أن يشنّ هجوماً مباغتاً على قوات الملك التي كانت معسكِرة في القاعية، المورد القريب من المجمعة. فبعد أن عبر الدهناء نجح في شقّ طريقه إلى داخل نجد دون أن يعلم به أحد. وقبل موعد الهجوم بيوم واحد قام رجاله باستعراض حربي كان من التقاليد أن يقام به ما أمكن قبل كل معركة. وبينما كان الاستعراض يجري وصل إلى الدويش رسول يخبره بقتل ابنه في أم رضمة. فحزن ذلك المحارب القديم حزناً شديداً، وأمر خدمه بأن يفرغوا قِرَب الماء التي مع رجاله. وكان ذلك الإجراء استراتيجية مشابهة لتلك التي قام بها القائد المشهور طارق بن زياد حين أحرق السفن، وصاح برجاله: "العدوّ أمامكم والبحر من ورائكم". وفي هذه الحالة كانت الصحراء محلّ البحر، ولكن النتيجة كانت واحدة. فعندما ذهب رجال الدويش إلى المعركة في اليوم التالي لم يكن لهم بديل من الاستبسال في هجومهم على مورد الماء. وكان رجال الملك أقل بكثير من جيش الإخوان، كما أنّهم أُخِذوا على حين غرّة، ولذلك كان الهجوم انتصاراً تامّاً للإخوان. وقد فرّ من لم يُقتَل من رجال القبائل الموالين إلى الرياض. وفي طريقهم إليها قابلوا قافلة من الشاحنات محمّلة بأسلحة وذخائر متّجهة إلى القاعية، ومن سوء الحظ أن تلك القافلة قد أُرسِلَت متأخرة، فلم تصل إلى المورد المذكور قبل أن يهاجمه الإخوان. بل إنه من المحتمل جداً ان القافلة لو وصلت قبل الهجوم فإنها لن تفيد كثيراً لأن الموالين للملك هناك لن يكونوا قادرين على مجابهة مطير.

وعبر الدويش الدهناء مزهوّاً بنجاحه لكي يعود إلى شمال الأحساء. وبعد حوالي شهر اتّجه ابن سعود شمالاً ليتعقبه. وكما هي العادة ذهب مع الملك رجال ديوانه وأنا من ضمنهم. وحين اقتربنا من عبور الدهناء كان الجو قد أصبح محتملاً لأن الشتاء قد اقترب. ولكن الماء كان دائماً نادراً. وقد اتّجهنا إلى مياه اللصافة واللهابة التي كان موقعها ممتازاً من الناحية الاستراتيجية، والتي كانت الطائرات البريطانية قد قصفتها في إحدى هجماتها على الإخوان قبل ذلك بقليل. وما زلت أذكر ذلك المساء حينما عسكرنا في الدهناء ونحن نبعد

أميالاً عديدة من أقرب ماء. كانت الشمس تقترب من الغروب وكان الملك ينتظر غروبها ليؤدي صلاة المغرب وفجأة أتى إليه أحد رجال استطلاعه وهمس في أذنه شيئاً ما. ورغم إحاطته بما أُخبِرَ به فإنه لم يُبدِ أيّة علامة من علامات التأثر. واختفت الشمس ببطء وراء الأُفُق مشكِّلَةً صورة أخّاذة في السماء ومُجسِّدة ظلال الكثبان الرملية من حولنا. وفرش جلالته سُجّادة الصلاة واتّجه نحو مكة وقسماته هادئة، ولكنّها مليئة بالأفكار. وقد أحسست بأن أمراً في غاية الأهمية كان يشغل باله. غير أنه كان من المستحيل دائماً أن يعرف أي إنسان ما يفكر به جلالته. وبعد الصلاة عاد الملك إلى سجّادة كانت مفروشة له على تلّ صغير من الرمل. واستدعى بعض خدمه وجنوده. وطلب من هؤلاء بوضوح وسريّة أن يعطوا الأوامر التي كانت تتشكل في ذهنه إلى الجماعات القبلية في جيشه. وقد أُخبِرَت كل جماعة بالدِّقة ما كانت تحتاج إلى معرفته دون زيادة. وكان هذا الجمع بين الحزم والسريّة هو الذي ميّز جلالته قائداً فذّاً يمنح كل أتباعه الثقة التّامة بقيادته.

ولقد تمكّنتُ بعد ذلك بقليل من أن أعرف ذلك الخبَر الذي أسرّه إلى الملك رجل استطلاعاته. ذلك أننا حين وصلنا إلى اللصافة وجدناها قد لُوِّثَت بالطريقة المعتادة، وهي إلقاء رجل وحمار ميتين فيها. ومن الواضح أن جلالته كان قد علم بذلك لأنه سبق أن أرسل أمامنا قوة مكونة من خمسمائة رجل لنزح ماء الآبار حتى يقضى على تلوّثها. وقد مرّ يومان قبل أن تجمّ هذه الآبار. ومع ذلك فقد اتضح أن ماءها لم يكن، حينذاك، قد أصبح صالحاً للشرب. ورغم مضيّ خمسة أيام علينا دون أن نعثر على ماء فإنه لم يكن لنا خيار سوى أن نواصل سيرتنا. وأخيراً وجدنا ماءً كثيراً في الوفراء، ولكنّه أُجاج لا يصلح إلا للإبل. وقد خيّمنا تلك الليلة في مكان غير بعيد من ذلك يسمّى معرج السوبان. وكان معنا حوالي خمسة عشر ألف بعير. فأمر الملك أن تُرسَل إلى الوفراء ثلاث دُفعات، كل دُفعة خمسة آلاف بعير. وكان هذا الإجراء يمثّل عناية جلالته بدقائق الأمور، كما كان ضماناً بعدم إتاحة الفرصة للعدو ليشنّ هُجُوماً مباغتاً ويستولي على الإبل كلها وهي على المورد.

وتختلط رمال معرج السوبان بملايين الأصداف الصغيرة مما يشير إلى أن المنطقة كانت مغمورة بمياه البحر في الزمن القديم رغم أنها تبعد عن البحر الآن ما لا يقل عن ستين ميلاً. وعلى أية حال فقد كانت ملاحظة ذلك أقلّ همومنا لأن ظمأنا أصبح، حينذاك، مشكلة حقيقية. وقد توقفنا عن شرب الماء كُلّيةً واكتفينا بشرب كمّيات قليلة من الشاي والقهوة. وحينما حلّ الظلام تلك الليلة كانت أجسامنا المتعبة قد بدأت تضمُر في هواء الصحراء البارد، وكانت أفواهنا جافة حتى صارت أرياقنا تشبه الصمغ. ولم نكن، نحن رجال الديوان، نفتقد الماء فحسب بل لم يكن معنا طعام أيضاً. وقد طلبنا من رئيسنا أن يبحث لنا عن حلّ. فقام وتجوّل في المخيم حتى وجد أن الأمير محمد بن عبد العزيز يستطيع أن يعطينا شيئاً نأكله. ودُعِينا على خيمته حيث وجدنا صحناً كبيراً من الرز واللحم في انتظارنا. وكان اللحم طرياً جداً رغم أنّي لم أتذوق طعمه لأعرفه لأني كنت أشدّ جوعاً من أن أهتمّ بذلك. وبعد أن تناولت بضع لقيمات سألني الأمير محمد بابتسامة عريضة عما إذا كنت أعرف ما أكلت. وحين قلت إنني لا أعرفه أخبرني أنه قطة وحشية. وكنت أفضِّل أنني لم أعرف ذلك، ولكنّي كنتُ مسروراً بالطعام على أية حال. وإذا كان أكل مثل هذا اللحم محرّماً في الأوقات العادية فإنه مباح في وقت الاضطرار والشدّة. وفي الواقع أن البدو يأكلون أحياناً القطط الوحشية حينما لا يجدون سواها.

وكان فقدان الماء قد أصبح، حينذاك، أمراً في غاية الخطورة. فإذا لم نعثر على شيء منه في أقرب وقت فإننا سنواجه خطر الموت ظمأ. وكان على قواتنا أن تنقسم إلى أربعة أقسام على الأقل بحثاً عن الماء. وكان ذلك سيجعلها غير فعّالة بصفتها وحدة عسكرية لأيام عديدة. لكن حين ظهر فجر اليوم التالي أُجِيبَ دُعاؤنا بأصوات رعد غيوم مفاجئة أيقظتنا من نومنا القلق. ونزل الغيث حتى امتلأ الوادي القريب منا بغدران الماء، وصار الجوّ محملاً برائحة عطرية منعشة، وارتفعت معنويات كل فرد منا. وبما أن جلالته قد قرر أن نبقى في ذلك المكان أياماً، ولم يكن لدينا ما نعمله فقد رأينا أن نتبارى في الرماية فوق تلّ قريب. فأقام أحد الكُتّاب هدفاً صغيراً من الورق وبدأنا برمايته. وفجأة حدث ما أرعبنا؛

إذ انهال الرصاص من معسكرنا إلى المكان الذي كنا فيه وأخذ يصطدم بالصخور القريبة منا. فانتابنا ذُعر شديد، وعُدنا إلى المعسكر فوراً. وهناك التقينا بخدم الأمير محمد الذين طلبوا منا أن نأتي حالاً إلى خيمته. فناولَنا سموّه الشاي، وأخبرنا بهدوء أنه هو الذي كان يطلق علينا النار، وأوضح لنا أن الملك لم يرض بتبذير الذخيرة في مباراة للرماية، ورأى أن إطلاق النار في اتجاهنا سيكون أسلوباً ملائماً للتعبير عن امتعاضه من تصرفنا. فقلنا للأمير بنوع من الاحتجاج بأن الرصاص ربما أصاب واحداً منا. فأجاب بأنه كان يطلق النار دون أن يصوبها إلينا، وأن لديه ثقة في إجادته للرماية حتى وإن كنّا لا نشاركه تلك الثقة. وقد سألته: ماذا سيحدث لو أن أحدنا تحرك من مكانه وأنت تطلق النار؟ فأجاب بابتسامة مطمئنة: ستكون الرصاصة حينئذٍ قد انطلقت.

وبعد يومين طوينا خيامنا واتّجهنا شمالاً. وبعد مغادرتنا بقليل بلغتنا أخبار مهمة تفيد بأن الدويش، الذي كنّا ننتظر بأعصاب متوترة مواجهته في أية لحظة، قد هُزِمَ هزيمة ساحقة. وكان قد عسكر في أطراف وادي حفر الباطن قرب حدود الكويت. وهناك هاجمته فرقة من قبيلة حرب بقيادة عبد المحسن الفرم تساعدها قبيلة الظفير بقيادة عجمي بن سويط. وكان الفرم قد استطاع أن يباغت الإخوان بهجومه؛ إذ قام به حينما كانوا مستغرقين في النوم، وكان معسكرهم متلفّعاً بضباب الفجر. وقد أُحرِقَت خيام الدويش وغُنِمَت مُؤُنه وإبله، كما قُتِل أتباعه أو شُتِّتُوا. وكانت تلك الحادثة بمثابة النهاية للمحارب القديم؛ إذ ألقى بشجاعته في مهب الريح، وهرب من المعسكر على ظهر بعير كبير السنّ لم تعتبره قبيلة حرب جديراً بان يُؤخَذ. ولم يكن أي فرد منا يعلم بأن الفرم كان عازماً على مهاجمة الدويش. ولكني واثق بأن الملك قد دبّر ذلك الأمر. وهذا مثال جيد على الطريقة السريّة التي يصمّم بها جلالته الخطط وينفذها.

وبعد معركة حفر الباطن لم تبقَ لدى الدويش قدرة على الحرب. فهرب مع زوجاته وأسرته وعدد قليل من أتباعه عبر الحدود إلى الكويت، والتجأ إلى القنصل البريطاني الكولونيل ديكسون. وكان هذا متردداً أول الأمر في مساعدته إذ كان يعرف أن مساعدته ستغضب ابن سعود. لكن حينما خلع الدويش

عمامته ووضعها على رأس ديكسون أشفق عليه ووافق على إيوائه. وكان ما قام به الدويش عادة قديمة ترمز إلى انعدام القدرة ورجاء الحماية. وقد اعتنت زوجة ديكسون عناية شخصية بنساء الدويش اللواتي كُنّ في حالة يرثى لها من الجوع والبؤس وقد حدث ما توقّعه ديكسون. ذلك أن ابن سعود غضب غضباً شديداً حينما علم بأن البريطانيين قد آووا عدوّه القديم. ولا بد أن الملك قد غضب، أيضاً، على الكويتيين أنفسهم لأنه قد وجد في معسكر الدويش، بعد الاستيلاء عليه، رسائل تبرهن على أن المتمرّدين كانوا يحصلون على مؤن وذخائر من الكويت. فبعث رُسُلاً إلى الكويت والعراق واتّفق مع البريطانيين بأن يلتقي مع ممثلهم سريعاً في الرقعي. وهو مكان اجتماع ومورد ماء شهير يقع عند نقطة تلاقي الحدود الكويتية العراقية السعودية.

ولم تكن مسيرتنا إلى الرقعي بدون أحداث. ففي الطريق إليه شاهدَت طلائعنا جماعة من قبيلة مطير كان يقودها ابن عشوان. الذي لم يكن اسمه غريباً عليّ. فقد حاول هو وأتباعه سنة 1928م أن يشنّوا هجوماً على الكويت، لكن صدّهم عنها الشيخ علي الصباح وعدد قليل من رفاقه كانوا على سياراتهم. وفي أثناء تعقبهم غرزت بعض السيارات في الرمل فأحاط بهم البدو، وخاضوا معهم معركة ضارية قتل فيها الشيخ علي نفسه. فأرسل الشيخ عبد الله النفيسي، وكيل الملك في الكويت، برقية إلى جلالته يخبره فيها بتلك الحادثة. ولمّا كانت البرقيّة قد وردت بحروف إنجليزية فقد طلب مني ترجمتها.

وكان من المعروف لنا أثناء مسيرتنا إلى الرقعي بأن جماعة ابن عشوان قد انفصلت عن الدويش واتّجهت إلى داخل نجد. ومع أن التمرّد كان، حينذاك، قد قُضِي عليه بدرجة كبيرة فإنّه لم تكن هناك اتفاقية أو معاهدة سلام بين جلالته وبين هذه الفرقة من مطير، ولم تكن لديه أيّة وسيلة لمعرفة نواياها. ولذلك فإنّه أمر بمهاجمتها. وقد تقدّم الأمير محمد طالباً أن يقود الهجوم عليها، لكن الملك كان حريصاً على سلامته فرفض طلبه. وكان محمد مصمماً فأخرج مسدسه وصوبه إلى رأسه قائلاً: "إمّا أن تدعني أهاجمه وإلا فإني سأقتل نفسي". فأذن له الملك وقاد الهجوم الذي كان ناجحاً كل النجاح. فقد هُزِمَت تلك الفرقة،

واضطّر أفرادها إلى ترك نسائهم وأطفالهم والكثير من إبلهم. وقد قُتِل زعيمهم، ابن عشوان، لكنّ أخاه وكثيراً ممن كانوا معه تمكّنوا من الهروب. وكان من بين النساء اللواتي أُحضِرنَ إلى معسكر الملك أم ابن عشوان التي كان قد هدّها الحزن على موت ابنها. وقد سألها الملك لماذا التحق ابنها بالدويش، فخرّت على الأرض تبكي وتنوح وتدعو على الدويش. ثم قالت: إنه قد أتى إلى مخيّمنا والتفّ كالأفعى على ابني، واستطاع بالأكاذيب والوعود الجوفاء أن يقنعه بالانضمام إلى التمرّد. وقد أكّد الملك على رجاله بأن يعاملوا الأسرى من الأطفال والنساء بأقصى ما يمكن من الرعاية. وحالما وصلنا إلى مكان يمكن أن يكونوا فيه آمنين أُطلِقَ سراح الجميع.

وعندما وصلنا إلى الرقعي اتّضح أن البريطانيين قد قرّروا إعطاء الدويش حق اللجوء السياسي، كما آووا زعيمين من زعماء المتمرّدين وهما ابن لامي من قبيلة مطير ونايف بن حثلين المسمّى أبا الكلاب من العجمان. وقد أدهش ذلك ابن سعود الذي لم يرَ أيّة فائدة يمكن أن يجنيها البريطانيون من إيواء أعدائه. وكان ممثّل البريطانيين في لقاء سيد الرقعي السيد جون جلوب. المعروف لدى العرب بجلوب باشا. وكان، حينذاك، مفتِّش الصحراء العراقية الجنوبية، ثم أصبح فيما بعد قائداً للجيش العربي الأردني. المشهور لدى البريطانيين باسم الفيلق العربي. وقد بقي الملك مخيِّماً على بُعد خمسة أميال من الرقعي ذاته. ثم أرسل يوسف ياسين، مدير القسم السياسي في الديوان. ليتفاوض مع جلوب باشا حول الدويش والزعيمين الآخرين. وأرسلني معه لأقوم بالترجمة بينهما. وفي لقائنا الأول مع جلوب باشا سلّمنا عليه، وتكلمت معه بالإنجليزية فردّ عليّ فوراً بلغة عربية لا غبار عليها. وقد سألناه عن الدويش فاتضح من إجابته أنه لا يستطيع إعطاءنا جواباً شافياً عنه. ومع أنه كان لَبِقاً إلى درجة كبيرة فإنّه لم يتعهّد إلا بإرسال برقيّة مستعجَلة إلى لندن مؤكِداً بأن هذا الموضوع سيُعطَى اهتماماً فورياً. وبينما كنا في الرقعي وصل إليه عدد من بدو العراق فذهب جلوب باشا لزيارتهم. ولقد أعجبت كثيراً بما استطاع أن يكوّنه من علاقة وثيقة مع رجال القبائل. فقد كان عارفاً تماماً بعاداتهم وحركاتهم ولهجاتهم، وكان

ينضمّ بسهولة إلى أحاديثهم ويشرب معهم القهوة حسب الطريقة المتّبعة في الصحراء. وحين سألناه عما كان يريده أولئك البدو قال: "هؤلاء الأغبياء يقولون إنهم يريدون أن ينضووا تحت راية الملك"..

واجتمعنا في اليوم التالي مع جلوب باشا، فاقترح أن يسافر جلالته إلى خباري وضحا حيث يمكن أن يُجرى مزيداً من المفاوضات مع البريطانيين والعراقيين لا تقتصر على الزعماء المتمرّدين فقط وإنما تشمل عدداً من قضايا الخلاف الآخر بين المملكة العربية السعودية وجاراتها، خاصة المشكلة المتعلقة بنقاط الحدود العراقية. وقد وافق جلالته على هذا الاقتراح فانطلقا نحو الجنوب الشرقي في رحلة طويلة على خباري وضحا. وكانت الأرض التي سنعبرها صعبة جداً. وقد مررنا بمنطقة تسمى الفرعاء لأنها خالية من أي نوع من النباتات أو الحشائش. وكانت مغطاة برمال ناعمة رمادية اللون تشبه الطين صعبة العبور بالنسبة للإبل. وكان لا يوجد فيها بدو على الإطلاق؛ إذ لم يكن فيها مراعٍ لإبلهم ولا حطب لنيران طبخهم. وبعد أن عبرناها بصعوبة استرحنا بعضاً من الوقت في وادي حفر الباطن. وقد كان هذا الوادي امتداداً لوادي الرمّة الذي يبدأ من عند المدينة المنورة ويمرّ بين بريدة وعنيزة في القصيم، ثم يعبر الدهناء حتى يصل إلى حفر الباطن والرقعي، ثم يتجه شمالاً بشرق فيمرّ بالزبير ووادي السبية قرب البصرة حتى ينتهي بالخليج العربي. ويسمّى وادي الرمّة، أيضاً، وادي الجثث لأنه يمتلئ بسرعة مذهلة زمن المطر الغزير فيغرق في تياره القوي كثير من الناس والخيل والإبل والأغنام. وكانت تلك الجثث، قبل فتح قناة السويس، مصدر غذاء للأسود والنمور التي كانت تأتي من أفريقيا ثم تتجه إلى العراق.

وكنا جميعاً متعبين من السفر. وكان كل جزء في جسدي يؤلمني. وما زلت أذكر أني حين نزلت من بعيري ووقعت على الأرض كنت مرهقاً لدرجة أني أحسست بأن الأرض ذاتها كانت تدور من تحتي. قبل أن نواصل السير مرة أخرى سألني جلالته كم تبعد خباري وضحا. فقال دليلنا البدوي إنها حوالي ثلاثين ميلاً، وكانت معي خريطة سبق أن رسمها فيلبي في إحدى رحلاته الاستكشافية. وقد ظهر فيها أن المسافة حوالي ثمانية عشر ميلاً فقط. لكن اتضح فيما بعد أن

الدليل كان أكثر دقة من الخريطة؛ إذ كانت المسافة لا تقل عن خمسة وثلاثين ميلاً. ولم نصل إلى خباري وضحا إلا بعد منتصف الليل بوقت غير قصير. وكنا، حينذاك، منهكين غاية الإرباك.

ولم يُسمَح لي إلا بوقت قصير أستعيد فيه قوتي. ففي الصباح الباكر بدأت المفاوضات مع البريطانيين، وكان عليّ أن أقوم بالترجمة. وقد أرسل البريطانيون ممثلهم السياسي العام في منطقة الخليج، الكولونيل بيسكو، على رأس وفدهم المفاوض. وكان معه الكولونيل ديكسون وبعض قادة القوة الجوية البريطانية في العراق. أمّا الجانب السعودي فكان برئاسة الملك نفسه واشتراك كل من مستشاريه يوسف ياسين وحافظ وهبه، الذي عُيِّنَ فيما بعد سفيراً في لندن. وقبل أن تبدأ المفاوضات تبودلت عبارات مجاملة أثنى فيها البريطانيون على جلالته، فأجابهم بأن عبّر عن احترامه لهم وثقته بهم وبحسن نواياهم. وقد اتّضح في خلال المحادثات أن الدويش والزعيمين الآخرين كانوا محتجزين في قاعدة الشعيبة القريبة من البصرة. ولعلّه من المناسب الإشارة إلى أن الكويتيين والعراقيين لم يكونوا يملكون، حينذاك، اتخاذ أي قرار في الموضوع المطروح للنقاش لأن بلديهما كانا تحت السيطرة البريطانية. وقد أصرّ جلالته على أنّه يعتبر الدويش مجرماً يجب أن يُسَلَّم إليه ليُحاكَم وينال جزاءه. لكن البريطانيين أصرّوا بطريقة مؤدبة على اعتباره لاجئاً سياسياً، ورفضوا أن يسلّموه. ولم يكن موضوع الدويش الموضوع الوحيد الذي كان محل خلاف بين الطرفين. فقد قُتِل عدد كبير من الناس، واستُولِيَ على كثير من الإبل وغيرها في الغزوات والغزوات المضادّة التي جرت على الحدود العراقية السعودية خلال اضطرابات الإخوان. وقد اتُّفِقَ، بوجه عام وطِبقاً للعُرف العربي، على أن تُدفَع تعويضات للجانب الذي كانت خسائره أكثر من الجانب الآخر. وهنا أكّد العراقيون بأن خسارتهم كانت أكثر من خسارة السعوديين. لكن يوسف ياسين كان قد أعدّ إضبارات مفصلة عن الإصابات الفادحة التي تكبّدها الإخوان أثناء الغزوات، وعن الخسائر التي مُنيت بها القبائل السعودية من جراء هجمات العراق المضادة وقصف القوة الجوية البريطانية لها.

وقد نظر العراقيون والبريطانيون إلى تلك المعلومات نظرة ارتياب، لكني أعرف أنها كانت دقيقة كل الدقة وصادقة كل الصدق. ذلك أن جلالته كان دائماً يستطيع أن يعتمد على القنوات المستمرة للمعلومات الصحيحة التي كانت تصل إليه من أجزاء مملكته لأن أيّ أمر يحدث في ناحية منها يعرف السكان المحلّيون أنه سيكون موضع اهتمام جلالته فيبعثون إليه فوراً من يحمل إليه نبأه. ولم يكن هناك أبداً نقص في المتطوعين للقيام بهذه المهمة لأن سخاء الملك نحو من يأتونه بالأخبار كان معلوماً لدى الجميع. وكان من المعلوم، أيضاً، أن جلالته يفضّل أن تكون المعلومات التي ترد إليه وافية التفاصيل إلى أقصى حد ممكن. وعلى هذا فإن رجال القبائل المحلّيين كانوا يسجّلون تفاصيل كل معركة تسجيلاً دقيقاً ويفصّلون الأحداث التي تتم لكل من الطرفين المتقاتلين. وكان وصول هؤلاء إلى الرياض مشهداً مألوفاً. فإذا كانوا يحملون أنباء خطيرة، بوجه خاص، أطلقوا النار في الهواء لجلب الانتباه. وفي أثناء تقدّمهم إلى المدينة ينتظرهم السكان لدى أبوابها ليعرفوا ما الذي حدث وما إذا كان قد تحقّق انتصار أم لا.

ولم يكن يوسف ياسين يؤمن بالفكرة البريطانية وهي أن المفاوضات ينبغي أن تجري في جوّ من المجاملات وتخفيف حدة الحقائق. فقد كان يدلي بآرائه بطريقة مباشرة شديدة الوقع، ولم يكن يبالي إن كانت تلك الطريقة تُعكِّر مزاج الطرف الآخر. وبالإضافة إلى ذلك فإن فيض المعلومات التي كانت في حوزته ومعرفته الواضحة بالظروف المحيطة بالغزوات كانا من الأمور التي أحرجت البريطانيين والعراقيين كلَّ الإحراج، خاصّة أن هذه المعلومات تتناقض تماماً مع الإحصائيات الموجودة لديهما. وبعد اليوم الأول من المحادثات أخذني الكولونيل بيسكو جانباً وسألني أن أرجو من الملك أن لا يرسل يوسف ياسين في أيّة مداولات قادمة. لكني لم أقم بنقل رسالته؛ فقد شعرت بأنه من الإهانة للملك أن يحاول البريطانيون أن يُملوا عليه من الذي ينبغي أن يكون أو لا يكون في وفده المفاوض. وبالإضافة إلى هذا فقد كنت أعرف أن يوسف ياسين كان الرجل الوحيد الذي اطّلع على كل تفاصيل الخسائر التي سبّبتها الهجمات العراقية. وكنت واثقاً من أن ذلك كان أحد الأسباب التي دعت البريطانيين إلى أن يطلبوا

إخراجه من المحادثات. وفي اليوم التالي ذهب يوسف ياسين مع حافظ وهبه إلى المخيّم البريطاني، وذهبت معهما. وقد تحدّث أحد البريطانيين إلى يوسف ياسين بحديث أثار غضبه. فسألني حافظ وهبه إن كان بيسكو قد طلب أن لا يحضر يوسف المحادثات. فقلت له إنه قد طلب مني ذلك، ولكني نسيت أن أخبر الملك. ثم ذهبت إلى بيسكو واعتذرت منه لنسياني. وكان من الواضح أنه قد انزعج، لكنه بدا وكأنه قد فهم الإشارة. واستمرّ يوسف ياسين في حضور المحادثات. وفي تلك الليلة دعاني الملك للعشاء معه في خيمته. وكان حافظ وهبه هناك أيضاً. ولم يقل لي أي منهما شيئاً عن الحادثة، ولكني كنت متأكداً من أنهما كانا يشكراني لفقداني ذاكرتي فيما يخص رسالة بيسكو.

وقد دامت المفاوضات أسبوعاً آخر تم خلاله تسوية غالبية المشاكل مع العراق. لكن مصير الدويش لم يحلّ. وقد قام البريطانيون بكل أنواع المحاولات الغريبة لتقديم حل وسط بشأنه، فاقترحوا أن يبقوا الدويش في العراق أو على سفينة في الخليج أو يرسلوه منفياً إلى الهند أو سيلان حيث لا تكون لديه أية فرصة لإحداث المزيد من الإزعاج للملك. لكن جلالته بقي ثابتاً على موقفه، ورفض أن يقدّم أيّة تنازلات حول هذا الموضوع. وفي نهاية الأمر بلغ به الانزعاج من الموقف البريطاني حدّاً جعله يقول بوضوح: "إن المسؤولية كلها تقع على عاتقِكُم إذا لم تفعلوا الأمر الصواب". ومع أن البريطانيين لم يوافقوا فوراً على مطالب الملك فإنهم وجدوا أخيراً أنه لم يكن في وسعهم إلّا الموافقة عليها. وبعد بضعة أيام أحضروا فيصل الدويش وابن لامي ونايف بن حثلين إلى خباري وضحا وسلّموهم إلى جلالته. ولعلّه من المفارقات العجيبة أن البريطانيين، اختصاراً للوقت، أحضروا زعماء الإخوان إلى هذا المكان بواسطة أعلى اختراع صنعه الكافر وهو الطائرة. ومرّة أخرى واجه الدويش ملكه. لكن جلالته لم يستخدم هذه المرة الكلمات الرقيقة مع زعيم المتمردين، فقد قال له متهكماً: "أجل. كنت تظن أنك ستجد طريقك إلى النجاة بالالتجاء إلى البريطانيين". وأخذ يوبّخه لعدة دقائق مذكّراً إيّاه بشناعة جرائمه. وكُنّا جميعاً نظن بأن الدويش سيُعدَم، لكن الملك كان رحيماً مرةً أخرى، فبعثه مع رفيقيه مكبّلين بالأغلال إلى سجن الرياض.

وكانت معنوية ذلك الرجل العجوز محطمة، فلم يعش طويلاً بعد أن أصبح محاطاً في السجن بمجرمين عتاة من عامة الناس يكادون يسرقون طعامه منه. وفي خلال ستة شهور مات بمرض ألمّ بقلبه أو بحزن طغى عليه وحطّمه. وبموته وجدت روحه السلام.

وبعد أن رتّب الملك إرسال الدويش إلى الرياض طلب من حافظ وهبة ومني الذهاب إلى الكويت لنرى إن كان هناك من أسرة الدويش من يرغب في العودة إلى نجد. وقد انتهت مهمتنا بأسرع مما كنا نتوقعه. ففي طريقنا إلى الكويت التقينا بابن الدويش، بندر، الذي كان الباقي الوحيد من أبنائه. وكان قد قَدِمَ من هناك ومعه أقاربه ونساؤه. وكان معهم ما بقي من إبلهم، بما فيها مجموعة فريدة تتكون من حوالي مائتي بعير ذات لون أسود تعرف بالشُّرْف. وكانت هذه الإبل موضع فخر الدويش الخاص، كما كانت تستعرض في المناسبات التي يحتفل بها. ولم يكن الملك في نزاع مع أسرة الدويش. ولذلك فقد عُومِلَت معاملة حسنة، وسمح لها بأن تعيش في الرياض. وقد أعطى الملك تلك الإبل الخاصة لابنه محمد، الذي أعادها فيما بعد إلى أسرة الدويش.

وفي أثناء مفاوضات خباري وضحا دعا المسؤولون البريطانيون جلالته إلى مقابلة ملك العراق، فيصل، في الخليج العربي علامة على حسن النوايا وإنشاء صداقة جديدة بين بلديهما فوافق الملك على ذلك. ورتّب البريطانيون أن تأتي سفينة تابعة لشركة "كيبل آند وايرليس" إلى رأس تنّوره ليستقلّها الملك ويسكن فيها خلال المحادثات. وقد جرَت تلك المحادثة بشكل غير عادي في وسط الخليج العربي. وقد أتى الملك فيصل إلى هناك على ظهر سفينة تدعى (نرجس)، وأتى السير فرانسيس همفرز، القنصل العام البريطاني في العراق، على طرّادة تسمى لوبين. وكان أول لقاء للمؤتمرين في السابع والعشرين من فبراير سنة 1930 على ظهر السفينة المُقِلّة لجلالته حيث قام السعوديون باستضافة الآخرين وحين صعد الملك فيصل إلى ظهر السفينة حيّاه حرس ابن سعود الخاص. وقد أثار المنظر الفذّ لهؤلاء المحاربين في نفس فيصل الذكريات القديمة لحروبه الصحراوية مع لورانس العرب فكانت كلماته الأولى: "إني أشعر بالفخر والابتهاج

أن أكون بين جنود عظماء كهؤلاء" فأجابه جلالته، بسرعة بديهته المعروفة، قائلاً: "ما دام بلدانا صديقين فإن هؤلاء الجنود جنودك كما أنهم جنودي"، وتلا ذلك اجتماع طويل متّسم بالمودة. وحين انتهى ذلك الاجتماع دعا الملك فيصل جلالته للاجتماع به على ظهر سفينته في اليوم التالي. لكن الاجتماع تأجّل بسبب هبوب عاصفة مفاجئة أجبرت السفن الثلاث على أن تلجأ إلى المياه الشرقية عند النهاية الشمالية للخليج العربي. وقد تمّ الاجتماع الثالث والأخير على ظهر الطرّادة لوبين، وودّع كل من العاهلين الآخر بعبارات الصداقة وحسن النوايا.

وحين انتهت المحادثات سأل السيد همفرز جلالته عمّا إذا كان يسمح بمقابلة جلوب باشا، الذي كان قد طلب الإذن في المجيء إليه. لكن جلالته لم يوافق على ذلك لأن جلوب كان قد أعطى تفصيلات عن أمكنة القبائل على الحدود العراقية السعودية على القوة الجوّية البريطانية مما مكّنها من تنظيم غزوات جوّية إلى داخل الأراضي السعودية. وقد شعر الملك أن جلوب مارَس تأثيراً سيئاً على العراقيين. وكان من المعتَقَد، أيضاً، أنّه كان يعمل ضد مصالح العرب وآمالهم في الاستقلال من القوى الاستعمارية. وحين رفض الملك مقابلته قال السيد همفرز: إنك تسمع عن الناس قصصاً حسنة وسيئة، لكن ما لم تقابلهم شخصياً فلن تستطيع أن تكوّن فكرة صائبة عنهم. فكان أن أعاد الملك النظر في الموضوع وأذِنَ لجلوب باشا بمقابلته. وقد تحادث الرجلان بعض الوقت، لكن لا أظن أنهما تجاوزا في حديثهما مرحلة المجاملة الرسمية. ومن المؤكّد أنه لم يكن بينهما أية ألفة حقيقية.

وبعد ذلك اللّقاء اتّجهت السفينة المُقِلّة لجلالته إلى الأحساء. وفي طريقها إلى هناك قرّر أن يزور صديقه القديم الشيخ عيسى آل خليفة، حاكم البحرين التي كانت حينذاك تحت الحماية البريطانية. وكان الشيخ عيسى، كما ذُكِر سابقاً، قد بذل مساعدة وحماية لابن سعود وأبيه خلال فترة جلائهما عن الرياض. وكان دائماً متعاطفاً مع آمال الملك الشاب. ولذلك أعطى جلالته أوامره إلى قائد السفينة ليتّجه إلى ميناء المنامة في البحرين. وفي الطريق إلى هناك أمرني أن أبعث برقيتين؛ إحداهما إلى الشيخ عيسى، والثانية إلى القنصلية البريطانية

للإخبار عمّا كان قد عزم عليه. وقُبَيل أن ترسو السفينة هناك عند منتصف الليل وصلت برقّية جوابية من القنصل البريطاني تفيد بأن الشيخ عيسى كان مريضاً وليس موجوداً في المنامة، ولذلك فإنّه لا يستطيع استقبال جلالته. فقرّر الملك على مضَض أن يُطِلّ على ظهر السفينة ويتّجه إلى العقير. لكن اتّضح بأن البرقية كانت كاذبة. ففي الصباح الباكر من اليوم التالي سمع أبناء الشيخ عيسى بأن ابن سعود قد قرّر ألّا ينزل في البحرين فأتوا فوراً على عِدّة قوارب إلى سفينته وطلبوا منه أن يأتي إلى الشاطئ لأن أباهم كان ينتظره في الميناء، وقالوا للملك: "إما أن تنزل وترى أبانا وإلا فسنذهب جميعاً معك إلى الرياض". ولإصرارهم وافق على أن ينزل إلى الشاطئ، لكنه قال بعبارة مؤكدة: "إني لا أرغب في رؤية القنصل البريطاني في البحرين". ذلك أن جلالته كره اللعبة التي حاولها القنصل رغم أنه استطاع بسهولة أن يعرف سببها. ففي ذلك الوقت كانت هناك حركة وطنية متزايدة في البحرين. وكانت تلك الحركة تسبب الكثير من المتاعب للبريطانيين. وقد حاول القنصل في هذه الظروف أن يتفادى مجيء أعظم قائد عربي مستقبَل إلى عَتَبَة بابِه لخوفه من أنّ ذلك سيؤدي إلى مزيد من المظاهرات الوطنية.

وقد سُرَّ الشيخ عيسى كثيراً برؤية جلالته لأنّه قد مضت عدة سنين منذ أن رآه آخر مرّة. وقد أخبر الشيخ عيسى الملك بأنه كان خائفاً من أن يموت دون أن يراه مرة أخرى، لكنه الآن سيموت بسلام. وقد أجابه ابن سعود بقوله: "ما دام والدي قد توفي فليس لي من أستشيره إلّا أنت". وتحادث الرجلان عدّة ساعات أخبر الملك فيها الشيخ عيسى عن مشاكله مع رجال القبائل من الإخوان، وعبّر عن أمله في أن يُكوِّن مملكة متّحدة يعيش فيها الجميع بسلام ورغد. ثم تناول جلالته غداءً خفيفاً مع الشيخ عيسى وأسرَتِه. وبعد ذلك بقليل زار الملك بلدة الرفاع في جزيرة المحرّق الصغيرة حيث تناول العشاء مع وكيله التاجر النجدي المشهور، القصيبي، وحين أراد جلالته مغادرة البحرين أتى الشيخ حمد بن الشيخ عيسى إلى شاطئ الزلاق حيث كانت سفينة جلالته تنتظره ورجا له سفراً سعيداً. وكان الشيخ حمد، حينذاك، كبير السن. لكنه لم يؤدِّ فريضة الحجّ بسبب حدس منجّم بأنه سيموت إذا أدّاها. وكان ذلك نوعاً من الخرافات التي يحاربها كل متّبِع لمذهب ابن عبد الوهاب. وكانت كلمات جلالته الأخير لحمد: "إنّي لن أكون مسروراً ما لم أرَكَ في مكة".

وبعد سفر قصير نزل الملك في ميناء العقير. ومن هناك سافر إلى الهفوف حيث قابله صديقه القديم ابن عمّه عبد الله ابن جلوي، الذي كان في ذلك الوقت، قد شُفِيَ من مرَضه. كما رأى ابنيّ عبد الله، سعوداً وعبد المحسن[6]. وأخيراً عاد إلى الرياض بعد غيابه عنها مدّة شهرين تقريباً.

ولم ينسَ جلالته الإهانة التي قام بها البريطانيون في البحرين تجاهَه. وقد سَنَحت الفرصة له في السنة التالية أن يردّ على تلك الإهانة. فقد وصل إلى الرياض طلب من الحكومة البريطانية عبر سفيرها في جدة للإذن لإيرل اف اتلون وزوجته الأميرة أليس بأن يزورا جلالته ويعبُرا بلاد العرب من جدّة إلى العقير. فرفض الملك ذلك، وأمرني أن أرسل برقية جوابيه تفيد برفضه. وكان نَصُّها:

" من المؤسف أن الأوضاع في الصحراء ليست تحت السيطرة التامّة، ولا يزال هناك بقايا من القبائل الثائرة التي لم تخضع بعد. وليس من المناسب ولا المستحب في الوقت الحاضر أن تعبرا الصحراء".

ولِئلّا يفهم البريطانيون أن ذلك كان السبب الحقيقي لرفضه طلب مِنّي الملك أن أضيف مثلاً عربيّاً نصه "البادئ أظلم"، قاصداً بذلك أن البريطانيين أنفسهم كانوا مسؤولين عن موقفهم تجاههم. وقد اهتزّت السلطات البريطانية بهذه البرقية إذ لم يسبق أن تعامل الملك مع البريطانيين بمثل هذا الأسلوب أبداً. وكان الموضوع بحذافيره محرجاً لهم، فأسرعوا إلى إعادة الأمور إلى نِصابها. وكتبوا فوراً رسالة إلى جلالته يقولون فيها أن كل المسؤولين في قنصلياتهم في الخليج العربي والكويت والعراق يودّون أن يزوروه ويعتذروا منه لما حدث من القنصل البريطاني في البحرين. وتمّت الزيارة فعلاً وكانت تصوّر مدى تقدير الحكومة البريطانية للملك ولعلاقات الصداقة معه. وبعد الزيارة عادت العلاقات بين جلالته والبريطانيين إلى حالتها الودّية الأولى، وسمح لأيرل وأليس بدخول البلاد.

6) عبد المحسن هو أمير المنطقة الشرقية في الوقت الحاضر.

ولقد أتى الزائران أخيراً إلى المملكة في سنة 1938م. وبعد عبور الجزيرة العربية زارا مسؤولين مختلفين في شركة الزيت العربية في الظهران. وكانا قد قاما أولاً بزيارة الملك في جدة. وكانت مناسبة لا تُنسى؛ إذ كانت نبيلة أتلون أول امرأة تحضر مأدبة عربية على مستوى الدولة. وكانت، أيضاً، أول مرّة يتعشى فيها ملك وهابّي عَلناً مع امرأة. وكنت أشعر دائماً بأن اللقاء كان يرمز إلى الطريقة التي بدأ بها الأوروبيون اهتمامهم بالدولة العربية الجديدة وتقديرهم لها. فلم تعُد صحراؤنا منطقة غامضة مجهولة لا تُعرَف إلا بفوضاها، وإنما أصبحت بين عشية وضُحاها مملكة متّحدة عظيمة تحت قيادة عاهل مُلهِم يسيطر على جميع أفراد شعبه بوضوح لا لبس فيه.

لقد اتخذت دولة المملكة العربية السعودية الآن شكلها النهائي، وأصبح ابن سعود قادراً على أن يترك مهمة بناء مملكته وراءه ويأخذ دور الحاكم القويّ في الحيط العالمي.







الفَصَلُ التَّاسِعُ

اليَمَن

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٤١﴾

سورة الرعد (41)



كان ابن سعود حتى سنة 1930م قد اضطّر إلى خوض معارك كثيرة شرق وشمال وغرب نجد للدفاع عن مملكته وتوسيع رقعتها. لكن لم يسبق له أن حارب جنوبها. ولم يكن ذلك غريباً؛ إذ تفصل بين نجد وبين الدول الواقعة على البحر العربي منطقة الربع الخالي الواسعة التي لم يكن يدخلها إلا قليل من الناس، والتي لم يكن أحد يرى جدارة القتال من أجلها. لكن كان هناك عدوّ قويّ في الجنوب الغربي من جزيرة العربي متمثل في دولة اليمن. وكانت احتمالات الحرب مع ذلك العدوّ تزداد بازدياد نفوذ ابن سعود. ذلك أن حدود اليمن الشمالية كانت متاخمة للحدود الجنوبية من المملكة السعودية على شواطئ البحر الأحمر الخصبة المكتّظة نسبياً بالسكان. وبعد استيلاء ابن سعود على الحجاز وعسير بدأ النزاع بين السعوديين واليمنيين. وفي اعتقادي أن سبب ذلك كان عائداً جزئياً إلى عدم الثقة الدينية الناتج عن الاختلاف المذهبي بين الطرفين. فأحدهما يتبع المذهب السنّي، والثاني يتبع المذهب الزيديّ الشيعي. ومع أن الخلاف بين المذهبين لم يكن خطيراً من الناحية النظرية فإن كل طرف كان يعتبر الآخر مخالفاً للدّين الإسلامي الصحيح. على أنّه كانت هناك أسباب سياسية للعداء. فالإمام يحيى، ملك اليمن، قد اعتبر ازدياد نفوذ ابن سعود تهديداً لاستقلاله، وخاف أن يستولي على بلاده الصغيرة بالطريقة التي استولى بها على جبل شمّر والحجاز. وكان هناك كثير من ذوي النفوذ داخل نجد وخارجها يرون أن ضمّ اليمن إلى البلاد السعودية أمر منطقي ومرغوب فيه. وقد ظلّ فيلبي فترة يكتب مقالات يلمّح فيها إلى أنّ على الملك أن يضمّ اليمن إلى بلاده. بل إنّه صرّح في إحدى المقالات بأنه يودّ أن يرى جلالته يلبس التاج المثلّث

لمكة والرياض وصنعاء. وبعد أن استولى ابن سعود على الحجاز بفترة قصيرة زاره في جدة الكاتب المشهور، أمين الريحاني، ليهنّئه بنجاحه في ذلك. وقد عبّر عن أمله القوي في أن تكون زيارته الثاني لتهنئته في عدن.

وكانت الفكرة العامّة في الديوان أن اليمن بلاد صعبة شاقّه يسكنها أُناسٌ أشداء، وأنّ الملك لن يكسب الكثير من ضمّها إلى مملكته الواسعة. وإنّي واثق بأن جلالته كان يرى ذلك الرأي. وأذكر أني حين أخبرته باقتراح فيلبي بشأن التاج المثلّث كان ردّ فعله الفوري رفض الفكرة تماماً. إذ قال: "إن اليمن ليست لي" ومع هذا فلم يكن الإمام يحيى ملوماً على قلقه، خاصة إذا نظر المرء ما حدث قُبَيل ذلك لإمارة جازان المجاورة له.

كانت جازان حتى أواخر العشرينات إمارة صغيرة مستقلة تجاور الحدود الشمالية لليمن على البحر الأحمر. وكان قصر أميرها في مدينة صبيا. فوقع خلاف بين هذه الإمارة وبين اليمن نتج عنه طلب أمير جازان من ابن سعود حمايته. فوافق جلالته على مساندة ذلك الأمير دون تردُّد، واقترح أن يرسل إلى جازان مفوضاً يساعده في شئون الحكم. وذهب المفوّض السعودي صالح بن عبد الواحد إلى هناك، وقام بالأعباء الموكولة إليه. وبعد ذلك واجه الأمير مشكلات مالية، فطلب من الملك أن يُقرِضَه مالاً. فوافَقَ جلالته على ذلك أيضاً، وأمدّهُ بِمُراقِبٍ ماليّ ليساعده في إدارة أمواله. ثم استبدل المفوّض الأول الذي كان لطيفاً متواضعاً، برجل أقوى منه. ولم يمضِ وقت طويل حتّى أصبح الأمر نفسه قليل المقدرة على البتّ في أمور حكومته. وقد أدرك بعد فوات الأوان ما كان يجري حوله، فجمع ما استطاع جمعه من قوّات وحاصر محل إقامة المفوّض. وبطبيعة الحال لم يكن أمام ابن سعود تجاه هذا التصرّف إلا أن يرسل تعزيزات عسكرية ويضُمّ جازان إلى مملكته. وقد تمّ ذلك بسرعة عظيمة ودون إراقة الكثير من الدماء. وكان تبريره ضعيفاً بالنسبة للعالم الخارجي. ولعلّه من الغريب أن أمير جازان هرب والتجأ إلى اليمن.

وبعد أن شاهد الإمام يحيى هذا المثال من دهاء الملك السعودي صمّم على أن لا تعاني مملكته مصيراً مثل مصير جازان. وقد رأى أن قليلاً من مظاهر الحرب هو السبيل الأمثل لإقناع ابن سعود بأن اليمن لا تريد أن تصبح جزءاً من أراضيه. وكانت الطريقة التي اختارها المطالبة بمنطقة نجران، الواقعة على حدوده الشمالية الشرقية، وبمنطقة جنوبي عسير الواقعة على حدوده الشمالية الغربية. وكانت المنطقتان قد أصبحتا، بعد ضمّ الحجاز وعسير، من أطراف المملكة العربية السعودية، وإن لم تكونا قد أُدخِلَتَا تماماً ضمنها. فكانتا تتمتّعان بنوع من الاستقلال القلق المضطرب تحت إدارة أمراء محليّين. وكانت حدودهما مع كل من السعودية واليمن غير محدّدة، وإن كانت الأولى تقول بأنهما جزء منها وكان ابن سعود من الحكمة بحيث لم يحاول أن يغيّر ذلك الوضع لأن جنوب عسير ونجران كانتا في الواقع منطقتين فاصلتين بين مملكته وبين اليمن. وكان واضحاً أن أيّة محاولة يقوم بها الإمام يحيى لتغيير الوضع الراهن حينذاك ستكون مصدر قلق كبير للملك.

ولقد زادت المشكلة تعقيداً تصرفات أمير نجران الذي كان يحاول أن يلعب دوراً خطيراً في الصراع السياسي. فقد سعى في أوقات مختلفة إلى التحالف مع السعودية واليمن وطلب العون من كلٍّ منهما وربما كان يُفكِّر في أن يضرب إحداهما بالأخرى لمصلحته الخاصة. وإذا كان هذا تفكيره فقد كانت حساباته خاطئة. فقد كانت النتيجة أن كِلتا الدولتين اعتبَرت نجران محميّة لها، وأن كلتيهما - خلال النزاع الذي تلا ذلك - لم تعر اهتماماً لادعاءات ذلك الأمير في الاستقلال.

وكانت مطالبة الإمام يحيى بنجران أول الأمر شفويّة. وقد بحث هذا الأمر بواسطة وفود من كلا الطرفين حاولت مسح حدود اليمن وتخطيطها بدقة. لكن جهود الوفد لم تثمر لأن تثبيت الحدود لم يكن يعتبر ضرورياً قبل ذلك أبداً، ولأنه لا يستطيع إنسان أن يحدّد مكانها. فحدثت منازعات لا نهاية لها حول جبل من جبال نجران. وأحال الوفدان اليمني والسعودي أمره أولاً إلى الإمام يحيى، فأعلن أنه يترك الحكم فيه لأخيه الملك عبد العزيز. وأُرسِلَت برقيّة من اليمن إلى

جلالته بهذا المضمون. وكنت معه في رحلة صيد حينذاك. وكان جهاز اللاسلكي يصحبه أينما سار. وكان من واجبي ان أتسلّم البرقيات من مأمور اللاسلكي وأقدّمها إلى الملك. وحين جاءت تلك البرقية كان جلالته قد ابتعد عن المخيّم إلى مكان منعزل في الصحراء. فأخذتها فوراً إليه، وقرأها مبتسماً وهو يقول: "لقد طُلِبَ مني أن أحكم في النزاع حول الجبل" وبناء على أوامر جلالته أرسلت الجواب المختصر التالي: "أعلن من الآن أن الجبل لليمن". وقد شاع هذا الخبر بسرعة في كل البلاد العربية. وكان عنوان إحدى الصحف المصرية: "الحق يتكلّم". وبعد أن روت القصة الكاملة وراء ذلك القرار قالت: دعوا تلك القوى الغربية تعرف أولئك الذين يقولون بأن العرب ليس لديهم رجال دولة ولا سياسيون عظام.

لكن مِلكيةّ الجبل لم تضع حدّاً للخلاف حول نجران. فأخذت المفاوضات تطول وتزداد مرارة. وازداد التّوتر بين الطرفين حين قرّر الإمام يحيى بأن يساند دعواه بإرسال فصائل من قوّاته إلى نجران. وأخذَت الإبل اليمنية تدخل إلى مواقع القوات السعودية المرابطة هناك. فاحتّج السعوديون لدى الإمام على ذلك التدخُّل، لكنّه أصرّ على عدم سحب قواته. بل إنه أجاب على الاحتجاج بأن أرسل إلى الملك رسائل احتجاج مصوغة بعبارات ذات إفراط في بلاغتها. ولعلّه كان متّبعاً في ذلك المثل العربيّ القائل: إن من البيان لسحرا. وقد أزعجت الملك صياغة تلك الرسائل التي قصد الإمام بها، على ما يبدو، إظهار تبحّره باللغة، والتي كانت خالية من المعنى على أية حال، وزاد من غضب جلالته أن الإمام كان يسيء استخدام المسائل الدينية ليؤيّد دعواه بطريقة كان من الواضح أنه يقصد بها الإيحاء بأن الملك ليست لديه معرفة بالقرآن. ولم يكن مستغرباً أن ييأس جلالته من إيجاد حلّ سلمي للمشكلة بينهما.

وفي سنة 1932م حُلَّت قضية نجران حلّاً مؤقتاً عندما طردَت قوّة سعودية، بقيادة خالد بن لؤي، اليمنيين من المنطقة وضمّتها رسمياً إلى ابن سعود. ورغم أن ذلك كان نكسة خطيرة لليمن فإنّه لم يُخضِع الإمام يحيى، بل ضاعف

جهوده للمطالبة بجنوب عسير وتدهورت العلاقات بين السعودية واليمن حتى سنة 1934م حين دخل الملك ذات مرّة الديوان وأخبر موظفيه بأنه رأى حلما الليلة البارحة. وقصّ عليهم ذلك بقوله:

"كنت في غرفة بيت قديم مهجور. وكانت الغرفة حالكة الظلام لا يُرى فيها بصيص من نور. وفجأة لاح لي في زاوية من زوايا الغرفة شبح على شكل أفعى تتلوّى وتتلمّظ وتحفّز للانقضاض. ثم انكشف فكّاها عن نابين كأنهما خنجران يقطران سُمّاً. فانتابني ذُعر بأنّهما سيلدغاني في أية لحظة ويفرغان سُمّهُما في دمي. فهجمت على الأفعى كلمح البرق وأمسكت بها من عنقها، وضغطت بأصابعي عليه بشدّة حتى تغلّبت عليها. وفي تلك اللحظة استيقظت وأدركت أن الخطر الذي كان قد أحدق بي مجرّد حلم. فحمدت الله على سلامتي".

وقد تأثّر كلّ من سمع الملك يقصّ ذلك الحلم تأثُّراً عميقاً. ونحن العرب نعتقد بأن الأحلام يمكن أن تنبئ بما سيأتي وكنّا جميعاً نعرف قوى جلالته العقلية. فلم يشُكّ أحد منّا في أن ذلك الحلم قد أبان بصيرته على تأمّل المستقبل. وكان النزاع مع اليمن، حينذاك، قضية الزمن الحاضر. وكان هناك قليل من الشكّ في أن الإمام يحيى كان الأفعى المخيفة في الحلم. وحين غادر الملك الديوان ليتأمل فيما ينطوي عليه حلمه كان هناك تكهّن قلق حول ما سيفعله فيما بعد. وكان هناك إجماع عام على أنه سيهاجم اليمن.

وفي اليوم التالي قرّر الملك فعلاً بأنه ليس لديه بديل عن اللجوء إلى القوة، وكانت خطوته الأولى أن دعا جمعاً صغيراً من رؤساء القبائل الموالية له. وكانت الضربات الموجهة أخيراً إلى الإخوان، وإن كانت ضرورية لأمن المملكة، قد جعلته في حاجة ماسّة إلى محاربين مدرَّبين يعتمد عليهم. وكانت البطون الرئيسة من عتيبة ومطير في حالة ذلّة بعد الهزائم التي لحقت بها. ولذلك كانت القبيلتان ممثلتين ببطونها الثانوية. وكانت هذه قد ظلّت موالية للملك، لكنها كانت أقل عدداً من البطون الأخرى، ولم تكن لها شهرة مثل شهرتها من الناحية الحربية. على أن رجال القبائل كانوا يتفجّرون حماسة للمعركة القادمة. وكان يمثل

عتيبة الروقة. وقد وقف رئيسها، عمر بن ربيعان، وصاح مخاطباً الملك بقوله: "يا عبد العزيز إن كنت تريد اليمن فاسمح لي بقيادة الهجوم. وتستطيع أن تبقى في مكة المكرمة أو الرياض وسآتي بها إليك". لكن ابن سعود رفض عرضه في تولّي قيادة الجيش لأنه كان، بدون شك، يفكر فيما حدث بعد الاستيلاء على الحجاز حين طمع كل من الدويش وابن بجاد في حكمها لما قاما به من دور في السيطرة عليها. وكانت إجابته لابن ربيعان مختصرة واضحة، إذ قال: "لن تتحرك قبيلتك خطوة واحدة دون أمر منّي. وإني عيّنت ولديّ سعوداً وفيصلاً لقيادة جيوشنا. وستذهب أنت معهما". على أن الملك قَبِلَ جُزءاً من نصيحة ابن ربيعان حيث قرّر أن يبقى في مكة المكرمة ويعطي أوامره إلى قوّاته من هناك بواسطة اللاسلكي. وقد جاء ذلك القرار مفاجِئاً لنا إلى حدٍّ ما لأنّ الملك، كان، عادَةً يقود جنوده شخصياً في الغزوات الكبرى. وحينما أعدت النظر في الموضوع اتّضح لي أنّه كان لدى جلالته سبب معقول جداً لاتّخاذ قراره السابق. فمن المُحتَمل أنّه لم يكن يرغب في ضمّ اليمن. بل كان يريد مجرّد إخضاع الإمام يحيى وتلقينه درساً لا ينساه. وكان يدرك أنه لا بُدّ من التوقّف قبل احتلال اليمن كلّها للتّوصل إلى حلّ سِلمي. وكان يرى أنّه من الأيسر عليه أن يُبدِي شهامة وهو بعيد عن ميدان القتال أكثر ممّا لو كان مشاركاً، شخصياً، في القتال وربما كان. أيضاً، غير مطمئن على الحجاز التي لم يمضِ على دخولها في حُكمِهِ أكثر من ثمان سنوات. ولم يكن أهلها كلّهم راضين بحُكمِه. وكان من المُحتَمل أن ينتهزوا فرصة غيابه مع جيشه ليثوروا ضِدّه. وانتهى المؤتمر. وذهب رجال القبائل، كما أُمِروا، ليأخذوا مواقعهم قُرب حدود اليمن وينتظروا أوامر جديدة قبل أن يقوموا بهجومهم. وكانت كلمات الملك الوداعية لرجاله هي ما كان يردّده دائماً قبل كل معركة: إيّاك نعبُدُ وإيّاك نستعين".

وفي محاولة أخيرة للسِلم بعث الملك إنذاراً نهائياً إلى الإمام يحيى واضعاً شروطاً معتدلة لتسوية خلافات الحدود المعلّقة ومهدّداً بالحرب إذا لم تُقبَل تلك الشروط. لكنّ الإمام تجاهل الإنذار. وفي الخامس من أبريل سنة 1934م عبَرت القوات السعودية حدود اليمن. وكانت الخطّة أن يشنّ الأمير سعود

هجوماً من نجران على المنطقة الجبلية من شمال شرقيّ اليمن بينما يقوم الأمير فيصل في الوقت نفسه بالهجوم من الغرب عبر تهامة على الشريط الساحلي الموازي لشواطئ البحر الأحمر. وكان تقدُّم الأمير سعود بطيئاً منذ البداية. ولم يكن له أبداً أن يدّعي بأنّه قائد بارع. على أن المَهَمّة التي أُسنِدَت إليه كانت عسيرة. وكانت المشكلة العظيمة هناك طبيعة البلاد الوَعِرة التي كانت كثيراً ما استدعت رفع وسائل النقل وإنزالها بالحبال فوق المُنحدَرات الشديدة. وكان الأمير أحمد، وليّ عهد اليمن، قائد القوّات اليمنية في تلك المنطقة. وقد جعل مركز قيادته في مدينة صعدة الواقعة على رأس جبل منيع. فلم تكن أبداً عُرضة لخطر استيلاء السعوديين عليها. وكان وليّ العهد، لسبب معقول، يسمَّى أبا جنّيّة. فقد كانت تستبدّ به موجات غضب جامح، وكان جنوده وخدمه يخافونه أشدّ الخوف. ويُروَى أنّه اعتاد أن يحتفظ بأفعى في سلّة بجانبه. ولم تكن هذه الأفعى خطرة لأن أنيابها السامّة قد خُلِعَت. لكنّ ذلك الأمر لم يكن يعرفه سوى الأمير. وكانت تُرمى فجأة على عُنُق أي زائر يضايقه.

ورغم هذه الظواهر الساديّة الشاذة، أو ربما بسببها، كان الأمير قائداً ناجحاً. وكان تحت إمرتِه جانب كبير من الجيش اليمني، فقادَهُ بمَهارة. وظلّت قُوّاتُه، على العموم، مُرابطة في مواقع حصينة في الجبال. وكُلّما قامت القوّات السعودية بهجوم ضدّها قاومَتها مقاومة عنيفة. وإذا تَعِبَ السعوديون شنّت القوات اليمنية عليهم هجوماً مُضَادّاً وأجبرَتهم على التراجع نحو السهل. وقد وصلت القُوّات اليمنية على معسكر الأمير سعود ونهبَته وقَضَت على ذخيرته ومُؤنَه وأحرَقت خيامه قبل أن تنسَحِب إلى قلعَتِها الجبلية. ونتيجة لهذه الهزيمة حاول الأمير سعود عمل خطّة جديدة فبَعث قوّات تحت قيادة ابنيّ عمه فيصل بن سعد وفهد بن سعد وأمَرَهُما أن يتّجِها جنوباً ويُهاجِما السُفوح الشرقية للمنطقة الجبلية من عِدّة نقاط. لكنّ هذا الهُجوم فشِل فَشَلاً ذريعاً. وكان السعوديون أينما ذهبوا يضطرّون إلى تَسَلُّق حافات جبلية أشدّ وُعُورة من تلك السفوح الشمالية. وكان اليمنيون يصدُّون الهجوم دون أيّة صُعوبة.

ولم يكن من المُمكن وصف الحملة كلّها على المنطقة الشمالية الشرقية إلّا بأنّها فشل ذريع. لكنّها، على أيّة حال، خدَمت غرَضاً واضحاً، وهي أنّها أبقَت جانباً كبيراً من الجيش اليمني مُرابِطاً في الجبال. وذلك ما أعطى للأمير فيصل حُريّة نسبِيّة في التّحَرُك غرباً. وكانت حملة فيصل، على عكس حملة أخيه سعود، نجاحاً باهراً. ذلك أنّه انطلق من جازان وعبَر الحدود اليمنية مكتسحاً ساحل تهامة حتى واجَه فِرقَة كبيرة من قوّات العدو المُرابطة في مدينة حَرَض. واستطاع اليمنيّون أن يوقِفوا تقدّمه فترة من الزمن. لكنّه في نهاية الأمر خاض معهم معركة شاملة فهَزَمَهُم وانسَحَبَت فُلُولُهم بعد أن تكبّدوا خسائر كبيرة في الأرواح والعتاد. ومن سوء الحظّ أن القائد السعودي، حمد الشويعر، قُتِلَ في تلك المعركة. لكنّ النصر مَنَح السعوديين ما كانوا يحتاجون إليه من معنويات. ولم يواجه الأمير فيصل بعد معركة حَرَض أيّة مقاومة حقيقية، فاستطاع أن يتقدّم بسرعة عظيمة بمحاذاة البحر صوب الحُدَيدَة الميناء الرئيس لليمن. وكان يتغلّب على الجيوب القليلة العدد في طريقه دون صعوبة. وكانت بعض القوّات اليمنية تتّخذ مواقع لها فوق التلال الواقعة شرق خطّ تقدّم السعوديين. لكن فيصل لم يحاول الهجوم عليها، كما أنها لم تجرُؤ على مهاجمته في السهول.

وبينما كانت القوات السعودية تتقدّم إلى الجنوب دون مقاومة تُذكَر وصلَت أنباء إلى الأمير فيصل بأنّ الإمام يحيى استنجدَ بقُوى أجنبية عديدة لتساعده، وأن الإيطاليين قرّروا مساعدته وبعثوا قوّات عبر البحر الأحمر إلى الحُدَيدَة. وكان غَرَضُها، فيما يبدو، الاستيلاء على هذه المدينة ومنع السعوديين من دخولها. ولم يكُن الأمير فيصل لِيَدَع ذلك يحدُث. وكان ردّ فعله سريعاً ومستَلهمَا من التدريب الذي تلقّاه على يديّ والده. فأرسل فوراً طلائعه أمامه إلى الحُدَيدَة، وأمَرَ جيشه أن يتقدّم إليها بأقصى سرعة. ولأنّه انطلق بخطوات أسرع من بقيّة قوّاته وصل إلى ضواحي تلك المدينة مع مائة من رجاله حيث التقى بطلائعه عائدين منها. وقد أخبروه بأن اليمنيين انسحبوا منها، وأن عدداً من السفن الحربية الإيطالية على وشك إنزال قوّات لاحتلالها. ولِقلّة من كانوا معه أمام القوّات الإيطالية حثّه رفاقه على التراجع لكنّه لم يخسر سباقه مع الزمن، وكان

مُصَمِّمَاً على أن لا ينهزم في اللحظة الأخيرة. فأمَرَ رجاله أن يتقدّموا فوراً إلى الميناء ويطلقوا نيرانهم على الإيطاليين قبل أن تُتَاح لهم فرصة النزول إلى البَرّ. وكان أن فعلوا ذلك. واعتقد الإيطاليون بأن السعوديين كانوا فعلاً يسيطرون على الميناء فانسحبوا بسرعة إلى مكان مأمون. وسُرِّ الأمير بهذه النتيجة، وأشار إلى السُفُن المُتراجِعة قائلاً لمن حوله: "انظروا. ربما لم أكن مجنوناً كما ظننتم حين أمرت رجالي بإطلاق النار عليهم".

وكان سُقوط الحُدَيدَة، رغم محاولة التدخّل الأجنبي، ضربة قاصمة للإمام يحيى. وازدادت حاله سوءاً بسبب خطأ في اتصالات السعوديين. فقد أرسل الإيطاليون بعد انسحابهم من الحُدَيدَة برقيّة إلى إيطاليا بشفرة مورس. وكانت البرقية لسبب من الأسباب قد صِيغَت بالفرنسية، ومفادها أن الميناء في أيدي السعوديين وأن الإمام يحيى قرّر سحب قوّاته إلى عاصمته صنعاء. وكان ذلك صحيحاً. لكن مأمور اللاسلكي الذي التقط البرقية في جدّة فَهِمَ الكلمة الفرنسية decide بمعنى قرر على أنّها decede بمعنى مات. وكان هذا خطأ من السهل الوقوع فيه عند قراءة شفرة مورس. فاستنتج أن الإمام يحيى مات وهو ينسحب بقواته إلى صنعاء. وكانت تلك هي البرقية التي أُعطِيَت للصُحُف، وظهرَت في عناوينها في كل أرجاء العالم العربي.

وبدا انتشار قصّة موت الإمام المغلوطة كانت النهاية في مقاومته فجنح للسلم. ووافق ابن سعود على الهُدنَة. وظلّت قوّاته تُسيطِر على المناطق التي استولَت عليها والمفاوضات بين ممثّلي البلدين تجري في الطائف. وقد حثّت بعض الدول العربية الملك على أن يكون كريماً ويدع اليمن تحتفظ باستقلالها ضمن الحدود القائمة. وكان جلالته سعيداً بالموافقة على تسوية الخِلاف وِفق هذه الأُسس. وانسحبت القوّات السعودية بعد أن رضِيَ الإمام بدفع غرامة حربية مقدارها مائة ألف جنيه إسترليني إلى ابن سعود تعويضاً له على نفقات الحَملَة. ثم وُقِّعَت أخيراً معاهدة سلام بين الطرفين في مكة المكرمة. وأُنشِئَت لجنة حدود مشتركة استطاعت أن تتّفق على تعيين الحُدود دون متاعب. ومع أنّ ابن سعود كان قادراً على أن يُطِيح بالإمام يحيى ويستولي على اليمن بالقوّة دون

صعوبة فإنّه لم يفعل ذلك، واكتفى بهزيمة حاكم تلك البلاد والتأكُّد من أنّه لن يستطيع بعد ذلك أن يُشكِّل تهديداً له. وهكذا تحقّق حُلم الملك كما رآه. ذلك أنّه لم يحلم بأنّه قتَل الأفعى، بل ضغط عليها بقبضة حديدية حتى أخضَعها.

وقد أثارت حرب اليمن حادثة درامية بعد سنة من تاريخ وقوعها. فبينما كان الملك يطوف بالكعبة وحوله الآلاف من الحجاج داهَمَه شابّان يمنيّان متعصِّبان بخِنجَرَيهما. لكنّ الله أنقَذَه بشجاعة ابنه سعود وردّ فعله السريع حيث جعل نفسه أمام أبيه ليجنّبه الطعنات. ومن حُسن حظّ وليّ العهد أنه لم يُصَب إلا بِجُرح بسيط في كَتِفِه. وأطلقَ حرَس الملك الشخصيوّن النار فوراً على أحد اليمنيين فأردُوه قتيلاً. لكنّ الآخر استطاع أن يهرب من خلال الزحام. وهكذا أُطلِقَت آخر رصاصة في حرب اليمن. وبفضل من الله لم يُصَب الملك بأي أذى بل إن الحادثة كان لها جانبها الإيجابي إذ كانت علامة لبداية فترة من التصالح بين اليمن والسعودية. ولم يتضِّح أبداً مَن الذي كان وراء محاولة الاغتيال. ذلك أن الإمام يحيى أنكرَ فوراً أن يكون له أي ضلع فيها. وكان في الحقيقة أوّل من بعث إلى الملك رسالة يستهجن فيها تلك المحاولة ويعبّر عن بهجته وارتياحه لسلامة جلالته.





الفَصلُ العَاشِر

دِيوانُ المَلِك

قَالَ تَعَالَى:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩﴾

سورة العنكبوت (59-58)



في شهر مايو سنة 1926م (1344هـ) وصلتُ إلى جدّة لأبدأ خدمتي لدى ابن سعود. ورُبّما كان من حُسنِ حَظّي أنّهُ كانَ موجُوداً في الحِجاز حينَ بدأتُ العملَ لَديه لأنّ الحياة هناك، وإن كانت غير هيّنَة بأيّةِ حال، لم تكُن بمِثلِ قَساوَتِها في نَجد. ومِن هُنا تهيّأ لي وقتٌ أُكَيّفُ خِلالَه نفسي للانتقال من الحياةِ المُتْرَفة نِسبِياً، والتي كُنتُ أحياها في كلّ من بومبي والبَصْرَة، إلى الحياة الجافّة في الجزيرة العربية.

وبعدَ يومٍ من وصولي إلى جدّة أتَت سيّارات تحملني وتحمل آخرين معي كانوا يرغبون في مقابلة الملك إلى مكة المكرمة. وحين وصلتُ إليها أُسكِنتُ في بيت ضيافة خاصّ بجلالته. وكان وصولي إليها صباحاً، فطُلِبَ مِنّي أن أنتظر في مقرّي حتّى صلاة الظهر. وحينئذٍ أخذَني إلى الملك السكرتير الثاني لوزارة الخارجية، فؤاد حمزة، الذي كان يتحدّث الإنجليزية بطلاقة. وكان عبد العزيز بن سعود قد أصبح حينذاك أسطورة في حياته الخاصة. ولن أنسى أبداً لقائي الأول به. لقد تأثرت فوراً بهيئته الجُسمانية كما تأثرتُ بالهَالة التي تتّسم بها شخصيته من حيث القوّة العظيمة والذكاء والحكمة. وقد سألني جلالته بلطف عِدّة أسئلة عنّي وعن أُسرتي. ثُمّ طلب من فؤاد حمزة أن يسألني بعض الأسئلة باللغة الإنجليزية. وبعد أن أجبتُ عنها أخبَرَه بأنّ لغتي الإنجليزية تبدو مَرضِيّة. فدعاني جلالته للانضمام إلى الشُعبَة الخارجية في الديوان. وقد يبدو ذلك الامتحان أقلّ ممّا ينبغي بالنسبة للالتحاق بالخدمة المدنية. لكنّي كنتُ أشعرُ وأنا أغادر مجلس الملك بأنّه قد درس قابليّاتي دراسة دقيقة. والواقع أنني كنت متأكداً من ذلك الأمر لأني بعد أن أمضيتُ معه بعض الوقت علِمتُ أن إحدى مهاراته

العديدة القدرة على وزن الناس وزناً سريعاً مضبوطاً. وبعد أن ثبّت الملك تعييني قُمنا وذهبنا جميعاً إلى المسجد حيث صلّينا جنباً إلى جنب. وكانت تلك اللحظة من أعظم اللحظات التي لا تُنسَى في حياتي.

وخلال أيامي الأولى في مكة المكرمة بقيتُ في بيت الضيافة. وقد أكرَمني رئيس الديوان. إبراهيم بن معمّر، ودعاني إلى بيته في مناسبات عديدة. ثم استُؤجر لي بيت خاص قريب من القصر الملكي، وبدأت عملي في الديوان مباشرة. وكان مكتبي في بهو الديوان. وهناك كُنّا نعمل من الفجر إلى الظُهر، ثم نترك العمل وقتاً طويلاً للصلاة والغداء. وكُنّا نتغدّى في صالة طعام جلالته الذي كان يتغذى معنا أحياناً. وكُنّا نعود بعد صلاة العصر إلى مكاتبنا ونعمل حتى وقت العشاء الذي كان يُقدَّم بعد صلاة المغرب. وإذا تعشّينا ارتحنا قليلاً ثُمّ عُدنا إلى العمل حتى مُنتَصف الليل. وكان عملنا اليومي طويلاً؛ إذ يستغرق حوالي أربع عشرة ساعة، ولكنّه كان عملاً مُمتعاً وغير مُرهِق. وكُنّا نعمل كُلّ أيام الأسبوع. ولم تكُن لنا إجازات، عادة، إلّا أيام الأعياد الدينية التي كُنّا غالباً ما نعمل فيها على أيّة حال.

وحين قدِمَ الملك أول مرّة إلى مكة المكرمة عيّن ابنه فيصل نائباً له في الحجاز. وتماشياً مع المكانة الرفيعة لهذا المنصب منَحهُ بيت حكومة الأشراف ليُصبِح بيتاً له. واتّخذ لديوانه بيتاً خاصاً كبيراً كان لموظف في تلك الحكومة يُسمّى السَقّا. وكانت أسرة السقّاف قد كوّنت لنفسها ثروة طائلة نتيجة قيامها بأعمال قاولتها عليها الحكومة البريطانية في سنغافورة. وقد أُنفِقَت معظم هذه الثروة في إنشاء أبنية بديعة في مكة المكرمة وجدّة. وقد وضع الملك يده على عدد من هذه الأبنية لاستعماله الخاص، ولكنّه دفع تعويضات كبيرة عنها إلى أُسرة السقّاف. وبذلك ضَمِنَ، كعادته، أنها لن تخسر شيئاً من جرّاء تصرُّفه.

وكان الملك في الحجاز يتنقَّل بين مكة المكرمة وجدّة والطائف. وخلال السنوات الأولى من حُكمِه لِتلكَ المنطقة لم يكُن له محلّ إقامة معيّن في جدّة. وكثيراً ما كان يسكن في بيت الشيخ محمد نصيف المُريح ذي الطوابق الأربعة.

وكان الشيخ محمد، الذي أصبح مستشاراً وصديقاً للملك، عالماً جليلاً ورجلاً من أبرز أهالي جدة، كما كان مُثقّفاً وصاحب مكتبة ممتازة. وكان له دور في إقناع الشريف حسين بالتنازل عن المُلك لابنه علي، كما كان له دور في إقناع علي بترك جدّة المحاصَرة وتسليمها لابن سعود. وكان إذا أتى الملك ليقيم في بيته سكن هو وأسرته وخدَمِه في الطابق الأعلى من البيت وترَك الطوابق الثلاثة لجلالته. ورغم التغييرات الكبيرة التي حدَثت في جدّة فإنّ البيت، بمكتَبَته، لا يزال موجوداً حتّى الآن.

وإذا لم يسكن الملك في بيت الشيخ محمد نصيف فإنّه كان ينزل بناية الحامية التركية القديمة، التي لا تزال أيضاً موجودة، حتى الوقت الحاضر. ثم بدأ يسكن في بيت فخم ذي طابق واحد يُسمّى الكندرة. وكان من البيوت المشهورة التي بنَتها أسرة السقّاف. ويقع في محلّ فندق الكندرة كونتيننتال. ولم يُبْنَ قصر خاص للملك في جدّة إلا في منتصف الثلاثينات من هذا القرن. ولم يَبنِه جلالته، وإنما بَناه تاجر نجدي ثري من سُكّان تلك المدينة وأهداه إليه. وقد أصبح يُعرَف باسم القصر الأخضر لأنّ مادّة بنائه كانت خضراء إلى حدّ ما. وكان المَلِك ولُوعاً بجده. ولا زلت أذكرُ رُؤيَتَه مرة أو مرّتين في لحظة نادرة من لحظات الانفراد والطمأنينة وهو جالس في قاعة أحد أماكن إقامته يتأمّل ألوان البحر الأحمر المتغيّرة دائماً تحت أشعّة شمس الأصيل.

أمّا في الطائف فقد اتّخذ الملك قصراً كبيراً يُسمّى شبرا. وكان هذا القصر للشريف عبد الله باشا. وكان نُسخة من بِناية في مصر قد خَلَبَت لُبّه. ويقال إنه جَلَب آلاف الأطنان من المَرَمر والمواد اللازمة لبنائه قطعةً قطعة من مصر ليطمئن بأنّه سيكون صورة مطابقة لبناية شبرا الأصلية.

وهكذا كانت أماكن إقامة الملك في الحجاز. ولم يتسنّ لي وقت كاف خلال السنة الأولى من عملي لأُقدِّر جمالها. ذلك أنّي بعد أن عملت حوالي شهر في الحجاز عاد الملك ومعه رجال ديوانه إلى الرياض. وكان الاختلاف بين المكانين كبيراً وحادّاً. لقد كان يفِد إلى مكة المكرمة حجاج من كل أطراف المعمورة جالبين

معهم أفكاراً أجنبية ونقوداً أجنبية وكل أنواع المختَرَعات الحديثة. ونتيجة لذلك كانت هذه المدينة أكثر مُدُن الملَكة عالَمِيةً وتَقَدُّمَاً، كما كانت أكثرها تمتُّعاً بالأمور الدنيوية. لكن الرياض كانت معزولة في وسط الصحراء لا يزورها الأجانب إلا نادراً. وكان اتّصالها بالعالم الخارجي قليلاً، كما أن وسائل الراحة لم تكُن متيسّرة فيها. وكانت أصغر من مكة المكرمة وأقلّ تعقيداً، لكنّ الحياة فيها كانت صعبة. وربما كان ذلك سبب في كونها عاصمة ملائمة لمَلِك يتبَع دعوة ابن عبد الوهاب. ذلك أنّه لم تكُن توجد فيها الرذائل التي تنتشر عادَةً مع ازدهار الحياة الاقتصادية. وكانت حماسة الملك الدينية الصافية منسجمة مع العقيدة التي كان يعتنقها شعبُه. وأذكر أنني دُعِيت إلى أحد البيوت الكبيرة بمناسبة عيد رمضان، وحين دخلت إلى القهوة رأيت أن أرضها مفروشة بحصباء فوقها حصير من القصب، وعند نهايتها قربة مُعلّقة يُشرَب منها الماء. وقد لاح لي حينذاك أن هذه الحالة كانت بالتأكيد هي الحالة التي كانت موجودة زمن النبي صلى الله عليه وسلم.

وكان قصر الملك أكبر بِناية في الرياض. وكانت مِساحَتُه حوالَي ثمانية آلاف متر مُربع. وكان، كغيره من بيوت المُدن مبنيّاً من اللِبن والطين. ورُغم أنّه قد هُدِّم منذ زمن. فإنّ المرء يستطيع أن يرى الآن قلعة الرياض القديمة، التي قد حُوفِظَ عليها بِعناية، وهي شبيهَة بالقَصر القديم من حيث التصميم والمَظهر العام. وكان القصر ذا طابقين وأربعة أجنحة تمتَدّ من وسَطِه إلى الجِهات الأربع وكان كلّ جَناح مُكوّناً من غُرَف واسعة وقاعات ودرج وباحات. وكان الجناح الشمالي أوسَعها. وكان في الطابق الأرضي منه مخازن مملوءة بالأطعمة المختلفة، خاصّة الرز والتّمر، اللازمة لتموين المِلك وجيشه وكان عند نهايته مطبخ كبير يتِمّ فيه إعداد الطعام لمن في القصر ولجماهير الزائرين من البدو. وكانت فيه قُدور يبلُغ عُلُوّ كلّ واحدة منها بين ثمانية وعشرة أقدام وتتّسع لطبخ بَعِير كامل. وكان الطبّاخون يعُدُّون كل يوم الوجبات التقليدية من الرز المسلوق واللّحم لِما لا يقِلّ عن مائة ضيف بدَوي. وكان هؤلاء يتناولون الطعام المُقَدّم إليهم في دكّة واسعة فوق المطبخ مباشرة.

أما الجناحين الجنوبي والشرقي من القصر فكان فيهما مكاتب ومستلزمات الشؤون الداخلية للخاصّة المَلَكيّة وإدارة الجيش ومساكن لخمسين أو ستِّين زِنجياً كانوا خَدَماً وحُرّاساً للقصر. وكان في داخل القصر وخارجه دِكاك عديدة من الطِّين يجلس عليها طِيلة النهار جمهور غفير من رجال القبائل الزائرين وغيرهم مِمّن لهم حاجة عند الملك أو ديوانه. وكان كل عمل الديوان يتمّ في الطابق الأول من الجناح الشمالي، الذي كانت فيه غُرفة بلاط جلالته ومجلسه الخاص والعام وغُرفة للهيئة السياسيّة مكاتب أصغر حجماً لموظّفي الديوان. وكان أحد هذه المكاتب مُخصّصاً لعَمَلي. وكان هناك رُواق يؤدّي إلى مسجد القصر الواقع في الجناح الغربي. وكان فوقه قاعة يُصلّي فيها المَلِك وحدَه. وكان في الجناح الغربي، أيضاً، غُرف المِلك الخاصّة وأماكن للنساء العاملات في بيته وغالبيتهن من أفريقيا. وكان بعضهُنّ خادمات في القصر، وبعضُهُنّ زوجات للذُّكُور من الخَدَم. وكان من واجباتِهنَّ غسلُ الملابس وحملُ المبَاخِر لتبخِير ثياب الملك. وكان بعضُهنّ مسؤولات عن تشكيلات الملابس العديدة التي كان يرتديها في أوقات مختلفة. وكان جلالته يُحِبّ أن يُغيِّر ملابسه عِدّة مرّات في اليوم كُلّما خفّ عليه ضغط أعمال الدولة. وكان يرتدي، عادة، عَبَاءة بُنِيّة في الصباح ورماديّة في الظهيرة وسوداء في الليل. لكنّه كان يرتدي الملابس البيضاء في يوم الجمعة الذي هو يوم مُقدّس لدى المسلمين.

وكانت أعظم معالِم القصر أبراجُه الأربعة، التي لم يكن الغَرَض منها دِفاعياً إلّا بِصُورة جُزئيّة. وكان كل واحد منها مَقَرّاً لزوجة من زوجات الملك. والواقع أن ثلاثة منها فقط كانت مشغولة في وقت واحد. أما الرابع فكان دائماً شاغراً للزّوجة الجديدة إذا ما رغب الملك أن يتزوج. وكان كلّما تزوج رابعة طلّق إحدى الثلاث الأُخريات ليظلّ عددهن ثَلاثاً. وكان يقضي ليلة مع كل واحدة منهنّ طِبقاً لأوامر الشرع بوجوب العدل بين الزوجات.

وحينما جئت إلى الرياض أوّل مرّة لم يكن القصر يحتوي على أكثر من التسهيلات البدائية التي لا بُدّ أن تكون في قصرٍ للحُكم قبل مائتي سنة أو أكثر. فلم يكن فيه ماء جار، ولا مجارٍ متقدمة، ولا كهرباء. وقد كادت إحدى وسائل

الترَف القليلة فيه أن تُسبّب موت الملك الذي أخفق كل أعدائه في القضاء عليه. فقد كان في غرف الملك الخاصة حمّام في داخله غلاّية (سمور) يُسَخّن ماؤها بالفَحم. وذات يوم لم يظهر دخان الفحم بطريقة سليمة؛ فغشي جلالته وكاد أن يموت لولا أن أدركت خادمة سريعة التفكير عدم وجود صوت في الحمام فدقّت جرس الإنذار فوراً.

ثم بدأت وسائل الراحة الحديثة تأتي تدريجياً من الحجاز إلى الرياض رغم معارضة الإخوان. وحين استولى الملك على الحجاز سنة 1926م كانت الطاقة الكهربائية هناك استثناء لا قاعدة. فقد تبرّع حُجّاج أثرياء من الهند والشرق الأقصى بمحطّات صغيرة لتوليد الكهرباء لإنارة الأماكن المقدسة وبعض البِنايات البارزة. وكانت هناك نُدرة مُزمِنة في قطع الغيار والمهندسين المَهَرَة لصيانة المولّدات الكهربائية. ولذلك كانت الكهرباء دائماً متقطّعة لا يُعتَمَد عليها. وفي سنة 1928م تقريباً كان لدى مسلم من بورما بُعْد نَظَر جعَلَه لا يتبرّع بالمولِّدات فحسب بل أرسَل مُهندِساً هندياً، اسمه محمد رفيق، لتشغيلها وصيانتها. وكان رفيق مهندساً قديراً جداً، فأصبَحَت المولِّدات بإشرافه تعمل بأفضل ما يُمكن من كفاءة. وقد أُعجِب الملك بعمَله فرأى أن الوقت قد حان ليكُون في الرياض تسهيلات مماثلة. وأرسَلَه من الحجاز سنة 1930م ليشتري مولّدات وآلات جديدة ويبعثها إلى الرياض لإنارة القصر الملكي. فاشترى ثلاث مكائن وأرسلها بالشاحنات إلى الرياض حيث وصلت إليها سليمة بأعجوبة. ثم قدم رفيق وبعض مساعديه بعد ذلك بقليل. وحين عاد جلالته إلى الرياض كان القصر يموج بالعمل. إذ كان رفيق ورجاله يحومون فيه كعناكب مجنونة يمدّون شبكة الأسلاك في كل أرجائه. وكان رفيق لا يتكلّم العربية. ولأني كنت أتكلم الأردية بطلاقة فقد كان يطلب مني أحياناً أن أترجم له في المواقف الحرِجة التي كانت تنجم خلال مدّهِ للأسلاك حول الغُرَف الخاصّة في القصر.

وقد أُفرِغَت حُجرة واسعة في الطابق الأرضي ليضع فيها رفيق مولّداته. وجاء اليوم العظيم الذي صارت فيه الكهرباء جاهزة للعمل. وكان الجميع ينتظرون اللحظة الباهرة بشوق. لكنها لم تحدث. وعندما حلّ الظلام أتى إليّ أحد خُدّام الملك وقال لي أن جلالته يريد أن يراني في غُرفة مكائن رفيق. فذهبت

فوراً إلى هناك ووجَدتُ المسكين رفيقاً يحاول إصلاح المكائن والمِلك بشخصيته العظيمة، واقف عنده ينتظر بدء إنارتها بفارغ الصبر. وقد حاول رفيق عدّة مرّات تشغيل المكائن، ولكنّها في كُلّ مرّة تُعطي ضوءاً قليلاً ثم لا تلبَث أن تُحدِث صوتاً مزعجاً وتنطفئ. وكانت مَهمّتي أن أُترجِم أوامر الملك لرفيق بأن يُضاعِف جُهوده ليجعل المكائن تبدأ بالإنارة وتأكيدات رفيق المتكررة بأن كل شيء سيكون على ما يرام في بضع دقائق.

ولم يتمكّن المسكين رفيق أبداً من تشغيل مكائنه. فغادر الرياض بأسرع ما يستطيع وذيله بين ساقيه مدّعياً بأنه سيُحضِر قطعة غيَار من جدّة. ومرّت بقيّة السنة دون أن يعود. وحينئذ علمنا أنه أقنع ابن سليمان، وزير المالية، بأن يسمح له بالذهاب إلى مِصر ليشتري مكينة جديدة. وأخيراً عاد رفيق إلى الرياض سنة 1931م ومعه تلك المكينة الجديدة الغالية. ولُحسن حظّه استطاع دون مَشَقّة أن يُشَغّل الكهرباء، وأصبح القصر يزدان بأنوارها. أمّا الزُوّار من البدو الذين لم يروا هذه العجائب من قبل فكانوا كثيراً ما يسألون الملك عن ماهيّة الكهرباء وكيف تعمل. وكان يجيبهم إجابة من لا يريد مزيداً من المناقشة بقوله: "لا شيء. مجرد مكينة وأسلاك".

وكان الملك نفسه هو الذي نظّم الديوان بالطريقة المُريحة التي سار عليها. وكان شعبتين، إحداهما تهتمّ بالشؤون الخارجية والثانية تُعنَى بالأمور الداخلية. وكانت هناك وزارة خارجية منفصلة عن الديوان ومكتملة النموّ. وكانت شعبة الشؤون الخارجية في الديوان مكوّنة من رئيس الديوان ورئيس المترجمين - وكنت حينذاك أحتل هذا المنصب - ومحرّر للرسائل وطابع على الآلة الكاتبة. وحينما توفي الملك سنة 1953م (1370هـ) لم تكن هذه الشعبة أكثر من ذلك. أما الشعبة التي كانت تُعنَى بالأمور الداخلية فكان لها رئيس وخمسة أو ستة كُتّاب. وكانوا قد وزعوا العمل بين ما هو خاصّ بحاضرة وسط الجزيرة العربية وما هو خاص بالقبائل البدوية. وكان هناك، أيضاً، بعض كتّاب صغار وموظف مسؤول عن دراسة العرائض المُرسَلة إلى الملك وتلخيصها. ومهما كانت لدينا من عيوب بصفتنا جهاز خدمة مدنيّة فإن البيروقراطية المفرطة لم تكن من بينها.

وحين التحقتُ بخدمة الملك لم يكن بين موظفيّ الديوان من يتسلّم راتباً منتظماً. كان جلالته يدفع لنا ما يراه بنفس الأسلوب الذي كان يدفع به لجنوده من البادية، وهو منحنا هدايا دورية من النقود والملابس وعند نهاية كل سنة كنا نستلم هدية إضافية من النقود. وبالإضافة إلى ذلك كانت أُسَر موظفي الديوان تُكسَى على نفقة الملك. ولم يكن ذلك الأسلوب مُتّبعاً في الحجاز لأن الموظفين هناك كانوا يستلمون رواتب منتظمة كما كانت عليه الحال زمن حكم الأشراف لها. ومع أن هدايا الملك كانت كريمة دائماً فإن أسلوب دفع رواتبنا قد جعل عمل ميزانية مصاريفنا من الأمور التي تحتاج إلى دِقّة فنّية. وذات يوم تقدّمتُ أنا وبعض زملائي في الديوان إلى الملك ورجوناه أن يدفع لنا رواتب منتظمة بدلاً من الهدايا والمنح، فوافَق على ذلك. وحُلّت هذه القضية بارتياح الجميع.

وعند وصولي إلى الرياض أُسكِنتُ غُرفة واسعة في القصر مع موظفين آخرين. وكان هذا الوضع غير مريح حتى وفقَ مقاييس الرياض. فذكرت ذلك للملك، وأمر باستئجار بيوت لنا في المدينة. فسكن كل متزوج بيتاً خاصاً، واشترك كل اثنين أو ثلاثة من غير المتزوجين في بيت واحد. ولم يمضِ وقت طويل حتى حدث ما جعلني أندم على انتقالي من القصر. فذات ليلة غادرت القصر مع بقيّة موظفي الديوان إلى بيوتنا. وكان الملك قد أمر أحد خُدّامِه بأن يُبَلّغَنا أن نُنهي رسائل معيّنة. لكن ذلك الخادم لسبب من الأسباب لم يتمكن من إبلاغنا أمر جلالته قبل مغادرتنا القصر. ومن هنا أرسل إلينا أحد الفتيان ليبحث عنّا. فوجدنا بعد أن ابتعدنا عن القصر. وكان معنا رئيس الديوان الذي رأى وجوب عودتنا. ولم يكن ذلك أمراً سهلاً كما قد يبدو. ذلك أنّه كان لا يزال يوجد للملك أعداء كثيرون. وكانت هنالك تهديدات مستمرّة بالغدر والاغتيال. ومع أنّ أعداء الملك كانوا موالين له في الظاهر فقد كانوا لا يزالون مصدراً محتملاً للتمرُّد. ولم يكن جلالته يريد أن يعاني مصيراً مثل المصير الذي سبّبه هو لعجلان. ولذا كانت هناك حراسة مشدّدة على القصر ليلاً من قبل جنود الملك الزنوج الذين لم يكونوا يتساهلون مع الزوّار غير المتوقعين. وعدنا بحذر شديد إلى بوابة جانبية للقصر كنا ندخل منها عادة، لكن أحد الحراس منعنا من الدخول. وقد أوقف السيف الذي شهَرَهُ بوجُوهِنا أيّ مناقشة معه. ولذلك ذهبنا إلى البوابة الرئيسية. وهناك

كانت لنا مناقشة طويلة مع حارسها الذي رفض، أيضاً، أن يدَعَنا ندخل. وفي أثناء ذلك كان الملك مع إحدى زوجاته في البرج فرأى عدداً من الناس متجمهرين عند مدخل القصر. ولاعتقاده بأن هناك مؤامرة وأن أعداءه يحاولون الدخول عُنوة التقط بندقيته وصوّبها إلينا. ولو أنّه أطلق النار علينا لكان من السهل عليه بالتأكيد أن يصيب عدداً منا لأنه كان بارعاً في الرماية ولأنّ بندقيته كانت ممتازة. لكن من حسن حظّنا أنه قبل أن يضغط على زنادها سمع أصوات أحذيتنا ذات المسامير على الأرض الصخرية، وأدرك أن المتآمرين لا يمكن أن يُحدِثُوا مثل تلك الضجة. فأرسل إلينا خادماً ليعرف ماذا جرى. وحين علم جلالته بالأمر أخبرنا فوراً بأن نترك الرسائل حتى الصباح. وفي اليوم التالي قال لنا مازحاً أنه كاد يطلق علينا النار. وظلّت تلك الحادثة إحدى القصص المأثورة لديه عدة سنوات.

وكان الملك يبدأ عمله اليومي في القصر حوالي الساعة الثامنة صباحاً حيث يُقدّم له رئيس التشريفات، إبراهيم ابن جميعة، أسماء الذين يوَدّون مقابلته ذلك اليوم. وكان على كل من يرغب أن يرى جلالته أن يُرَتِّب ذلك مع إبراهيم، ولكنّ الملك كان من الناحية الواقعية يرى تقريباً كل إنسان يودّ مقابلته. وكان جلالته يبدأ بمقابلة من لدَيهم أمور مُهمّة في مجلس خاص حيث يُقدِّمُون له واحداً بعدَ آخر طَبَقاً لأسبقيتهم ومكانتهم. فإذا أخَذَ عدد هؤلاء في التناقص بدأ بتصريف الرسائل اليومية. وكان من المألوف أن تراه يتحدث إلى أحد زعماء البادية وهو يُملي رسالتين في وقت واحد. وبعد ذلك يُعقَد مجلسه العام الذي يستطيع أن يحضره كل إنسان. وكان يضمّ، عادة، ما بين ثمانين وثلاثين ومائة رجل. وكان جلالته يبدأه بتلاوة آية من القرآن وتفسير لها. ثم يتحدّث عن موضوع ذي أهمية وطنية، ويطلب من الحاضرين أن يناقشوه فيما يودّون مناقشته. وكان الأمر يتم بطريقة أشبه ما تكون بالمؤتمر الصحفي إلا أنّها أقلّ رسمية. وكان للملِك قُدرة فذّة في فهم النقاط المُهمّة في أيّة قضية يُسأل عنها، كما كان قادراً دائماً على أن يُعطِي إجابة فورية كاملة بعبارات موجَزة مُختارة. وبهذه الطريقة كان كلّ إنسان يغادر مجلسه وهو مرتاح لأنه قد نال من جلالته اهتماماً شخصياً. ونادراً ما كان المجلس العام يدوم أطول من أربعين دقيقة، لكن كمّية العمل التي تُنجَز فيه كانت مدهشة.

وكان ابن جميعة، بعد انتهاء المجلس العام، يُحضِر إلى الملك قائمة بأسماء من حضروه فيكتب جلالته مقابل اسم كل واحد منهم عطاءه. ولم يحدث أنّ أحداً من هؤلاء ذهب صفر اليدَين. والواقع أن كمّية المواد الممنوحة كانت من الكثرة بحيث أن توزيعها كان يُنظَّم عن طريق المستودع المركزي في وسط مدينة الرياض. وغالباً ما كان في تلك العطايا شيء أكثر من مُجرّد الكَرَم. فقد كان من العادة أن يأتي جميع البدو الذين حاربوا مع الملك إلى مجلسه العام مرة كل سنة، وإذا احتاجوا إلى سكن ليلة مجيئهم إلى الرياض هُيِء لهم ذلك مجاناً. أمّا الهدايا التي كانوا يتلقونها فقد كانت في الواقع لقاء ما قاموا به من خدمة. وكان معدّل ما يُعطَى لكل بدَوي ثلاثة جنيهات ذهب وثوب و"غترة". وإذا كان من مشائخ البدو الصغار أُعطِي ستّة جنيهات وثوباً من النوع الممتاز. وكان جميع البَدو لا يتركون جلالته إلا وقد مُنِحوا أكياساً من الرّز وسِلالاً من التمر وشيئاً من السُكّر والشاي والقهوة. وكان كلّ من أدّى خدمة خاصة للملك أو برَز في معركة من معاركه يُعطَى هدايا إضافية تعبيراً عن امتنان جلالته. وكانت هذه الهِبات الممنوحة لرجال القبائل مصدراً مُهمّاً من مصادر دخلِهم السنوي. وكانت لذلك عاملاً كبيراً في ضمان ولائهم للملك.

وكان أفراد جيش ابن سعود القويّ، عادةً، يُموّنُون أنفسهم حين يذهبون إلى معركة أو يقومون بّأية غزوة. وان هذا الوضع ينطبق على الجنود المُقرّبين من الملك أيضاً. ولم يكن جلالته يحمل إلا تمويناً إضافياً تحَسُّباً للظروف الاستثنائية. ذلك أنّه كان يمُدّ جنوده من البدو طيلة العام بالأطعمة كالتمر والرُزّ والطَحين، إضافة إلى ما كان يعطيه إياهم حين يفِدُون إليه. ومن هنا فإنّه كان يستطيع عند الحاجة أن يجمع بسرعة قوّة كبيرة دون أن يُكلّف نفسه مصاريف إضافية.

وكان يطيب لقليل من البَدو أن يعودوا إلى الديوان مرّة أخرى خلال العام ليحصلوا على هداياه. لكن الكبرياء والحصافة تحُولان دون وفادتهم مرة ثالثة. ومع أن جلالته كان يدرك ذلك فإنّه لم يدَع أبداً إنساناً يغادره دون هدية. فقد كان بطبيعته أكرم رجل حتى لمن لم يكن يستحق كَرَمه. وكان يُعتَبَر من خدش كرامته أن يغادر إنسان قصره صفر اليدين. ومع أن هذا الإجراء قد يبدو مماثلاً

لبطاقة وجبة طعام مجانية لكل مواطن في المملكة فقد كان هناك فهم واضح غير مكتوب بين رعايا الملك بأن لا يذهب الرجل إلى قصره إلا إذا كانت له بجلالته حاجة معيّنة أو إذا كانت الزيارة تقليدية كالزيارة السنوية للبدو. أما أهل الرياض - مثلاً - فإنهم لم يكونوا يأتون أبداً إلى القصر إلا لسبب خاص.

ولم تكُن حركة الهدايا دائماً في اتّجاه واحد. فقد كان زُوّار الملك يُهدُون إليه أحياناً هدايا مختلفة. حسب رُتَبِهم وثرواتهم. كانوا يُهدُون إليه خيلاً وإبلاً وأغناماً، كما كانوا يُهدُون إليه أحياناً صُقوراً لأنّ حُبَّهُ للصَيد كان مشهوراً لدى الجميع. وقد تكون هذه الهدايا متواضعة أحياناً. إذ لا زلتُ اذكر أن بدَويّاً فقيراً أتى إلى مجلس جلالته حاملاً هراوة فرفَعَها فوق رأسه وصاح: "يا محفوظ. ما عندي ما أُقدِّمه غير هذه". فسَألَه الملك أن يقترب منه، ومدَحَهُ بِبِضع كلمات وقَبِلَ هديّته. وكانت تصل إليه في المناسبات رُزَم من أصدقائه الأجانب والمعجبين به وأولئك الذين يبحثون عن الحظوة لديه. وذات مرّة وصلت إلى جّدة دون توقُّع شُحنة من الزيت بعَثَتها إليه الحُكومة السوفييتية. وكان للرُوس قُنصُل تجاري في جدّة منذ عهد الأشراف. وكانوا يأملون بنوع من السذاجة أن يُقنِعوا الملك في إنشاء علاقات دبلوماسية معهم. وكان جلالته سعيداً بتَسَلُّمِه الزيت، لكنّه رفَضَ أن يتعامل بأي شكل من الأشكال مع الحكومة السوفييتية. وكانت هناك هدايا أخرى ذات طبيعة شخصية مثل تلك الرُزمَة الصغيرة التي بعثها إليه طبيب ألماني يبدو من المؤكد أنّه قد أُعطِيَ معلومات غير صحيحة عن الاحتياجات الطبّية لجلالته. فقد كانت تحتوي على عُلبة صغيرة من حبوب تقوية الباءة.

وكانت فترة عمل الملك الصباحية تنتهي، عادة، بنهاية مجلسه العام. ثم يتناول غدَاءه ويستريح لدى أهله حتى أذان الظهر. وبعد الصلاة يجتمع بالشُعبة السياسية التي كانت وظيفتها إبداء المشورة لجلالته دون أن تكون لها أي سلطة تنفيذية. وكان بعض أعضائها رجالاً أقوياء ومُهمّين. وسيأتي مزيد من الكلام عنهم في الفصل التالي. وكان من الضروري أحياناً أن احضر جلسات الشعبة لأُترجِم ما يحتاج إلى ترجمة. وبذلك كنت أستطيع أن ألاحظ بنفسي الطريقة التي كانت تعمل بها تلك الشعبة. كان الملك يطرح الموضوع الذي يودّ أن يستشير الأعضاء

فيه، فيناقش مناقشة عامّة يُبدِي خلالها كل عضو رأيه الحقيقي بحريّة ويقدّم ما يراه من اقتراحات. ثم يُنهي الملك المناقشة حين يظُن أنّه قد نال ما يستحق من نقاش ويتَخِذ قراره الخاص تجاهه. ولم يكن أحد من أفراد الشعبة أبداً يفكر في اقتراح موضوع للمناقشة بمبادرته الشخصية؛ إذ أنّ ذلك كان خاصّاً بالمِلك وحده.

وبعد أن يُنهِي الملك اجتماعاته بمستشاريه يقوم هو وعدد قليل من حاشِيَته بجولة على السيّارة في ضواحي المدينة حتّى قُرب غروب الشمس. وكان جلالته يُحِبّ التجوّل في السيّارة. وكانت لذلك فائدته، إذ يتيح لشعبه أن يراه يومياً. وكان أحياناً يذهب مسافة قصيرة في الصحراء حيث يؤدّي صلاة المغرب قبل أن يعود إلى القصر لتناول العشاء. وكان أحد الأمكنة الأثيرة لديه في الصحراء تلاًّ - اسمه أبو مخزوق - ذا سمة مميزة، إذ يوجد في أعلاه قوس طبيعي متكوّن من الصخر ذاته. ومع نمو الرياض في السنوات الأخيرة أصبح هذا التلّ ضمن المدينة. ولأهميتهِ لدى الملك حوفِظَ عليه بعناية وجُعِلَ تذكاراً وطنياً.

وكان الملك يجلس بعد صلاة العشاء جلسة غير رسمية مفتوحة لكل الوجهاء وكبار الموظفين والزوّار البارزين. وتبدأ الجلسة، عادة، بقراءة إمام جلالته الخاص، عبد الرحمن القويز، جزءاً من السيرة النبوية لمدّة نصف ساعة. ثم يفتح المجال لمن يريد أن يطرح موضوعاً للمناقشة. وكان الجوّ السائد في جلسة المساء دائماً أكثر اتِّساماً بالانبساط والراحة من جوّ مجلس العمل الصباحي. وبعد فراغ الإمام من قراءته كان يُؤتَى عادة بإناء كبير مملوء بحليب النُوق فيشرَب منه الملك، ثم يناوله إلى ضيوفه فيشربون منه واحداً بعد الآخر. وحين يغادر هؤلاء الضيوف يقوم جلالته بجولة في الديوان حتى ينتهي غالباً عند الشُعبة السياسية حيث ينتظره مستشاروه لمناقشة بعض الأمور المهمّة. وقبل أن يذهب إلى غرفته الخاصة يقوم بزيارة أخيرة لمكتب ديوانه، ليرى إن كان هناك ما يتطلّب عنايته الشخصية. وكان مستعداً دائماً للاستماع إلى أيّة مشكلة لدينا مهما كانت صغيرة، وإبداء النصح والتوجيه. وكان عندنا دائماً من المراسلات الغريبة ما يتطلب عنايته الخاصة. فقد كان من عادة بعض الأجانب أن يكتبوا إليه طالبين إرشادُه في الأمور الدينية. وأذكر ترجمتي لكتاب ورَدَ إليه من أمريكيّ في شيكاغو

قائلاً إنه لا يعرف شيئاً عن الإسلام ويرجو من الملك أن يفسّره له. وبتوجيه من جلالته كتبنا إليه جواباً ننصحه فيه أن يشتري ترجمة لمعاني القرآن الكريم. وكان هناك من يقترحون اقتراحات تجارية غريبة لينالوا من ورائها رعاية جلالته. وكان من هذه الرسائل ما يتعلّق بالحيوانات التي تُذبَح في مِنى خلال موسم الحجّ. فهناك من كان يريد شراء لحومها، ومن كان يودّ شراء عظامها، ومن يرغب في شراء جلودها. وكانت هذه الطلَبات تُرفَض دائماً لأن جلالته لم يكن يرغب في تحويل الحجّ إلى سوق تجارية. ولم يكن هناك نُقص في مقترحات من يريدون أن يُحسِّنُوا المواصلات في المملكة. وقد أتى أحد هذه المقترحات الغريبة جداً من رجل أراد أن يشتري سِكّة حديد كاملة بعَرَباتها، ويشحنها من الهند إلى الحِجاز لتُشَيِّد بين جدّة ومكة المكرمة. وكانت هذه نماذج قليلة من المشكلات التي قد نتباحث مع الملك بشأنها خلال ساعات الليل.

واستَمّر روتين ديوان الملك كما هو سواء كان جلالته في مكة المكرمة أم في الرياض. ولم يكُن عمل المرء في خدمة الملك بأية حال عملاً مُستقراً في المدينة دائماً. ذلك أن من سِمات الديوان الفريدة أن كل أفراده تقريباً كانوا يسيرون مع الملك أينما سار. ولم نكن نصحبه في ذهابه إلى الحجّ وعودته منه فقط، بل نُرافقه في كُلّ حمَلاته العسكرية وجولاتِه السياسية. وكان هذا شبيهاً إلى حدٍّ ما بوضع ملوك أوروبا في القرون الوسطى الذين كان رجال بلاطهم يصحبونهم في كل رحلاتهم. وكان عدد من يسافرون مع الملك من رجال الديوان الملكي حوالي اثني عشر كاتباً وستّة خُدّام. وكنّا نأخذ معنا كل التجهيزات المادّية من طعام وسلاح، كما كنّا نأخذ معنا كل السِجِّلات والأضابير والمراسلات الموجودة في الديوان. وكانت هذه تُشحَن في صناديق كبيرة من الخَشَب وتُحمَل على ظُهور الإبِل، ثُمّ على السيارات في السنوات الأخيرة. عبر آلاف من الأميال تتّجه مع قافلة الملك أينما اتّجهَت. وكان مُحتّماً أن تزداد صعوبة ترتيب هذه الكمّية من الأوراق كل سنة حتى صار حجمها أكبر من أن يُستَطاع التّصَرُّف به. ونتيجة لذلك أصبَحت الأضابير الأساسية فقط هي التي تُحمَل معنا. أمّا بقية الأوراق فتبقى في الرياض.

وكان يسافر مع جلالة الملك ثلاثة موظفين وثلاثة خُدّام من قسم رئيس التشريفات في الديوان، كما يسافر معه ثلاثة من خدَمِه الخاصّين ليعتنوا بملابسهِ ومتطلّباته الشخصية. وبالإضافة على هؤلاء كان يسافر معه اثنان أو ثلاثة من الطبّاخين الذين كان يساعدهم، عادةً، عدد من الجنود. وكان جلالته يأخذ معه حرَسه الخاص الذين كان عددهم يبلغ خمسين أو ستّين رجلاً من أُسَر الرياض المشهورة بولائها له. وكان يأخذ معه جماعة مسلّحة مُكوّنة من ثلاثين أو أربعين رجُلاً من حرَسِه السُود الموثوق بهم. وإلى جانب هؤلاء وأولئك كان يرافقه جنود آخرون. وبالإجمال كانت حاشية الملِك تشتَمِل على ما يقرُب من مائتي رجل مُسَلّح. وكان جلالَته لا يصطَحِب معه أيّة امرأة في حملاته العسكرية. ولكنه كان يأخذ معه إلى الحجّ بعض زوجاته وبناته وخدَمِهن. وحين التحقت به سنة 1926م كان قد بدأ يستخدم السيارات بكَثرَة. وكانت هناك خمس عشرة أو عشرون سيّارة تحمل الملك ورجال ديوانه وبعض حرَسِه الشخصيين. أمّا بقيّة من يسافروا معه فيتبعونه على ظُهور الإبِل. وكانت لديه سيّارة مرسيدس رائعة مصنوعة لاستعماله الخاص. أمّا السيّارات الأُخرى فكانت خليطاً من سيّارات فورد وشيفروليت وبويك وهدسون. وكانت هناك سيّارتا فورد مخصّصتان لموظفيّ الشُعبة الخارجية في الديوان. إحداهما لرئيس الديوان واثنين من موظفيها، والأخرى لي أنا وثلاثة من زملائي، وكان عدد السيارات يزداد كل سنة. وحين تركتُ العمل في الديوان سنة 1935م كانت الإبِل قد اختفت من قافلة أسفار الملك، وأصبَحت هذه القافلة تتكوّن مِمّا يربو على خمسين ومائتي سيارة. ولم تكُن هناك طريق مُعبَّدَة بين الرياض ومكة المكرّمة. بل لم تكن هناك طريق مُعبَّدة في أي مكان من المملكة. وكان السَفَر يتم بمساعدة الأدلّاء المحلّيين الذين يعرفون أحسن الطُرُق عبر مناطقهم. وكثيراً ما كانت السيّارة تُصاب بِعُطل في تلك الظروف الصعبة. فكُنّا نأخذ معنا حوالي عشرة من الهنود أو الإندونيسيين الذين يُجِيدون قيادة السيّارات وهندستها. وقد أصبح هؤلاء خُبراء في الإصلاح المؤقت لها.

وكان لا بُدّ من الحوادث أحياناً. ولا زلت أذكر حادثة وقعت أثناء عودتنا من الهفوف إلى الرياض. فحينما وصلت السيارة التي كنت فيها إلى قمّة أحد الكثبان الرملية أدركنا ما أرعَبَنا وهو وجود منحدر حادّ جداً أمامنا. وانزلقت السيارة فوق الحافة وهبطت إلى أسفل الكثيّب. ومن حسن حظنا كان انزلاقها فوق رمل ناعم فلم يُصَب أحد بأذى خطير. لكن ذلك كان نهاية الطريقة بالنسبة للسيارة، التي أعتقد أنها لا زالت موجودة هناك. وتبلُغ المسافة بين الرياض ومكة المكرمة حوالي خمسمائة ميل. وكنّا نقطعها في خمسة أو ستة أيام. وحين أصبح الجميع يسافرون بالسيّارات صرنا نقطعها في أربعة أيام. وأذكُر أن عدد النساء اللواتي كُنَّ مع القافلة الملَكية سنة 1926م كان حوالي خمس عشرة امرأة كلّهن في شاحنة كبيرة، وقد يبدو ذلك أمراً غير مُريح. لكنّه تطوُّر عظيم بالنسبة لسفَرِهنّ على ظهور الإبل. وعند بداية سنة 1935م كان لكل امرأة سيّارة.

وكنّا إذا توقفنا ليلة في الصحراء أُقِيمَت خيمة كبيرة للملك يستقبل فيها من كان يصاحبه من أسرته أو مستشاريه. وكانت تقام بالقرب منها خيمة صغيرة تستعمل لخَدِمِه الشخصيين، كما تُستعمَل مخزَناً للأطعمة التي يحتاج إلى طبخها. وكان كل إنسان ينام فوق الأرض في العراء على طريقة البدو. وكان الطبّاخون يُعِدُّون طعام الملك وحده. أما بقيّة من كانوا يسافرون معه فكان كل واحد منهم يحمل طعامه الخاص ويكمله باللحم وغيره مما يشتريه من البدو الموجودين في طريق القافلة. وكانت نيران المخيّم تلمع في الصحراء أثناء الليل بأحسن تقاليد هوليود الرومانتيكية. لكنّ ما كان أقل رومانتيكية منها لدغات حشرات الصحراء التي تجعل الحياة بالغة الصعوبة لأولئك الذين لم يعتادوا على النوم في الهواء الطلق.

ومن الجدير بالذكر أن الديوان المتنقِّل الذي كان أعضاؤه لا يتجاوزون ثلاثين رجُلاً كان قبل خمسين سنة فقط مسؤولاً عن الإدارة المركزية للمملكة العربية السعودية بكاملها. صحيح أنه كانت توجد دواوين صغيرة ثانوية تساعده في الحجاز، لكن الجهاز الإداري لبلادنا الكبيرة كان ضئيل الحجم. أما نجاحه العظيم فإنه عائد إلى صبر ومهارة جلالة الملك ابن سعود.





الفصل الحادي عشر

شخصيات

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ۝٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝٢٩﴾

سورة طه (27 - 28 - 29)



كانت أيّامي في ديوان الملك أسعد أيام حياتي. لقد تهيأت لي فرصة طيبة وحظّ عظيم فاستطعت أن أخدُم بلادي في وقت كانت تنهض فيه بسرعة من قرون كانت خلالها مجهولة مُهمَلَة لتأخذ مكانها بين الدول العظيمة في العالم. وكان كل زملائي في الديوان الملكي يشاركونني هذا الشعور لكونهم يلعبون دوراً، مهما كان صغيراً، في الإدارة الخطيرة للمملكة خلال فترة تاريخية من النموّ. وكنّا جميعاً متّحدين في تفانينا وولائنا الثابتَين للملك. وكان كل من التقى بجلالته، مهما كان لقاؤه به قصيراً، يدرك أنه في حضرة رجل فذّ وملك عظيم وهب فنّ القيادة. أمّا العمل معه والتّحدث إليه يومياً فكان مثل التنعّم بنور الشمس الدائم. وكان كل واحد منا مستعدّاً أن يتّبعه دون تردّد إلى أقاصي المعمورة. وكان ولاؤنا المشترك له يربط بيننا ويمنحنا معنويات عالية ورغبة في العمل الجماعي. فمن أجله كنّا نعمل مسرورين ساعات طويلة ونحتمل في السفر أوضاعاً لا يحتملها أي موظف يعمل من أجل المال فقط. ومع أنّ كل واحد في الديوان كان لديه عمله المحدّد ودرجته الخاصّة فإنه لم يكن هناك أبداً شعور بالتنظيم الصارم. فقد كُنّا كأسرة متّحدة تحت أبّ عطوف حكيم. وكان كل واحد منا على قدم المساواة مع زملائه في بذل ما يستطيع نحو المصلحة العامّة. وقد أصبح كثير من أصدقائي في الديوان في سنوات متأخرة رجالاً ذوي ثروات طائلة وأهمية كبيرة. وإني لأشعر أنهم يستحقون الإشارة إليهم في هذا الكتاب لما قاموا به من خدمات للملك حين كانوا يعملون معه.

كان رئيس الديوان الشيخ إبراهيم بن معمّر الذي كان أجداده أُمراء العينيّة قديماً. وكان والده قد ربّاه في الكويت، ثم ذهبا فيما بعد إلى الهند حيث أخذ يعمل فترة معيّنة في التجارة بين الهند والكويت. وقد قام بأسفار كثيرة في بلاد العرب وأوروبا، ثم استقرّ فترة في مصر. وهناك كتب عدداً من المقالات والرسائل حول ابن سعود ونجد في الصحف المصرية. وكانت معرفته بأحوال الجزيرة العربية عميقة. وكثيراً ما استطاع الردّ على الدعاية المُغرِضة أو الجاهلة التي كانت تُكتَب بين حين وآخر ضدّ نجد. وبعد استيلاء ابن سعود على الحجاز كان جلالته في حاجة إلى إداريين أكفّاء. وكان ابن معمّر اختياراً واضحاً. فأرسل إليه رسالة يسأله عما إذا كان مستعداً للمجيء إلى المملكة للعمل لديه. فوافق ابن معمّر بسرور، وعُيِّن، فوراً رئيساً للديوان، وهو عمل قام به خير قيام سنوات عديدة. وكان ابن معمّر رجلاً نشيطاً ذا إحساس بالمسؤولية قام بإدارة ديوان سعيد منتج. وكان متفانياً في ولائه للملك؛ إذ خدمه بإخلاص تامّ. ومن سوء الحظّ أنّه وقع خلاف بينه وبين أحد الأمراء قبل تركي العمل في الديوان بقليل فاستقال من منصبه. وكان الملك متردداً جداً حيال هذا الموضوع فأراد ألّا يخسره تماماً، وعيّنهُ سفيراً له في بغداد. وهناك استخدم إمكاناته كلّها لصالح كثير من النجديين الذين كانوا يعيشون في العراق ويعانون أحياناً أنواعاً من التفرُقة والإزعاج البيروقراطي. وكانت مجهوداته من أجلهم قد جعلَته في آخر المطاف شوكة في خاصرة الإدارة العراقية حتى طلب ملك العراق من ابن سعود أن يسحبه. وقد قام جلالته بذلك على مَضَض. لكن ابن معمّر لم يترك العراق إلا بعد أن ترك بصماته على صورة المستقبل الأفضل لمصير مواطنيه الذين كانوا يسكنون هناك.

وحالما بدأت أجهزة اللاسلكي والاتصالات الحديثة تُستَخدَم بانتظام في القصر أصبح ضرورياً أن يوظف أحد للإشراف عليها. وكان الرجل الذي اختِير لهذا المنصب صديقي القديم محمد الدغيثر. وكان محمد من أسرة بارزة في الرياض مشهورة بولائها لآل سعود. وكان قد درس فترة في الزبير حتى نال قسطاً من الثقافة. وكانت وظيفته في الديوان أن يخبر الملك فوراً بأية أخبار مهمّة سواء

كانت حسنة أم سيئة. أما الأخبار السيئة فكانت تحتاج إلى كل ما لدى محمد من لطف وحصافة لأن غضب الملك يمكن أن يكون مخيفاً. وأما الأخبار الحسنة فكانت كثيراً ما أوحت إلى جلالته بإظهار سخائه. وكان محمد هو الذي يتلقّى الكثير من الهدايا لأنّه يبشّر الملك بهذه الأخبار. وذات مرة، بعد أن بشّر الملك بسحق تمرّد صغير، منحه بضعة هكتارات من الأرض تقع خارج أسوار المدينة. وكانت الأرض حينذاك ذات قيمة طفيفة، لكن محمد تمسّك بها بحكمة. وهي الآن تُشكِّل جزءاً كبيراً من المركز التجاري في الرياض.

وحين التَحقَت بالديوان كان مساعد رئيسه عبد الله ابن عثمان الذي كان، أيضاً، من أسرة مشهورة في الرياض. وقد ربّاه والده في الكويت حيث حصل على درجة ممتازة من التعليم. وكان قد أتى هو ومحمد الدغيثر إلى الرياض بواسطة وكيل الملك في الكويت، الشيخ عبد الله النفيسي، قبل وصولي إلى الحجاز بشهور قليلة. وقد أصبح ابن عثمان رئيساً للديوان بعد استقالة بن معمّر من رئاسته.

وكان ابن سعود، كأيّ ملك آخر، يتلقّى سيلاً من استرحامات رعاياه. وكان أغلبها قد أُطنِبَ في كتابتها على أساس أنه كلما طال الاسترحام زادت فرص قبوله. وقد عيّن موظف يقرأ كل ما كتب ويختصره ليرى الملك فوراً ما الذي يُراد منه. وكان الرجل الذي اختِير لهذه المَهَمّة حمد ابن مضيّان الذي قام بمهمّته بكفاءة وصبر رغم ازدياد الأوراق التي تصِل إليه مع مرور الأيام.

وكان هناك كاتبان في الديوان ليست لهما واجبات محدّدة، لكنهما كانا يساعدان كل من كانت مساعدته ضرورية. وكان أحدهما محمد الشبيلي من عنيزة والآخر محمد بن ضاوي من حرمة. وكان الشبيلي مِمّن درس في الزبير، وممن تهيأت له فرص نجاح عظيم في فترة حياته. وقد أصبح قنصلاً في البصرة ثم سفيراً في العراق وباكستان والهند وأفغانستان وماليزيا على التوالي. أما ابن مضاوي فقد أثار إعجاب كل الناس، بوصفه شابّاً في غاية البراعة، حالما التحق بالديوان. وبعد أن اكتسب بعض الخبرة الإدارية كلّفه الملك برئاسة وفود حكومية عديدة إلى اليمن.

أمّا أنا فكنت رئيس المترجمين. وكنت مسؤولاً عن ترجمة كل الرسائل والوثائق من الإنجليزية والأردية إلى العربية. وكنت أترجم رسائل الملك إلى هاتين اللغتين لتُرسَل إلى الحكومات الأجنبية. وكنت أضطر أحياناً إلى محاولة الترجمة من لُغات أخرى لأن الديوان حاجة ماسّة إلى من يتقنون اللغات الأجنبية. وكان عبء العمل يزداد باستمرار. ولم يمضِ وقت طويل حتّى انضمّ إليّ أخي عبد العزيز وأصبح مساعداً لي، ثم التحق بنا ابن عمي عبد العزيز الزامل الجويسر وقد انتقل فيما بعد إلى الشعبة السياسية، ثم أصبح المترجم الشخصي للأمير فيصل في الحجاز. وكنت أنا وزملائي مع طابعي آلة كاتبة وقليل من الخَدَم، نُشكِّل القسم الأجنبي في ديوان ابن سعود كله. وقد تهيأ لنا، بطبيعة الحال، أن يعرف بعضنا بعضاً معرفة حميمة. وكان جوّ الأسرة في الديوان شيئاً لا يستطيع أن يتخيّله موظف مدني حديث يعمل في إدارة واسعة تسيطر عليها أجهزة الكمبيوتر.

وما دمت أتحدّث عن الأبطال الذين لا يشيد الناس بذكرهم والذين ساعدوا الملك في بناء مملكته فإني أشعر بأن من واجبي ان أشير إلى كثير من النجديين الذين مثّلوا بلادهم في الخارج. فقبل استيلاء الملك على الحجاز لم يكن له قناصل رسميّون أو ممثّلون دبلوماسيون في الدول الأجنبية. وكان التّجار النجديون المستقرّون في تلك الدول يعملون بصفتهم وكلاء له. وكانوا مشهورين في كل أرجاء الجزيرة العربية بالديانة والأخلاق الفاضلة. وكان جلالته يختار من هؤلاء من أمضوا فترة طويلة في مكان معيّن واشتهروا بالأمانة والصدق والنزاهة الأخلاقية. وكان من يختاره منهم لا يستلمون أجوراً على ما يقومون به من خدمات. لكنهم كانوا يكسبون بكونهم وكلاء للملك زيادة في مكانتهم الاجتماعية ومزايا في تعاملهم التجاري، ولعلّ نجاح هذا النظام كان عائداً إلى طبيعة الوشائج الموجودة في المجتمع النجدي. ذلك أن النجديين كلّهم كانوا يعتبرون أنفسهم جزءاً من أسرة كبيرة، ويظلّ بعضهم وفياً للبعض الآخر، خاصّة إذا كانوا خارج بلادهم. وكان من النجديين المشهورين الذين كانوا وكلاء للملك خارج بلادهم، الشيخ فوزان السابق في القاهرة، وعبد اللطيف باشا المنديل في بغداد والبصرة،

والشيخ عبد الله النفيسي في الكويت، والشيخ عبد الله الفوزان في بومبي، والشيخ ابن ليلى في دمشق، والشيخ عبد الرحمن القصبي في البحرين. وقد بذل هؤلاء الرجال جهداً عظيماً لصالح بلادهم في الخارج. ومن المؤسف أن كثيراً منهم لا يكادون يُذكَرون في الوقت الحاضر. وحين اتّسع نفوذ ابن سعود بدأ يؤسس خدمات قنصلية رسمية. وقد حلّت المؤسسات الجديدة شيئاً فشيئاً محلّ المُمثّلين السابقين. وكما هو الحال في مثل هذه الأمور كان جلالته في غاية اللطف والتقدير. كان يضع، عادة، كل سفير جديد تحت إشراف وكيله السابق حتى يأتي الوقت الذي يختار فيه ذلك الوكيل أن يتخلى عن مهمّته.

وقد عرفت، من خلال عملي، بعض الشيء عن غالبية الرجال البارزين الذين كانوا يحيطون بالملك، خاصة أولئك الذين كانوا يشكّلون الشعبة السياسية. وكان عدد أفراد هذه الشعبة يتغيّر من وقت إلى آخر، لكنّه كان، عادة، حوالي ثمانية رجال. ولم يكونوا كلهم من وسط الجزيرة العربية، بل كان بعضهم من أقطار الشرق الأوسط. فقد كان حافظ وهبة، المولود في مصر، مستشاراً مهماً وبارزاً. وكان يحضر كل اجتماعات الشعبة إلّا إذا كان غائباً في مهمّة رسمية. وقد أصبح وزيراً فوق العادة ثم سفيراً لجلالته في لندن. وكان الشيخ خالد الحكيم سورياً يتّصف بالحكمة. وكان مهندساً في سِكّة حديد الحجاز إبّان الحُكم التركي. وكان يوسف ياسين سورياً، أيضاً، وكان مسؤولاً عن تنظيم اجتماعات الشعبة السياسية. وكان الشيخ فؤاد حمزة لبنانياً. وكان السكرتير الأول لابن الملك وزير الخارجية، الأمير فيصل. وقد قضى فؤاد كثيراً من وقته في مكتب وزارة الخارجية في الحجاز حيث كان يوجد جميع السفراء الأجانب. وكان من مستشاري الملك الشيخ خالد الغرقني. وهو ليبي كان حاكماً لمدينة طرابلس في أثناء الاحتلال الإيطالي لبلاده. ولا بد أن يذكر المرء من بين مستشاري الملك الأجانب الشيخ عبد الله فيلبي، الذي كان دائماً يرحب به في اجتماعات الشعبة السياسية لكنه نادراً ما حضرها. ذلك أنّه كان يُفضِّل أن يكون مع جلالته في مجلسه الخاصّ والعام حيث يُمكِنُه، أحياناً، أن ينفرد به بعد انتهاء المجلس. وكان هناك عضو بارز في الشعبة، وهو أخو الملك، الأمير عبد الله بن عبد الرحمن، الذي كان يحضر اجتماعاتها ما أمكن والذي كانت آراؤه مقدّرة من قِبَل جلالته.

ولعلّ أهم مستشاري الملك ذلك الرجل الذي لم يكن يحضر اجتماعات الشعبة السياسية بسبب مشاغله الأخرى خارجها، وهو الشيخ عبد الله بن سليمان وزير المالية. وكان ابن سليمان من عنيزة. وقد غادر جزيرة العرب وهو صغير السِنّ إلى بومبي، التي كانت تقريباً المَمَر الوحيد المفتوح أمام الشُبّان العرب الذين يسعون إلى المغامرة والثروة. وقد عمل دون أن يتعلم تعليماً رسمياً في بيت الشيخ عبد الله الفوزان، الذي كان أحد وجهاء التّجار النجديين في تلك المدينة خلال أيامها المزدهرة بالتجارة العالمية. ولم ينسَ ابن سليمان أبداً سيّده الشيخ المحترم الذي كان متديّناً حصيف الرأي والذي علّمه الكثير من مهارات التاجر الناجح، ولأنه كان حريصاً على تجريب حظّه في التجارة غادر بومباي إلى البحرين حيث أنشأ له محلّاً تجارياً صغيراً. لكنه لم ينَل نجاحاً كبيراً فيه. ولم يلبث أن وجد نفسه يبحث عن وظيفة أكثر ضماناً.

وكان أخو ابن سليمان يشغل وظيفة مالية في القسم المعني بالأمور الداخلية في الديوان. وكان عمله كثيراً إلى حدّ ما، فسأل الملك أن يعيّن له مساعداً. وحين وافق على ذلك استدعى أخاه عبد الله ليعمل معه. ولأنه لم يكن لدى ابن سليمان أي شيء يُبشِّر بما هو أفضل وافق على استدعاء أخيه له وأتى ليساعده في عمله ثم بدأ يشُقّ طريقه وأبدى براعة فورية في الإدارة المالية. لكن تماشياً مع التقاليد المتُّبعة لم يبرز في ظِلّ وجود أخيه على رأس العمل. وحين تُوفِيَ أخوه حلّ محلّه في العمل. ولم يمضِ وقت طويل حتى أدرك ابن سعود قابليّات ذلك الشاب الدؤوب الذكي المقدام. ونما إعجاب الملك به شيئاً فشيئاً. وحين التحقت بالديوان كان مساعد الكاتب سابقاً قد عُيِّنَ وزيراً للمالية مسؤولاً مسؤولية كاملة عن خزينة الدولة.

وقد ظلّ ابن سليمان وزيراً للمالية طيلة حياة الملك. ونادراً ما استطاع رجل أن يترأس مثل ذلك التطوّر السريع في ثروات بلاده كما حدث في الجزء الأخير من تلك السنوات. حينما استولى ابن سعود على الرياض سنة 1902م كان من الصدق أن يقال أن خزينة الدولة كانت برمّتها في أخراجه المعلّقة على ظهور إبله. ولم تتحسّن الحالة المالية كثيراً طِيلة العشرين السنة التالية لذلك. وكان جلالته

دائماً في حاجة إلى المال. وحين استولى على الحجاز سنة 1926م سافر ابن سليمان معه ليُنَظِّم الجانب المالي من تسلُّم الحُكم هناك، فواجَه بيروقراطية ثابتة الجذور مختلفة تماماً عن الحالة الموجودة حينذاك في نجد. وتمكّن بما لديه من مواهب ودأب على العمل من دمج الإدارتين الماليتين في نجد والحجاز دون عناء كبير. ومنذ ذلك التاريخ أصبح مقرّ ابن سليمان الدائم في الحجاز في حين ظلّ ديوان الملك في الرياض. ومع أن وزير المالية نادراً ما تدَخّل في الشؤون الخارجية فقد كان ابن سليمان المسؤول الوحيد عن كل الشؤون الداخلية في المملكة.

وقد هيأ دخول الحجاز تحت حكم ابن سعود الفرصة لزيادة دخله بشكل كبير. وكان ابن سليمان يتولّى الواردات من الجمارك ودائرة البريد والضرائب التي كانت تؤخذ من الحُجّاج. وكانت هذه الضرائب تؤخذ من كل حاجّ كلّما سافر من منطقة في الحجاز إلى أخرى، خاصّة بين جدّة ومكة المكرمة والمدينة المنورة. وكانت تشكل نسبة عالية من دخل البلاد. لكن بالرغم من تلك الزيادة في الدخل ظل الملك يعاني صعوبات مالية مستمرة. على أن سليمان استطاع بطريقة ما أن يحتفظ بالقرش الأبيض لليوم الأسود. وكان عندما يعاني الصندوق من ضائقة مالية حقيقية يستطيع دائماً أن يلتفت إلى السوق التجارية ويجلب التُجّار. وكان من الخير لأثريائهم أن يكونوا خارج المدينة إذا كان الملك في حاجة مفاجِئة للمال. وحين كنت في الديوان في الرياض، قُبَيل معركة السبلة، كان جلالته في حاجة للمال لتمويل حملته العسكرية. فأرسل مساعد ابن سليمان في هذه المدينة، وهو شلهوب، ليرى ما يستطيع أن يجمعه من تُجّارِها. وكان شلهوب مع الملك منذ استيلائه على الرياض سنة 1902م. ومن سوء حظّه أنّ التُجّار سمعوا بأنه سيجتمع بهم فاختفوا. ونتيجة لذلك لم تنجح مهمّته بالقدر الذي كان يرجوه الملك. وقد ضحكنا جميعاً على شلهوب لفشله في جمع المال المطلوب، لكنّه أخذ الأمر مأخذاً حسناً وقال: ”أوه. ليست هذه المتاعب البسيطة شيئاً يُذكَر. فحين أتيت من المنفى في الكويت مع الملك كانت كل خزينة الدولة في محفظة نقودي“.

وكان ابن سليمان يمثّل أعظم تمثيل الرجل ذا المكانة الرفيعة الذي يفضّل دائماً أن يكون بعيداً عن الأضواء. ومع ذلك بلغت قوّته ونفوذه درجة عظيمة

جداً بحيث كنت كثيراً ما أفكر فيه على أنّه الملك غير المتوّج لجزيرة العرب. ورغم قوله بأنه لم يعمل أبداً أي شيء دون استشارة الملك فإنه في الحقيقة كثيراً ما نفّذ قراراته الخاصة من غير أن يحصل على إذن مَلَكي. ويجب أن لا يُفهَم ذلك على أساس أنّه كان غير مخلص لجلالته بأي شكل من الأشكال. بل على العكس من ذلك كان إخلاصه للملك إخلاصاً تاماً، وكان يعمل دون كلَل من أجل خير المملكة.

ومع ازدياد مكانة ابن سليمان وتعاظم أهميته أصبح له، بطبيعة الحال، بعض الأعداء. وحينما فُتِحَت الحجاز طلب الملك من جميع الموظفين في الحكومة الهاشمية السابقة أن يبقوا في وظائفهم. لكن كانت لا تزال هناك ثغرات في الهيكل البيروقراطي. فدَعا جلالته نجديين من كل الأقطار العربية الأكثر تقدماً، كمِصر والهلال الخصيب، ليأتوا إلى المملكة ويعملوا في الحجاز. وكان يأمل أن يبرهن هؤلاء الرجال على ولائهم له، ويكونوا ذوي آراء صائبة وبصائر نافذة نتيجة حياتهم في تلك الأقطار. وقد أثبت بعض الذين اختارهم جدارتهم، مثل إبراهيم بن معمّر رئيس الديوان. لكن البعض الآخر كانت تنقصهم المعرفة والقدرة، وقد وُضِعَ عدد منهم تحت إدارة ابن سليمان، ولم يمضِ وقت طويل حتى اتّضح أنهم غير مؤهلين للعمل وأنهم يتخبّطون فيه دون أن يفهموا ما ينبغي أن يقوموا به. وما أسرع ما لاحظ ابن سلميان عيوبهم. ولم يكن الرجل اذي يحتمل البُلَهاء مسروراً، فأخذ ينتقدهم دون هوادة. وأصبح النجديون بدورهم يغبطونه على ما كان له من قوّة دون أن يروه أفضل منهم. ولذلك تآمروا عليه وتعرّضوا لحياته الشخصية فكتبوا إلى الملك رسائل يشكون فيها منه ويوضحون فيها عيوبه الخاصة. وكان من الممكن أن يكون في ذلك خطر على ابن سليمان، لكن الملك أوضح ثقته بوزير مالّيته بجمع كل هذه الرسائل وإرسالها إليه مخولاً إيّاه أن يتّخذ أي إجراء يراه مناسباً تجاههم. ولم يكن من المستغرب أن ابن سلميان لم يُضِع وقتاً، فطرد هؤلاء الرجال من وظائفهم وأرسلهم إلى بلدانهم الأولى أو إلى أيّ مكان أرادوا الذهاب إليه. وأحلّ محلهم أناساً اختارهم بنفسه. ونتيجة لذلك تحسّنت الأوضاع الإدارية إلى درجة جعَلَت الملك يزيد من

مساندته لابن سليمان في أيّة خطط أراد إدخالها، وأعطاه حرية كاملة في اختيار موظفيه. ومنذ تلك اللحظة أصبح مركز ابن سليمان ونفوذه أمرين لا يمكن المساس بهما. وببقائه في نطاق الإدارة المالية أصبح في نهاية الأمر مسيطراً على كل المديريّات، وصار يُعيِّن الموظفين بموافقة الملك مما زاد في سلطته على درجة كبيرة. والحق أن ابن سليمان كان المؤسس الحقيقي للنّظام الوظيفي الحديث النشأة حينذاك وقد وضع بعمله حجر الأساس للوزارات الكاملة التكوين التي انبثقت من المديريّات القديمة.

ورغم أن ابن سليمان كان يتوق إلى السلطة فإنه لم يتوفر له وقت كامل لزخرفها. كان عَزُوفاً عن الظهور أمام الناس لأنه كان يعرف أن ذلك يمكن أن يكون حسناً لكن يمكن أن يكون سيئاً أيضاً. وقد أدرك أنه كلما عظمت مكانته العامة ازداد حسد أعدائه. على أن الشعبية لم تكن تهمه؛ فقد كان بطبيعته متحفظاً منعزلاً، ولم يقم بمحاولة كبيرة للحظوة بِحُبّ مرؤوسيه. بل إنه في الحقيقة كثيراً ما جعل نفسه مكروهاً لديهم. ورغم سرعته في نقد انعدام الكفاءة أو قِلّة المقدرة فقد كان كثيراً ما يرفض منح الترقية للذين يظهرون مقدِرَة خِشية تعريض مركزه للخطر. وكان يتردّد دائماً في تفويض المسؤولية إلى غيره. ونتيجة لذلك ثقُلَ العمل عليه إلى أقصى درجة. وفي قمّة مجده كان يعمل ثماني عشرة أو تسع عشرة ساعة في اليوم دون توقُّف عن العمل إلّا لنوم ضروري جداً.

وكان ابن سليمان رجلاً ذا دهاء لا حدود له. فكان دائماً يحمل أفكاراً جديدة لمساعدة الملك في مشكلاته المالية. من ذلك أنه حين ساءت الحالية المالية للدولة سنة 1935م وأصبحت لا تستطيع صرف مرتّبات موظفيها حلّ تلك المشكلة بعمل نظام يدفع بموجبه للموظفين المدنيين ثلث مرتباتهم نقداً، والثالث الثاني مؤناً. أما الثلث الباقي فيظل عند الدولة قرضاً إلزامياً. وقد استمر هذا النظام سنة أو سبعة شهور حتى توفّرت النقود لدى الدولة. وكان هناك إجراء أبسط من ذلك استعمله ابن سليمان، أيضاً، لتوفير النقود، وهو رفض دفعها. وكان ابن الملك، الأمير فيصل، حاكماً على الحجاز. وكثيراً ما كان يعطي رؤساء القبائل أوامر على المالية لتصرف لهم نقوداً أو مواد غذائية. لكن ابن

سليمان غالباً ما أغضبه بدفعه لهم مبالغ أقلّ مما أمر به الأمير. بل كان أحياناً لا يدفع لهم شيئاً على الإطلاق. غير أنّ الأمير لم يتّخذ أي إجراء ضدّه لإدراكه، بدون شك، أن الوزير كان يوفّر المال من أجل الدولة. لكنّ مشكلة أكثر صعوبة كانت تواجه ابن سليمان حينما يأتي إليه الأمراء من الأسرة الحاكمة ليصرف لهم نقوداً. فرغم أن هؤلاء يحملون أوامر من الملك إلى المالية فإنّ الوزير أحياناً لا يدفع المبالغ لهم إذا كانت الأموال قليلة في الخزينة. ومع أنّ الملك لم يكن يتغاضى علناً عن تصرُّف ابن سليمان في هذا المجال فإني واثق بأنه على اتفاق معه سرّاً. وكان أحياناً يتعرّض للتّهديد بالعنف الجسدي إذا لم يدفع ما أُمِرَ به. لكنّي واثق بأنّ الملك كان مسروراً بعناد ابن سليمان الصامد في مثل هذه الأمور. وعلى أيّة حال فإن هذا التشدُّد الاقتصادي قد يتجاوز حدوده. ففي أحد الأيام رفض أخو الوزير ومساعده، حمد بن سليمان، أن يدفع مبلغاً من المال إلى إحدى زوجات الملك رغم أمر جلالته بذلك. فغضب الملك وأرسل اثنين من خُدّامِه بسيّارة، وأمرهما أن يأخذوا حمداً إلى تلّ بعيد عن المدينة ويتركاه هناك دون ماء أو طعام. وظلّ هناك يومين قبل أن يستطيع أخوه الحصول على إذن من الملك بإعادته.

وكان ابن سليمان في قمّة سلطته أهمّ رجل في المملكة خارج الأسرة الحاكمة. وحين كنّا في الحجاز كانت هناك اجتماعات مثيرة ومؤتمرات كثيرة بين الملك ورؤساء القبائل وعلماء الدين في المنطقة. لكن العمل الحقيقي للدولة كان يتمّ حين يأتي ابن سليمان وحده بسجلّاته إلى غرفة الملك الخاصة بعد صلاة الفجر مباشرة.

ولم يحصل ابن سليمان أبداً على أي تدريب رسمي في مسك الدفاتر أو المحاسبة. وكان الأسلوب الذي استعمله في إدارة مالية الدولة كافياً وفعّالاً حين يكون هو على رأس العمل. لكنّه كان يربك الخبراء الماليين الأجانب الذين كانوا على صلة به. وكان مدركاً لهذه المشكلة، فحاول القيام بمجهودات أوليّة لتحديث النظام الحسابي، وطلب من خبير مالي هولندي مشورة عامة في هذا الموضوع. وقضى ذلك الخبير بضعة أسابيع يتقصّى المشكلة، وبدأ يعدّ تقريراً مطوّلاً يُضمّنه توصياته بإدخال الطرق الغربية الأصولية في الإدارة، ومن ذلك إدخال أسلوب

متقدم في التدوين المزدوج لمسك الدفاتر. لكنه كان كلما تقدم في عمله اتّضح له أن ابن سليمان لم يفهم طريقته أكثر مِمّا كان في مقدرته هو أن يفهم طريقة ابن سليمان. ومن هنا حزم أمتعته وغادر البلاد. وفي المرة الوحيدة التي طلب فيها ابن سليمان مشورتي - وكان ذلك مدهشاً لي - سألني عمّا إذا كنت أعرف أي نجدي له خبرة جيّدة بالفنون البنكية الحديثة. فأوصيته بابن عمي، عبد العزيز الزامل الجويسر، وطلب منه أن يأتي إليه، لكنّه اعتذر بأدب عن المجيء. وعلى أية حال، فقد التحق عبد العزيز بالديوان - كما ذُكِر سابقاً - حيث أصبحَت له مكانة مرموقة في مجال الترجمة.

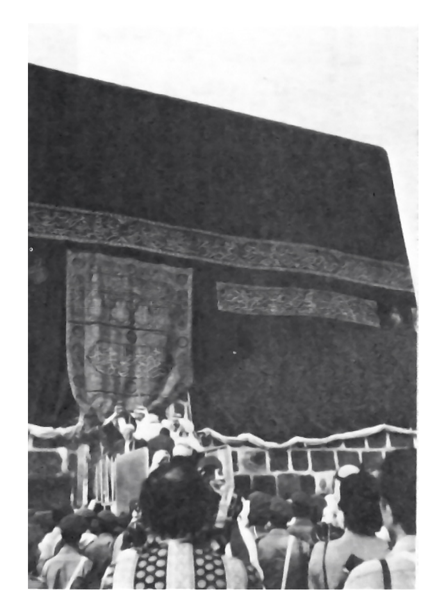
وقُرب نهاية حكم الملك، حين ازدادت ثروات البلاد بواردات الزيت، بدأ نظام ابن سليمان الحسابي يضعف أمام الضغوط الواقعة عليه. وكان الوزير حينذاك قد تقدمت به السنّ رغم أنه كان لا يزال صلب العود. فقام الأميران سعود وفيصل بزحزحته بلطف عن موقعه في السُلطة، وعيّنا رجالاً آخرين ليتولّوا بعض الوزارات والمديريات التي كان يسيطر عليها سابقاً. وبعد وفاة الملك بسنين قليلة، ونتيجة للتحقيق في شؤون شركة مبانٍ ألمانية كان لابن سليمان علاقة بها، أقنع وزير الماليّة بالاستقالة.

ولم أكن شخصياً أعرف ابن سليمان إلا معرفة بسيطة. ونادراً ما كنت ألتقي به لأنه كان ينفق معظم أوقاته في الحجاز التي كنّا نزورها مرة واحدة في السنة. وكنت كلما تحدثت إليه أحسست بأن طريقته كانت عدائية جافة. لكن هذا لا يمنعني من اعتباره واحداً من طليعة الشخصيات في التاريخ الحديث لبلادنا. ذلك أنّه هو الذي وضع الأسس لإدارتنا الحديثة، وكان جديراً كل الجدارة بالوصف الودّي. الذي كان الملك يطلقه عليه، وهو: "عصابة رأسي".



الشارع العام في مكة سنة 1920م وبين الجدار الخارجي للحرم إلى اليمين.

تصوير بوبر فوتو

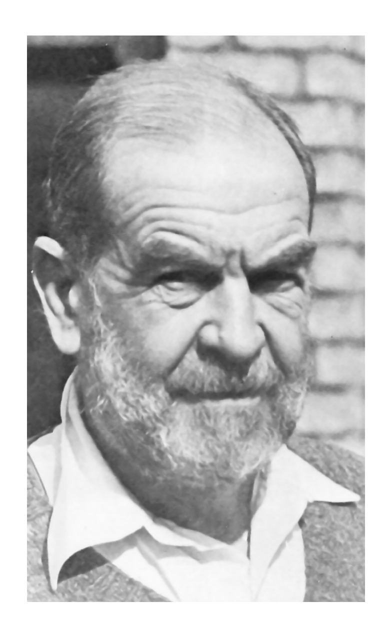


الاحتفال بغسل الكعبة قبل الحج
وكسوتها التي كانت تصنع في مصر وترسل
إلى مكة سنويا مع المحمل حتى سنة 1925م
حين وقع حادث المحمل والأخوان.

تصوير وكالة كيستون للصحافة



فلبي في نهاية رحلته عبر البلاد العربية سنة 1917م. تصوير الجمعية الجعرافية الملكية



فلبي سنة 1960م قبل وفاته بقليل



الشيخ عبدالله السليمان وزير المالية.

تصوير معهد الشرق الاوسط بواشنطن



الشيخ يوسف ياسين نائب وزير الخارجية ووزير الدولة، وكان رئيسا للجنة السياسية في الديوان.

تصوير وكالة الكاميرا للصحافة



الشيخ حافظ وهبه كبير مستشاري الملك سفير المملكة العربية السعودية في لندن بعد ذلك مع الأمير فيصل أثناء اجتماع الجمعية العمومية للأمم المتحدة عام 1946م.

تصوير وكالة كيستون للصحافة



الأمير فيصل نائب الملك في الحجاز ووزير الخارجية.

تصوير وكالة الكاميرا للصحافة



الأمير سعود ولي العهد والابن الثاني للملك بن سعود.

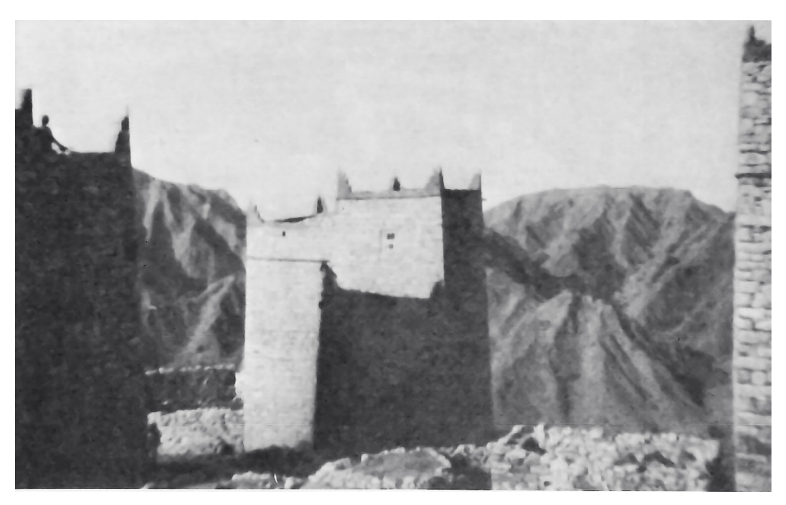
تصوير وكالة كيستون للصحافة



إمام اليمن أحمد بن يحيى.



قصر السلطان في شبام بحضرموت. تصوير بوبر قوتو



قصر الامام يحيى في صنعاء سنة 1930م. تصوير الجمعية الجغرافية الملكية



الميجور فرنك هولمز - الذي مثل الشركة العامة الشرقية ونال امتياز زيت الاحساء سنة 1923م.

تصوير شركة الزيت البريطانية



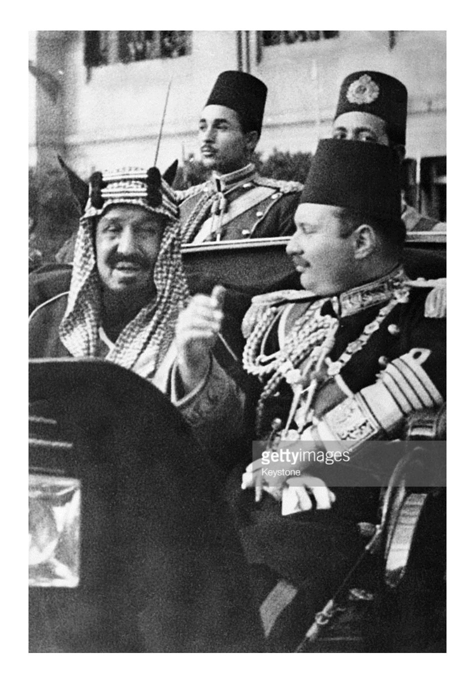
الوليمة التي أقيمت في مايو 1939م بمناسبة الاحتفال بشحن أول ناقلة زيت سنة 1939م ويظهر على يمين الملك المستر ل.ن. هاميلتون، وعلى يساره ف.و. اوهليقر وكلاهما من أرامكو.

تصوير أرامكو



صاحب الجلالة الملك ابن سعود يشترك في العرضة الحربية النجدية في الرياض.

تصوير بوبر فوتو



ابن سعود في زيارته الرسمية لمصر سنة 1945 ويظهر فيها معه الملك فاروق عند خروجهما من محطة القاهرة للسير في شوارعها.

تصوير وكالة كيستون للصحافة



الملك ابن سعود والرئيس روزفلت خلال اجتماعهما في مصر سنة 1945م.

تصوير بوبر فوتو



أمان الله ملك افغانستان الذي نحى عن الحكم سنة 1928م، وأزال الاستقبال الحار الذي لقيه من الملك عبدالعزيز بن سعود الاشاعة التي لحقت به من أنه صار مسيحيا.

تصوير بوبر فوتو





الفصل الثاني عشر

سانت جون فيلبي

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ٥٦﴾

سورة القصص (56)



لا يُعتَبر أي كتاب عن ابن سعود - خاصة إذا كان بالإنجليزية - كاملاً ما لم يأتِ على ذكر هاري سانت جون فيلبي؛ ذلك الإنجليزي الغريب الذي أصبح رحّالة ومستعرباً ومصمم خرائط بارزاً. ربما كان الغربي الوحيد؛ باستثناء الكابتن شكسبير، الذي أقام علاقة صداقة حقيقية مع الملك. وقد ولد في سيلان عام 1885م. وفي سنة 1908 التحق بالخدمة المدنية الهندية في إقليم البنجاب حتّي أبدى في وقت قصير قابليته في ميدان اللغات. وفي سنة 1915م أصبح ضابطاً سياسياً تحت إمرة السير بيرس كوكس في العراق. ثم وافته الفرصة عام 1917م فترأس بعثة سياسية بريطانية إلى ابن سعود. وقد ابتهج بهذه المَهَمّة لأنها كانت فرصة للابتعاد عن زملائه الذين لم تكن علاقته بهم وثيقة، ولأنها ستهيّئ له إشباع طموحه في أن يكون رحّالة.

ولقد أُشيرَ من قبل إلى بعثة فيلبي التي كان هدفها إقناع ابن سعود بالمال والعتاد ليهاجم ابن رشيد فيمنعه من التدخل في الحملة البريطانية ضد الأتراك في فلسطين. وقد سافر فيلبي على بعير من الكويت مصحوباً بخَدَم أميرها حتى وصل إلى الرياض. وكان معه حوالي مائة ألف روبية. وبعد أن عقد اتفاقية مع الملك كان عليه أن يعود فوراً إلى العراق ليُخبِر رؤساءه بما تمّ وينال موافقتهم على شروط الاتفاقية. لكنّه دمّر كل شيء أنجزه بسَفَره إلى شريف مكة دون ضرورة أو تخويل من أولئك الرؤساء. وكان الشريف سعيداً بأية فرصة تعيق تطور العلاقات بين ابن سعود والبريطانيين. فمنع فيلبي بطريقة مؤدبة من أن يعود إلى الرياض ليحول دون إتمام الاتفاقية المذكورة. وبذلك استطاع أن يمنع

ابن سعود من الحصول على الأسلحة التي كان يحتاجها لمهاجمة حائل. ولم يزعج ذلك الأمير فيلبي على الإطلاق لأن بعثته إلى ابن سعود مكّنته على أيّة حال من تحقيق طموحه الشخصي، وهو أن يعبر الجزيرة العربية من العقير إلى جدة في أربعة وأربعين يوماً. وقد شكّلت هذه الرحلة أساس كتابه الأول قلب جزيرة العرب. الذي نُشِر سنة 1922م. على أن الوقت الذي أمضاه فيلبي في الجزيرة العربية قد أقنَعه بأن النجم الصاعد في أفقها هو ابن سعود وليس الملك حسيناً.

وكانت زيارة فيلبي التالية للجزيرة العربية سنة 1924م. فقد تمكّن خلال المراحل الأخيرة من الصراع السعودي الهاشمي، الذي وصل إلى ذروته في حصار جدة، أن يقنع المكتب السياسي البريطاني في القاهرة ليرسله إلى هناك للتوسط بين الفريقين المتحاربَين. والواقع أنه لم يحقق للبريطانيين سوى بعض الإحراج. ذلك أن الحكومة البريطانية لم تمنحه تخويلاً للقيام بتلك السفرة، وكانت تحاول الحفاظ على حياد تامّ بين ابن سعود وعلي بن الحسين ملك الحجاز. لكن مهمّة فيلبي، وإن لم تخدم طرَفاً له وزنه، زادت من تحقيق مطامحه الشخصية. فقد أتاحت له فرصة الاجتماع بابن سعود عدّة مرات. وكان إعجابه به قد تصاعد، حينذاك، ونما شيئاً فشيئاً حتى غدا نوعاً من عبادة البطولة.

وبعد ذلك بقليل قرر فيلبي أن يترك عمله في الحكومة البريطانية ويستقرّ في جزيرة العرب. فاستقال من الخدمة المدَنية الهندية سنة 1925م. وفي السنة التالية لها أسّس له عملاً تجارياً في جدّة. وكان يشتمل على أمور منها وكالة بيع سيارات فورد. لكنّ رغبته الحقيقية كانت مواصلة رحلاته في جزيرة العرب ومصاحبة الملك. وعلى أيّة حال فقد كان عليه أن يحصل أثناء ذلك على ما يقيته، فاتّجه إلى التجارية بالطريقة التي يتّجه بها كل عربي أصيل إليها. وكانت بعض مشاريعه ناجحة، لكنّه بصفة عامة لم يكن رجل أعمال جيد فلم تزدهر أعماله في وكالة فورد. فقد كان واثقاً سنة 1926م أن يبيع إلى الحكومة السعودية مائة سيارة قيّمة كل واحدة منها ثلاثمائة جنيه إسترليني تقريباً. لكن الصفقة لم تتمّ. فوجد فيلبي أن لديه عدداً كبيراً من السيارات كان عليه أن يتخلص منها محلياً بما يستطيع من وسائل.

وكان لقائي بفيلبي أول مرّة في جدة سنة 1926م. وكان قد سمع بأنّ في الديوان مترجماً عربياً يتكلم الإنجليزية، فطلب أن يراني. ولم يكن لقاؤنا الأول على درجة كبيرة من النجاح. وكانت أكثر أسئلته الموجهة إليّ تهدف إلى التأكد من إجادتي اللغة الإنجليزية. أمّا أنا فقد كنت حديث العهد بالهند، وكنت حينذاك شديدة المعارضة للبريطانيين لدرجة أني أستطيع أن أقول عن نفسي بأنها كانت تعاني من مرض الكراهية الحادّة لهم. فأخبرت فيلبي بعد بضع دقائق بمدى معارضتي لهم ومبلغ تأييدي للحركة الوطنية الهندية ضدّهم. ولم يكن غريباً أننا لم نفترق كصديقين. على أنّ ذلك كان ذنبي بقدر ما كان ذنبه. لقد سألني في الواقع عمّا إذا كنت أريد أي شيء. فأجبته بأني أودّ أن أطّلِع على أية كتب بالإنجليزية يستطيع أن يمدّني بها. وكان جوابه على ذلك أن بعث رسالة إليّ عن طريق رئيس الديوان قائلاً بأنه يأسف لعدم استطاعته أن يزوّدني بما أردت. ومع أنّي كنت أرى فيلبي كثيراً خلال السنوات التسع التالية فإني لم أتحدث معه إلا قليلاً. بل إن محادثاتي المطوّلة معه أثناء كل تلك السنوات تكاد لا تساوي عشر مرات. وربما كان حظّي في هذا المجال أفضل من حظّ غالبية رجال الديوان. فقد كان فيلبي صمُوتاً منطوياً على نفسه يميل إلى تجنُّب الآخرين بقدر ما يستطيع.

وحينما كان الملك ورجال ديوانه في الحجاز لأداء الحجّ سنة 1927م كان واضحاً ان فيلبي قد أدرك بأن كونه مسيحياً يجعل من الصعب عليه أن ينغمس في حركة البلاد كما كان يودّ. وكان غير قادر، بطبيعة الحال، على زيارة مكة المكرمة والمدينة المنوّرة، كما كان من غير اليسير عليه أن يتجوّل في أنحاء المملكة. وكان لا يرى الملك خلال مواسم الحج إلّا في جدّة. وكنت حاضراً حين ناقش هذا الموضوع مع جلالته. فقال له الملك بأنّه إن أصبح مسلماً فسيجد ترحيباً وسيصحبه في أسفاره، بما فيها الحج إلى مكة المكرمة. ومن الواضح أن ذلك اقتراح جذّاب إلى أقصى الحدود، لكن فيلبي مع ذلك أبدى نوعاً من التردد حياله وقال: رغم أني شخصياً قد أكون مستعداً أن أفعل ذلك فإني لا بد أن أستشير زوجتي في الأمر. ثم أخبر الملك فيما بعد بأنه رغم استعداده للنظر في اعتناق الإسلام لم يستطع أن يفعل ذلك لأن زوجته لم تكن مرتاحة للفكرة. فعرض

الملك عليه أن يدفع إليها أربعين ألف جنيه إسترليني مقابل طلاقها لزوجها. لكن فيلبي أجاب إجابة مؤدبة مشيراً إلى أنه لا يعتقد بأن زوجته مستعدة لبيعه لقاء ذلك الثمن، مع أني لا أعلم إن كان قد حاول ذلك معها على الإطلاق، ولا شكّ في أن الملك كان حادّاً في عرضه الذي يوضّح أن جلالته قد أصبح يقدّر مشورة فيلبي ونصائحه تقديراً كبيراً.

وحين حجّ الملك سنة 1930م اتّضح أن نور الإسلام قد طلع أخيراً على فيلبي. ولم يكن حينذاك مستعداً للنظر في اعتناق الإسلام فحسب بل حريصاً على أن ينضوي تحت لواء الأخوّة الإسلامية. فأعلن إسلامه، وتسمّى عبد الله بناء على اقتراح الملك. وبعد ذلك أصبح يُعرَف باسم الشيخ عبد الله فيلبي. على أن إطلاق كلمة الشيخ عليه كان مجرّد علامة احترام بسيط، ولم تكن لقباً أو رتبة من أي نوع. وكان جلالته قد رتّب أن يحضر عالِم إسلام فيلبي في المحكمة الشرعية. وهناك أعلن رسمياً إيمانه بأركان الإسلام الخمسة أمام القاضي وشاهدين. وأعطاه ذلك القاضي شهادة بأنه قد أصبح مسلماً. ثم حدث أصعب امتحان لإيمانه، وهو الختان الذي كان عملية بالغة الإيلام لرجل بالغ. وبعد ذلك أُخِذَ إلى المسجد ليؤدّي أول صلاة لله ويشكره على هدايته. ومن هناك ذهب إلى مكة المكرمة ليُصلّي في المسجد الحرام.

وبعد دخول فيلبي في الإسلام أُخِذَ فوراً إلى الطائف، البلدة اللطيفة الواقعة في منطقة الجبال الباردة شرق مكة. واستراح هناك شهرين شُفِيَ خلالهما من آثار الختان وتعلّم أصول العقيدة الإسلامية على يدّ عالم عيّنه الملك نفسه لهذا الغرض. ولم يكُن ذلك العالِم سوى محمد بن إبراهيم آل الشيخ، الذي كان أشهر عالم في المملكة وأحد أحفاد محمد ابن عبد الوهاب نفسه. وقد اعتبر فيلبي هذا شرفاً عظيماً له، وسرّ الملك لاعتقاده ذلك. وعلى أيّة حال فإن جلالته، بحصافته المعهودة، كان حريصاً على أن لا يصبح من كان مسيحياً مستشاراً له ومرافقاً إلى الأماكن المقدسة إلا إذا تأكد لدى كل إنسان بأن اعتناقه للإسلام كان واضحاً، وأن معرفته بالعقيدة الإسلامية كانت عالية. وعند نهاية فترة تعليم فيلبي كان عليه أن يؤدّي امتحاناً يقنع شيخه من خلاله أن هدايته للإسلام ومعرفته به كانتا

كاملتين. ولست أدري ماذا حدث له تجاه هذا الأمر لكنّي لا أشك في أنّ ما لديه من قُدرَة على التركيز قد جعلته يجتاز الامتحان بدرجة عالية.

وكان هناك دائماً بعض الشكّ في مدى صدق فيلبي في اعتناقه للإسلام. ولست أظن بأنه كان لديه اقتناع ديني قويّ جداً. لكني أعتقد بأنّه كانت لديه رغبة عميقة في أن يكون قريبًا من الملك والشعب العربي، فقرّر أن لا يدع قضية الدين تقف في طريقه. وقد فسّر فيلبي نفسه قراره بأنه كان اختياراً منطقياً. وذات مرّة سأله صديقي محمد الدغيثر، بصراحة لماذا أصبح مسلماً. فأجابه بأنّه درس وقرأ الكتب حول كل الديانات الرئيسة في العالم - وربما كان ذلك صحيحاً - اتّضح له أن الإسلام هو العقيدة التي تحمل معنى لديه. ومن المؤكد أنه لا يستطيع أي إنسان أن يشكو من مظهر إيمان فيلبي لأن مراعاته لأصول الإسلام وعاداته كانت دقيقة، كما أن معرفته بالتراث الديني كانت عميقة إلى درجة كبيرة.

وبعد أن اعتنق فيلبي الإسلام ارتدى الملابس العربية، كما استفاد من النظام الإسلامي بالزواج من فتاة عربية أنجبت له ابنين. وأصبح يزور الملك باستمرار في كل من الرياض ومكة المكرمة. وبطبيعة الحال برّ جلالته بوعده له في أن يصطحبه في كثير من رحلاته. وصار فيلبي بجسمه الممتلئ ووجههِ المُلتَحي مشهداً مألوفاً لدى رجال الديوان، كما كان مِمّن يحضر بانتظام مجلس الملك العام والخاص. وكان أفراد الديوان يعتبرونه صديقاً ومستشاراً لجلالته مع أنه لم يكن أبداً خادماً له بأي شكل من الأشكال لأنه كان يذهب ويعود متى أراد. ومع أنه لم يكن ليُبدي أيّة مشورة ما لم يُطلَب منه إبداءها فإنه كان أحد القلائل الذين يحاجّون الملك بقوة لدعم رأيه حتى وإن خالف رأي جلالته. ولا شكّ في أن الملك قد وجد في ذلك تغييراً لطيفاً عن مواقف كثير من مستشاريه الآخرين ممّا جعله يُعجَب باستقلال رأي فيلبي. ولا بُدّ لي من أن أؤكد هنا بأني لا أعرف تماماً ماذا كان يحدث بين الملك وفيلبي، خلال محادثاتهما الخاصة. لكن لعملي في الديوان كنت بطبيعة الحال أسمع بعض التقارير عن هذه المحادثات من الحاضرين لها أحياناً. ولا شكّ في أن آراء فيلبي كانت ذات فائدة عظيمة لابن

سعود. ففي سنة 1929م - مثلاً - اقترح عليه أن يُقيم اتصالات لا سلكية بين الأجزاء المختلفة من المملكة. ولم يكن هناك أي جديد في هذه الفكرة. فالواقع أني قبل أن التحق بجلالته قد نشرت مقالاً في "بصرة تايمز" اقترح فيه فكرة مشابهة لما اقترحه فيلبي. لكن هذا الأخير كانت لديه، على أية حال، القدرة ووسيلة الاتصال اللازمة ليضع الخطة موضع التنفيذ. وما أن قبِلَ جلالته الفكرة من حيث المبدأ حتى اتصل فيلبي بشركة ماركوني في تشيلمفورد في إنجلترا لتُعِدّ الأجهزة اللاسلكية الضرورية، كما اقترح إرسال بعض السعوديين إلى هناك ليتدربوا على استعمالها وصيانتها. وبعد أن قام بالترتيبات اللازمة للدّورة التدريبية تم اختبار ثلاثة شُبّان من بريد مكة المكرمة لإرسالهم للدّورة. وقد لاحظ فيلبي أنه لم يكن بين هؤلاء من يتكلم الإنجليزية فاقترح أن يبعث معهم مترجماً. واختُبِرَ أخي عبد العزيز لهذا الغرض. فذهب هو والثلاثة الآخرون إلى إنجلترا. وكان أولئك الشبان الثلاثة إبراهيم سلسلة وإبراهيم زارع وحسن حسون. وبعد دورة استمرت تسعة أو عشرة شهور عادوا إلى الوطن ومعهم الأجهزة ومهندس مصري كان مؤهلاً لإقامتها. وبعد ستّة شهور بدأت الشبكة عملها. وقد أثبتت نجاحها العظيم لدرجة أن الملك اشترى مزيداً من الأجهزة من بينها جهاز قابل للنقل يستطيع أخذه معه في رحلاته.

وكان فيلبي الرجل الغربي الوحيد الذي استطاع الملك أن يعتمد على مشورته كثيراً في الأوضاع والمواقف الخارجية. وقد أدّت مقدرته على الوصول إلى هذا الموقع الفريد إلى كثير من التساؤلات في الديوان حول الطبيعة الحقيقية لدوافعه. فخشيَ كثير من الناس، وأنا من بينهم، بأنه كان عميلاً للحكومة البريطانية، وأن غرضه كان إقناع الملك بتبنّي سياسة مؤيدة لها. وعمل كهذا كان بالتأكيد مما قامت به أسرته. ذلك أن أحد أبنائه من زوجته الإنجليزية هو كيم فيلبي العميل المزدوج المشهور الذي يعيش الآن في موسكو. وقد حصلت أخيراً على نسخة من كتابه "حربي الصامتة" وقرأته باهتمام لأعرف ما إذا كان هناك شبه بين شخصيتيّ الابن وأبيه. فوجدت أن كيم نسخة صادقة لأبيه جون. وإني لعَلَى ثقة من أن فيلبي كان جديراً بأن يصبح عميلاً مزدوجاً مثالياً لو كانت لديه

الفرصة أو الميل إلى ذلك. لكن القضية لم تبرز في حقيقة الأمر على الإطلاق؛ أولاً لأن ابن سعود كان من العظمة في معرفة الرجال بحيث يتعذّر أن يخدعه عميل سياسي. وثانياً لأني متأكد، من خلال تأملي في أحداث الماضي، من أن فيلبي كان مدفوعاً تماماً باحترامه وتقديره للملك. وكان جلالته يوحي لكل من كانوا حوله بالولاء والتّفاني من أجله. وقد وقع فيلبي - كما وقعنا جميعاً - تحت تأثير سحره. وعلى أيّة حال فمع أنه لا يوجد من يشك في إخلاص فيلبي وولائه للملك فمن الواضح أنه كان يعمل، أيضاً، من أجل المصالح العليا لبلاده الأصلية.

وهنالك أمر آخر يمكن أن يلقي ضوءًا جانبياً مثيراً على دوافع فيلبي، وهو تورّطه بقضية فلسطين. وما زلت أذكر أنه سأل الملك مرة في مكة المكرمة عن رأيه في المشكلة اليهودية، فأجابه الملك بقوله: رغم أن اليهود أعداء للمسلمين منذ زمن الرسول صلى الله عليه وسلم - وسيظلّون أعداء لهم - فإني واثق بأن بريطانيا العظمى ستكون عادلة بين الطرفين. ولن تفعل أي شيء يمكن أن يضرّ بمصالح العرب. وعند بداية الحرب العالمية الثانية أصبح فيلبي، الذي كان حينذاك في إنجلترا، متورّطاً بشكل أكثر مباشرة من ذي قبل بالقضية الفلسطينية. وكان قد توصّل إلى نتيجة مؤدّاها أن هناك حلاً بسيطاً للمشكلة وهو أن تُعطى فلسطين لليهود ويُعاد توطين عرَبها في مكان آخر، على أن يدفع اليهود مبلغ عشرين مليون جنيه إسترليني من نفقات إعادة التوطين. وفي مقابل ذلك تعطي الدول الغربية لابن سعود حريّة التصرف بالأقاليم الجنوبية من شبه الجزيرة العربية.

وفي شهر أكتوبر سنة 1939م قابل فيلبي حاييم وايزمان، رئيس المنظمة الصهيونية العالمية ورئيس الوكالة اليهودية، وذكر له المشروع المقترَح. وكان وايزمان على وشك الذهاب إلى أمريكا حيث كان يأمل أن يطرح هذا المشروع على الرئيس روزفلت. وفي خلال ذلك كان على فيلبي أن يحصل على موافقة ابن سعود. على أن مهمّة وايزمان لم تحقّق نتائج ملموسة. وقد قام بمحاولة أخرى سنة 1942م. فقُبيل توجّهه إلى الولايات المتحدة في شهر مارس من تلك السنة قابل تشرشل الذي أوضح له أن نجاح المشروع يعتمد على قبول ابن سعود

له بوصفه أبرز زعيم عربي، وأن بريطانيا والولايات المتحدة كانتا على استعداد لمساعدته لينال أفضل ما يمكن من مكاسب. ومرّة أخرى لم تؤدِّ مهمّة وايزمان إلى أيّة نتيجة. وفي أثناء ذلك لم يحصل فيلبي على نجاح أفضل في جزيرة العرب. ذلك أنه استطاع أن يحصل على مقابلة خاصة مع الملك سنة 1940م، لكن رغم حرصه الشديد على إثارة اهتمام جلالته بالمشروع ونيل موافقته على تنفيذه فإن جلالته لم يكن مستعداً لمناقشة أي مشروع متناقض تماماً مع مصالح العرب. وقد نصح فيلبي بأن لا يتطرّق إلى الموضوع مرة أخرى. وهكذا فشلت مهمته فشلاً ذريعاً.

وللمرء أن يتساءل كثيراً عن الأسباب الحقيقية الكامنة وراء تأييد فيلبي للمشروع المذكور سابقاً. وقد نصح العرب فيما بعد بقبول تقسيم فلسطين، وإن كان هذا من شبه المؤكد ناتجاً عن خوفه من مصير أسوأ منه في حالة رفضهم له. وعلى أيّة حال فإن ولاء فيلبي للملك واهتمامه بمصالحه من الأمور الواضحة في مناسبات عديدة خلال خدمتي في الديوان. ومن ذلك - مثلاً - ما حدث حين كان يشرف على شحنة من الأسلحة إلى الرياض لجيش جلالته؛ فقُبَيل مغادرة القافلة بلَغَهُ أنّ قبيلة صغيرة في طريقها قد ثارت ضدّه. وهنا أوقف شحنها فوراً حتى تأكد شخصياً من أن القبيلة طُرِدَت من الطريق التي كانت القافلة ستمرّ بها، ومن مناقبه، أيضاً، أنّه لم يسعَ أبداً إلى الحصول على مكاسب مادّية من خلال صداقته للملك. وقد قال جلالته ذات يوم إن هناك رجلين لم يطلبا منه أي شيء على الإطلاق، وهما عبد الرحمن السبيعي، وكيله في شقراء، وفيلبي.

وفي اعتقادي أن هناك خطراً في المبالغة في تصوير تأثير فيلبي على الملك. ذلك أن جلالته كان دائماً مستعداً للاستماع إلى نصيحة أي إنسان قادر على إسدائها إليه. وكان فيلبي غالباً المصدر الوحيد للمعلومات والمشورة بالنسبة لشؤون العالم الغربي. لذلك لم يكن غريباً أن يجد الملك آراءه مفيدة جداً. لكنّه من المهمّ أن يعلم أولاً أن فيلبي لم تكن له أبداً أيّة سُلطة حقيقية، وإنّما كان مجرّد مستشار وصديق، ولم يكن أبداً صانع قرار لأنّ الملك كان يتّخذ كل القرارات بنفسه. وحين كانت السيدة فريا ستارك في العراق عرض فيلبي على الملك أن

يدعوها إلى المملكة، فأجابه: "إذا أتت فأهلاً بها، لكنّي لن أدعوها". ولم تأتِ السيدة فريا بطبيعة الحال. ومن المهمّ أن يعلم ثانياً بأن تأثير فيلبي كان محصوراً في الشؤون الخارجية، بل إنّه من النادر أن ناقش معه هذه المشاكل.

ومن الأسباب التي تجعلني أشك في أن فيلبي قد رغب يوماً من الأيام أن يكون عميلاً بريطانياً أنّه نادراً ما أعطى انطباعاً بتأييده لبلاده. بل كان كثير الانتقاد لها، خاصة حينما كان يحكمها حزب المحافظين. وكان انتقاده للسياسة البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية من الشدّة لدرجة أغضبت الملك نفسه، فأمر بالابتعاد عنه فترة من الزمن. وكان فيلبي في ذلك الوقت يفكّر في دخول السياسة البريطانية. وفي سنة 1939م رشّح نفسه عن حزب العمال في إبنج، لكنه فشل. وحوالي سنة 1945م تحوّل إلى حزب الكومونويلث الذي لم يُعمَّر طويلاً، لكنه بعد ذلك بقليل فقد اهتمامه بسياسة بلاده الداخلية. وقد سألته مرّة عمّا إذا كان ينتمي إلى أي حزب سياسي بريطاني فذكر لي، على ما يبدو لي، اسم موزلي.

وكنت قد قابلت فيلبي بعد الانتخابات البريطانية سنة 1930م في الديوان بمكة المكرّمة وسألته عن رأيه في الوزارة البريطانية الجديدة فأجاب: إنه لا نفع فيها. قلت له: لماذا تحتقر حكومتك؟ فقال: لأنها غير صالحة لحكم بريطانيا. ثم استطرد ليخبرني بأن هناك مدرستين سياسيتين في بلاده تجاه الأقطار العربية؛ إحداهما مدرسة اللنبي ولورانس، والثانية - وهي التي يناصرها فيلبي نفسه - مدرسة هوجارت رئيس المكتب العربي في القاهرة، وقد أوضح لي بأن المدرسة الأولى تؤيد الهاشميين لاعتقادها بأنهم أكثر تقدّماً وتحرّراً، وأن المدرسة الثانية تؤيد السعوديين لشعورها بأن التاريخ قد برهن على أنّهم أصلح لحكم العرب.

وتكاد تكون تلك المحادثة أطول محادثة لي مع فيلبي على الإطلاق. ولا بد أن حالته النفسية كانت ممتازة ذلك اليوم لأنه لم يكن سهل التعارف بوجه عام، بل كان دائماً منعزلاً متحفظاً. والواقع أن تكتّمه في وسط مجتمعنا العربي المضياف بلغ حدود السخف. وكان أكثر الناس يبتعدون عنه ولا يحتملونه إلا بسبب احترامهم للملك. وكانت له طريقة فعّالة في إيقاف المحادثة قبل بدئها

تقريباً - فذات مرة - مثلاً - حين كنا متّجهين على الإبل من عرفات إلى مزدلفة وجدت نفسي فجأة بجواره سألته مجاملة عن حاله، فأجاب: "أوه. أنا دائماً في خير"، ثم ابتعد عني. وفي مناسبة ثانية بعث إليّ أخي كتاباً عن الفلك يسمّى الكون الغامض فأريته إياه وسألته عن رأيه فيه. فنظر إليه نظرةً واحدة، ثم أعاده إليّ قائلاً: "لا تهتم به فإنك بالتأكيد لن تفهمه".

وكان فيلبي بطبيعته رجلاً يصعب الاتصال به. ولا أظن أنّه لو حاول التحدّث مع البدو بسهولة سيكون قادراً على محادثتهم بمثل الطريقة السهلة التي كان يستعملها جلوب باشا دون تكلّف. وأعتقد أن هناك سببين آخرين لعزوفه عن التحدث مع موظفي الديوان؛ أحدهما أنّه كان يعاني من عجز بسيط في النطق وكان يستطيع إخفاءه نسبياً بتقليل كلامه، والثاني أن مقدرته على التخاطب بالعربية كانت متوسطة. ولأنه يطيب له أن يظنّ بأنه عربي أفضل من العرب فقد كان من المُحرِج له أن يدخل في أحاديث يتّضح من خلالها أن معرفته بالعربية أقلّ من الكمال. وعلى أيّة حال فقد كان يستهجن بشدّة لو بدوت له جاهلاً بالمصطلحات الإنجليزية. ففي أحد الأيام دخل متبختراً إلى الديوان في مكة المكرمة واتّجه مباشرة إلى مكتبي فقال: ما الأخبار؟ فقلت: أيّة أخبار تريد؟ ثم شرحت له بأن لديّ، فوق مكتبي، أخبار من كل أنحاء العالم. فقال: "أوه. لقد قلت فقط ما الأخبار؟".

وهذا تعبير انجليزي شائع. وكنت مرتبكاً نوعاً ما، سألته مرة أخرى عن أيّ بلد تهمّه أخباره. قال: "أوه. أنت لا تعرف الإنجليزية". ثم مضى بازدراء. وبعد تلك الحادثة أصبح يميل إلى اجتنابي. وذلك أمر لم أكن أبداً شديد الأسف عليه.

وكان فيلبي يكتب دائماً مقالات وقصصاً عن الجزيرة العربية لتُنشَر في الغرب. وكانت مجلة الشرق الأدنى والهند إحدى المجلّات التي يكتب فيها. ولم يطلب من فيلبي أبداً - حسب علمي - تقديم مقالاته إلى الديوان قبل إرسالها للنشر. ومع ذلك فقد اختار أن يفعل ذلك. وكان عدد منها يأتي إلى مكتبي بين حين وآخر. وربما كان يُرادُ منّي مراقبتها، وإن كنت لم أتلقّ تعليمات صريحة

بهذا الشأن. على أنّه لم يكن في تلك المقالات ما يجعلني أرغب إزالته. ولم يكن فيها أي شيء طريف أو ذي مغزى بالنسبة لنا. بل كانت مجرّد وصف جاف لحادثة معينة أو لذهاب الملك ومجيئه مع حاشيته من مكان إلى آخر. ولم يكن لديه ما يتحدّث عنه من الأمور الجوهرية إلا نادراً. وكانت جميع مقالاته مكتوبة بأسلوبه الجاف المتميز ومشتملة على تعليقات حقيقية ومُرضية عن الملك وبلاده. وربما كان يأمل، بتقديم كتاباته إلى الديوان، نيل إعجاب جلالته بولائه له. فإن كان الأمر كذلك فقد كان مجهوده ضائعاً لأن جلالته لم يطلب مني أبداً أن أترجم له أية مقالة من تلك المقالات.

وكانت أعزّ آمال فيلبي أن يُعرَف بأنّهُ رحّالة عظيم. فكان يختفي طويلاً في رحلات مختلفة يذهب في بعضها إلى أبعد ما يُفكِّر فيه من أماكن. وفي سنة 1929م تقريباً كنت مع الملك في طريق عودته من المدينة الشرقية إلى الرياض بعد قتال ناجح ضدّ بعض القبائل المتمرّدة. وفجأة سمعنا صوتاً غير متوقع لمُحرّك وإذا بفيلبي يظهر على سيّارة فورد تحت سحابة من الغبار. وكان مُكلّفاً من شركة فورد ليقود السيارة من البحر الأحمر غرباً إلى الخليج العربي شرقاً كجُملة دعائية تبيّن طاقة تلك السيارة ومدى الاعتماد عليها فوق الطرق الشاقّة غير المطروقة. وكان قد سمع بأن الملك موجود في المنطقة فأراد مقابلته. وقد انتهز الفرصة للانضمام إلى ركبنا، وصحب جلالته إلى الهفوف، حيث استقام عدة أيام.

وكان فيلبي شديد الحرص على أن يصبح أول رحّالة غربي يعبر الربع الخالي من الهفوف شمالاً إلى البحر العربي جنوباً. وبعد أن درس المشروع بنوع من التفصيل رفع الأمر إلى الملك. وكان من الضروري له أن ينال تأييد جلالته ليزوّده بالإبِل من أجل رحلته، وليزوّده أيضاً، ببعض رجاله الخاصّين ليقوموا بحراسته. وحين عَلِمَ البدو في الربع الخالي بأنّ رجال الملك سيرافقونه أصبح آمناً نسبياً من هجماتهم. ولو ذهب بدون أولئك الحُرّاس فإن فرصته في البقاء على قيد الحياة ستكون ضعيفة جداً. وقد أخبر جلالته فيلبي بأنه لا يمانع في رحلته بشرط أن يوافق عليها أمير المنطقة الشرقية، عبد الله بن جلوي. ولسوء حظ

فيلبي أن ذلك الأمير رفض السماح له لوجود قبيلة ثائرة في المنطقة قد تعتدي عليه وعلى رفاقه. وأوصى بأن تؤجَّل الرحلة حتى يقضي على ثورة القبيلة المذكورة.

ولم يكن أمام فيلبي إلا أن يقبل بالأمر الواقع. ثم صحب الملك في رحلته السنوية لأداء الحج. وعند وصولنا إلى مكة المكرمة استقبلتنا الأخبار المفيدة بأن برنرام توماس قد عبرَ الربع الخالي من صلالة، المدينة العمانية الواقعة على شاطئ البحر العربي، إلى قَطَر، وأنّه سافر من هناك إلى البحرين. ولم يكن توماس قد حصل على موافقة الملك وتأييده لمغامرته لأنّه لم تكن له صلة به. لكنّه كان قد نال مساعدة من سلطان عمان، الذي كان يستشيره في النواحي الاقتصادية. وربما كان ذلك أحد العوامل التي أدّت إلى نجاح رحلته. وقد اتّخذ توماس، أيضاً، الحِيطة باصطحابه فرداً من كلّ قبيلة كان من المرجّح أن يقابلها في طريقه. وبهذا استفاد من العُرف البَدوي، وهو أن القبيلة لا تهاجم أية قافلة إذا كان معها رفيق منها.

وكنت مع فيلبي حينما سمع لأول مرة نجاح توماس. وكان من الواضح أن ذلك الخبر قد خيّب أمله. لكنه لم يكن الرجل المستسلم لإظهار مشاعره. فتحمّل الصدمة برجولة، وكتب فوراً برقية إلى توماس، الذي كان قد عاد حينذاك إلى إنجلترا حيث رحّب به ترحيب الأبطال. وقد طلب مني فيلبي أن أبعث البرقيّة إليه. وكان يهنّئه فيها عن إنجازه العظيم وفوزه بالسباق ضدّ الزمن مع فيلبي نفسه. وقد ضمن ثناءه على توماس جملة مقتبسة من مثل عربي تقول: "ما ظلم من أعطى القوس باريها". وكان يقصد بذلك أن توماس جدير بالفرصة التي أُتِيحَت له ليحاول عبور المنطقة.

ثم بدأ فيلبّي فوراً استعداداته الخاصة لعبور الربع الخالي في السنة التالية. ولأنّ توماس قد عبَرَهُ من الجنوب إلى الشمال فإنّه سيعبُرُه في اتّجاه معاكس. وقد وافق الملك على ذلك. وفي فصل الشتاء التالي، خلال شهر رمضان، كان مستعدّاً للسفر. وقد بدأ رحلته من عند الهفوف شمالاً مع خمسة وعشرين رجلاً من أتباعه وبعض الخدم النجديين الذين اختيروا له في الرياض. وفي إحدى

محادثاتي الطويلة معه أخبرني عن الرحلة، وقال إنها استغرقت حوالي شهر رمضان كلّه. ولم يكن مُلزماً بالصيام لأنّه كان على سفر. ومع هذا فقد اختار أن يصوم. وقد أكّدَ لي ذلك خدَمَه الشخصيّون. ولم يكن هذا باليسير على أجنبي في الصحراء. ولمعرفتي بفيلبي فإنّي لا أشك في أنّ متاعب الصيام هانت لديه بسبب متعته بمقدرته على أن يُظهِر لأتباعه بأنّه يتّصف بصفات العربي أكثر منكم. وقد أخبَرَني أنّه لم يشرب ماء طيلة رحلته كلّها، وإنما اكتفى بشرب حليب النُوق والشاي غير المُحلّى والقهوة العربية. ولم يكن هذا، أيضاً، أمراً لازماً لأنّ هناك آباراً صغيرة في الصحراء يستقي منها البدو. وكان رجال القبائل يخفون هذه الآبار بتغطيتها بالأحجار ووضع رمل فوقها للتّمويه. وكانت هذه الآبار معروفة لرجال فيلبي. فلم تواجه الحملة مشكلة من حيث الماء. وكان لدى فيلبي، على الأقل، فرصة وجود غذاء أكثر تنوّعاً مما هو ميّسر عادةً في الصحراء؛ إذ كان قد أخذ معه كمّية وافرة من البسكوت والطعام المعلّب.

وقد توغّل فيلبي في الجنوب حتى وصل إلى آثار المدينة القديمة وبرة، وهي التي مرّ بها توماس، أيضاً، حين سافر من الجنوب إلى الشمال. وقد لاحظ فيلبي حولها وجود بركانَين مندثرَين، كما فحص كتلة من الحديد مُلقاةً على الرمال. وكان المشهور لدى البادية بأنها في حجم البعير. والواقع أنّها لم تكن أكثر من أربع وعشرين بوصة طولاً واثنتي عشرة بوصة عرضاً. وربما كانت شهاباً صغيراً. وقد دحض كل من توماس وفيلبي ما كان يُشَاع عن حجمها، لكنّهما أكّدا أسطورة الرمال المغنيّة. ولم يواصل فيلبي رحلته من وبره جنوباً إلى صلالة على شواطئ البحر العربي، وإنما اتّجه جنوباً بغرب إلى ضاحية الصافي، ثم اتّجه شمالاً حتى وصل إلى نقطة مجاورة لنجران. ومن هناك عاد متّجهاً جنوباً بشرق إلى النقطة التي انطلق منها قُرب وبرة. وبذلك فإنّه قد سار في إطارٍ يكاد يكون مثلّثاً متساوي الأضلاع وسط الربع الخالي. ولعلّ في اتّباع هذا المسار غير المنتظم إشارة إلى سلوك ذلك الرجل المتصلّب وغير العادي. وكان فيلبي يبحث في مساره غير المنتظم في الربع الخالي عن آثار المدن القديمة التي كان من المشهور وجودها في تلك المنطقة. وقد أفاد أنّه لم يجد أثراً لحيوان أو نبات من أي نوع هناك. وقد

أنهى فيلبي رحلته أخيراً في نجران. ثم سافر إلى الحجاز حيث كان يتوقع أن يرى الملك في الطائف. لكنّ جلالته لم يكن قد وصل إليها. ولهذا سافر فيلبي فوراً صوب نجد حيث قابل الملك في منتصف طريقه إلى مكة.

وفي أثناء تجوال فيلبي في الربع الخالي جمع بعناية نماذج لنباتات وحيوانات ووضعها في قوارير، كما جمع عينات جيولوجية مختلفة. وكانت هذه هي الطريقة التي يمارس فيها عمله بصورة عادية خلال رحلته. وكان يشعر بالفخر لتمكُّنِه من إهداء مجموعات كبيرة من تلك النماذج إلى المتاحف الإنجليزية وإلى الجمعية الجغرافية الملَكية في لندن وربّما كانت أكثر مساهمات فيلبي بقاءً بالنسبة لتطور الجزيرة العربية ما عمله من خرائط لها. فقد كان ينتهز الفرصة في كل رحلاته ليرسم خرائط تفصيلية للمناطق التي مرّ بها. وقد أثبتت هذه الخرائط أنّه يمكن الاعتماد عليها بدرجة كبيرة، كما أصبحت أساساً لكثير من الخرائط المستعملة في الوقت الحاضر. وقد وجد فيها الباحثون عن الزيت فائدة لا تقدّر بثمن. وعندما كنت أعمل في أرامكو - بعد تركي العمل في الديوان - كان فيلبي كثير الزيارة لتلك الشركة. وكان من عادته إلقاء محاضرات على موظفيها حول جغرافية المملكة العربية السعودية وثقافتها.

ومع أن فيلبي كان، بدون شك، عظيماً في رسم الخرائط فإنّ جانباً من نشاطه في رسمها يكشف عن إحساسه المحدود في الدعابة. لقد كان شديد الحرص على أن يظهر في خرائطه الاسم العربي الصحيح لكلّ المعالم الجغرافية. ولم يحتَج إلى وقت طويل ليجد أن البدو المحليّين قد أعطوا أسماء لكل صغيرة وكبيرة في مناطقهم تقريباً. ونتيجة لذلك فإنه أينما سار لرسم خرائطه كان يسأل دائماً أدلاَّءه البدو عن اسم كل شيء يراه. ولم يكن مستغرَباً أن يكون هؤلاء عند نهاية كل يوم من أيام سفرهم، متبرّمين بسَيل الأسئلة التي كان يطرحها عليهم باستمرار. ولذلك فإنهم غالباً ما حاولوا بعث الحيوية في تلك المحادثات باختراع أسماء من عندهم. ويبدو أن فيلبي لم يكن يدرك ضحكهم عليه. والواقع أنّه قال في أحد كتبه: "إن تقلُّب التسميات العربية في أفواه الأدلاَّء المختلفين مهلك لمكتشِف بلادهم". ورغم أن الأسماء المختَرَعة كثيراً ما كانت

فاحشة وداعرة فإنه كان يدوّنها بإخلاص ويطبعها على خرائطه. ومن السهل تصوّر مدى الحرج الذي يحدث أحياناً لمستعملي هذه الخرائط. وما زلت أذكر أن الملك أعطي ذات مرة نسخة من خريطة لفيلبي عن الدهناء، التي كان جلالته يعرفها معرفة شخصية. وكانت الخريطة تظهر أسماء عربية لكل المعالم المحلية. لكن بما أنها كانت مكتوبة بحروف إنجليزية فقد طلب مني الملك أن أقرأها عليه. وقد وجدت أن اسم أحد التلال "عرق الموخريّة". وكان ذلك واحداً من الأمثلة البسيطة لدعابة البدو الظاهرة على الخريطة. وقد تردّدت في قراءة هذا الاسم، لكن الملك أمرَني أن أقرأه بصوت عالٍ فاضطررت إلى فعل ذلك. فغضب مني غضباً شديداً. فأوضحت له بأني لم أقرأ إلا ما كان مكتوباً. فأدرك فوراً ما حدث وانفجر في الضحك.

ولعلّه من الواضح أنني لم أحاول خلال هذا الفصل أن أُخفي عدم ميلي الشخصي لفيلبي. ولم أكن وحدي في ذلك الأمر. فقد سبق أن أشرت إلى أن طريقته المتحفِّظة جعلَت أصدقاءه بين العَرَب قليلين. لكني أشترك مع كل من التقى به في التقدير العظيم لشجاعته وكفاءته الواضحتين. أما بصفته مؤرخاً وجغرافياً فقد كان يحظى بمزيّة فريدة، وهي رعاية الملك له. وكان، حينذاك، المستعرب الوحيد الذي يمكنه أن يدّعي صادقاً بأنه عمل كل ملاحظاته بنفسه. وكان مشهوراً في بلده أثناء حياته. ولعلّ مما يؤيد ذلك أنه عندما توفي سنة 1960م أُبِّنَ في عمودين من صحيفة التايمز. وقد توفي ودفن في لبنان. وكانت رغبته الأخيرة أن يدفن في الرياض حسب الطريقة الإسلامية الصحيحة في قبر ليست عليه أية علامات.





الفَصلُ الثّالِث عَشَر

قِصّةُ الزّيت

”لا تقومُ السّاعة حتّى تعود جزيرة العَرَب مُروجاً وأنهاراً“

حديث شريف



بتوحيد وسط الجزيرة العربية وظهور حكومة مستقرّة في المنطقة أصبح محتّماً أن يشرع عمالقة التجارة من العالم الخارجي في التساؤل عن الكنوز التي يُحتَمل أن تكون تحت رمال الصحراء بلاد العرب، ويعدّوا العدّة للسّماح لهم بالبحث عنها. وكان احتمال وجود زيت في البلاد معروفاً قبل ذلك. فمنذ سنة 1920م كان الزيت يُستَخرج في العراق وإيران اللّتَينِ تُشبِهان المملكة في الخصائص الجيولوجية.

وقد تمّ توقيع أول امتياز للتّنقيب عن الزيت في المملكة سنة 1923م (1342هـ). فقد استطاع مغامر نيوزيلندي اسمه ميجور هولمز، نيابة عن جماعة انجليزية تسمّى "أيسترن آند جنرال سيند يكبت"، أن يتّصل بابن سعود. وبعد شهور من المداولات غير المنتظمة مُنِحَ امتياز التنقيب عن الزيت والمعادن في منطقة الأحساء. ولم يكُن أحد يعرف حينذاك أن المنطقة التي يُغطّيها الامتياز كانت تحتوي تقريباً على كل احتياطي الزيت في المنطقة الشرقية الذي يعتمد عليه العالم بدرجة كبيرة في الوقت الحاضر. وكانت مُدّة الامتياز سبعين سنة يدفع صاحبه إلى ابن سعود كل سنة مبلغ ألفي جنيه ذهبي مُقدّماً وقد بدا الطرفان راضيين بالاتفاقية. فهولمز حصل على أفضل شروط وابن سعود كان سعيداً جداً أن يدفع له الأجانب ذلك المبلغ السنوي مقابل لا شيء. ذلك أنّه كان يعتقد بأنّ الله قد أنعَم على بلاده بالكثير من الرمال والقليل مِمّا سواه، أن أولئك الأجانب سيكتشفون عدم وجود زيت في البلاد. ولعلّه من الغريب أن الجماعة التي حصلت على الامتياز لم تُجرِ تنقيبات جديّة، وإنما بعد أن دفعت الإيجار لمدة سنتين بدأت تفقد الاهتمام

بالموضوع، وتوقّفت عن دفع الإيجار ثلاث سنوات. وفي سنة 1928م أنهى الملك الامتياز. وكان في تلك المرحلة يعتبر هولمز مديناً له بمبلغ ستة آلاف جنيه ذهبي. وكان لهذا أهمية في قِصّة الزيت مستقبلاً.

ولم يحدث مزيد من الاتصالات للحصول على امتياز للتنقيب عن الزيت حتى سنة 1930م. وفي تلك السنة كان الملك يعاني مشكلة مالية شديدة. ذلك أن الأزمة الاقتصادية العالمية قد سبّبت نقصان عدد الحُجّاج بدرجة كبيرة فهبطت واردات جلالته هبوطاً حادّاً. ورغم عبقرية ابن سليمان فقد أصبح الوضع خطيراً جداً. وواجه الملك صعوبة في دفع ديونه الأجنبية وفي صرف رواتب موظّفيه. ومع هذا فإني لا أظن أنه قد فكّر في استغلال الثروات المعدنية في بلاده حلاً لمشكلاته المالية حتى اتصل به المليونير الأمريكي تشارلز كرين. وكان كرين صاحب نفوذ كبير في أوساط رجال الأعمال في بلاده، كما كان وزيراً أمريكياً سابقاً في الصين وأحد الأمريكيين المعيّنين في لجنة كينج-كرين لدراسة موضوع سوريا وفلسطين سنة 1919م. وقد زار اليمن. ولذلك فإنّه كان على صلة بالشرق الأوسط. وقد نمَت لديه رغبة صادقة، وإن تكُن شاذّة أحياناً، في تقدُّم الدولة الناشئة في المنطقة. والواقع أنّه لم يكن مجهولاً لدى الملك. ففي شهر ديسمبر سنة 1926م ورَدت إلى الرياض برقيّة من جنيف عن طريق وزارة الخارجية في الحجاز، وكان نصّها: "إلى صاحب الجلالة الملك ابن سعود. إني مهتمّ بالجزيرة العربية وراغب في مقابلة جلالتكم إذا سمحتم لي بذلك. تشارلز كرين، صديق العرب". وسواءً كان صديقاً للعرَب أم لا فإنّ المِلك لم يكُن لديه حينذاك أيّة فكرة عمّن هو كرين ولا عمّا يريد. ولم يكُن بالتأكيد لديه وقت لمقابلة كل أجنبي يرغب في أن يراه. ولذلك فقد أمَرَ وزارة الخارجية بأن ترسل إليه برقية الاعتذار المؤدّبة التالية: "ليس الوقت ملائماً لمجيئكم لأن جلالته مشغول بموسم الحجّ القادم وبقضايا داخلية".

ولم ييأس كرين فأبرق ثانية من القاهرة سنة 1927م قائلاً إنه يودّ أن يرى الملك. ومرة أخرى لم يُعطِ تفصيلات عن سبب رغبته في الزيارة. وكان جلالته على وشَك أن يعود من مكة المكرمة إلى الرياض. فأُجِيب كرين بأن الملك على وشَكَ السَفَر وأنه ليس لديه، مع الأسف، وقت لمقابلته. لكن كرين كان ملحاحاً.

فذهب إلى البصرة وأجرى ترتيبات للسَفَر إلى نجد بالسيّارة عن طريق الكويت. وقد استعان في ذلك بجون فانيس المُبشِّر الأمريكي في البصرة، الذي بعث معه أحد مساعديه الشُبّان ليقوده إلى حدود الكويت. وانطلق الرجلان في سيّارتين ومعهما أدلّاء عرَب وقليل من الخدَم. ومن سوء حظّهم أنّهم واجهوا - وهم يعبُرون الأراضي الكويتية - جماعة من الإخوان بقيادة ضيدان حثلين، فأُطلِقَت عليهم النار، وهربت السيّارتان بمن فيهما. لكنّ الشابّ الأمريكي أُصيب ومات بسبب ذلك. واضطّر كرين إلى أن يعود من حيث أتى. وحين بلغ الملك الخبَر غضب غضباً شديداً، لكن لم يكن هناك ما يمكن عمله. وقد أُعجِب جلالته بإصرار كرين ووافق على مقابلته بسرور. وكان كرين قد وصل حينذاك إلى القاهرة بعد أن أكمل وضع برنامج لبناء طُرُق وجسور في اليمن. وكان من السهل لذلك أن يُرتِّب معه زيارته لجِدّة في بداية السنة التالية.

وقد وصل كرين جدّة في شهر فبراير 1931م وسافر الملك إلى هذه المدينة لمقابلته. واستقبلهُ استقبالاً باهراً. فأقام له الحرَس والحاشية عرضة فخمة تلتها عرضة قام بها أهالي جدّة وبينهم الحضارمة الذين قاموا برقصات مؤثرة. ودُعي كرين إلى الكثير من الولائم، ومُنح شرف الإقامة في بيت الشيخ محمد نصيف الذي كان الملك حتى ذلك الوقت يسكنه إذا أتى إلى تلك المدينة. وظلّ كرين في جدّة حتى بداية شهر مارس. وأجرى عِدّة مداولات مطوّلة مع الملك وابن سليمان. وكانت أحلامه أن يرى في الجزيرة العربية مصانع عظيمة وسدوداً ضخمة وطرقاً واسعة وجسوراً باهرة يستطيع أن يشيّدها مهندسوه حين يبدأ استغلال ثروات البلاد. وقد استمع إليه الملك ووزير ماليّته بأدب، لكن ما كان مطلوباً حينذاك هو المال الذي يستطيع به جلالته أن يدفع ديونه الخارجية ومرتّبات موظّفيه. وعلى أية حال فقبل أن يتحقق حلم أي إنسان كان من الضروري أن يكتشف ما إذا كان في الجزيرة فعلاً معادن. وقد وعد كرين أن يوفِد مسّاحاً خبيراً للبحث عنها. واتفق على أن يدفع كرين مرتّب ذلك الخبير وأن يمدّه ابن سعود بما هو ضروري من طعام وسكَن ونقليات وحراسة. وقد أهدى جلالته إلى كرين حصانين عربيَين أصيلين. ثم غادر ذلك الأمريكي جدّة بمثل ما استُقبِلَ به من حفاوة وتكريم.

وبعد شهرين من مغادرة كرين وصل إلى جدة كارل تويتشل الذي كان مهندساً مدنياً وخبيراً باستخراج المعادن. وكان يعمل لكرين في اليمن، كلّفه بالذهاب إلى السعودية ليقوم بالمسح اللازم المتّفق عليه. وتوجه تويتشل إلى عمله فوراً. وكانت مهمّته الأولى أن يزور المناطق المجاورة لجِدّة وعين العزيزية في التلال المحيطة بها ليرى ما يستطيع عمله لتحسين تجهيزات الماء للمدينة التي كانت تشكو من قِلّتِها. ثم سافر بمحاذاة شاطئ البحر الأحمر إلى كل من جازان وينبع ومعه مترجم اسمه أحمد فخري. وبعد ذلك سافر إلى نجد حيث اهتمّ، بصفة خاصة، بالمنطقة المحيطة بالرس ونفي. وقد وجد هناك تلاًّ صغيراً فيه عروق من الذهب وآثار قرية قديمة للتعدين. وكانت بعض المساكن المتهدّمة لا تزال تحتوي على بقايا أحجار كانت تستعمل في تفتيت الصخر المستخرج من التلّ. ورغم أنه قد بدا بأن الذهب كان لا يزال موجوداً بكميات مشجعة فإن تويتشل لم يرَ من المُجدي محاولة استخراجه لأنّ الطُرُق الحديثة تتطلب كمّيات من الماء أكثر ممّا كان متوفراً في المنطقة.

وبعد عودة تويتشل إلى جدة لفترة من الوقت سافر مرة أخرى عبر نجد إلى الأحساء. وكان معه في هذه المرّة نجيب صالحة ليترجم له. وأقام هناك شهوراً أعدّ خلالها تقريراً مفصّلاً عن كل ما رآه. وقد بذل اهتماماً خاصاً بواحات المنطقة. وأصبح متحمساً لجعل الصحراء تزدهر بواسطة الريّ. وكان من المعادن التي لاحظها في المنطقة كمّيات بارزة من الجبس قُرب الظهران. وبعد أن قضى في جزيرة العرب حوالي ثمانية عشر شهراً وجد أن التكوينات الجيولوجية في منطقة الظهران تشير بوضوح إلى احتمال وجود الزيت فيها.

وقد أخذ تويتشل تقاريره إلى الملك، وأوضح له ما يحتاج إليه للبحث عن الزيت وماذا سيحدث لو عثر عليه. وكان، مثل كرين، يتحدث بطريقة خيالية عن المدن والطرق البرّية وسِكَك الحديد والمطارات والمدارس والمستشفيات وغيرها من مظاهر الدولة الصناعية الحديثة التي يمكن أن تنشأ من ثروة الزيت. ورغم حماسة تويتشل فقد كان جلالته مرتاباً لأنه كان لا يزال يعتقد في قرارة نفسه بانّه لم يكن هناك إلّا صخور لا قيمة لها تحت صحرائه الجرداء. لكنّه وافق على

أنّه إذا كان هناك زيت في بلاده فلا بُدّ من العمل لاستخراجه وبيعه. وكان الأمير فيصل، حينذاك، على وشك السفر لزيارة بريطانيا. وبناء على تعليمات الملك ذهبت إليه بنسخة من تقرير تويتشل. وخلال زيارته لتلك البلاد سلّم التقرير إلى حكومتها وعرض عليها، كما طلب منه والده، أن يمنحها امتياز الزيت في الأحساء. وبعد ذلك بوقت قصير استلم الملك برقية من سفارة بريطانيا في جِدّة تفيد بأن الحكومة البريطانية تشكره على عرضه لكنها ليست راغبة فيه.

وربما بدا غريباً أن يعرض ابن سعود امتياز الزيت على البريطانيين بعد أن وجد الأمريكيون مكانه المحتمل. ولعلّ ما هو أغرب من ذلك رفض البريطانيين للعرض. وفي اعتقادي أن السبب في توجُّه الملك إلى البريطانيين ربما كان نتيجة لشعوره بأنه مدين لهم لما قدموه إليه من مساعدات في الماضي، فظن أن عمله هذا قد يكون بمثابة رد للجميل. أمّا رفضهم للعرض فقد يكون سببه، بطبيعة الحال، مجرد الغباء.

لكني أظن أن مؤثرات أخي كانت تعمل عملها في هذا الموضوع. كنت أعتقد دائماً أنّه من المحتمل وجود اتّفاق غير مكتوب بين شركات الزيت العالمية وبين الحكومتين البريطانية والأمريكية على أن يسيطر البريطانيون على احتياطي الزيت شرق الخط الأزرق الممتد من شمال العراق إلى قَطَر وأن يكون للأمريكيين ما يقَع غرب ذلك الخط. وكان البريطانيّون، على أيّة حال، يسيطرون على إنتاج الزيت في إيران والعراق والكويت وقطر، وإلى حدّ ما في البحرين. وكان ذلك يفي باحتياجاتهم حينذاك. وكانت لهم مصلحة كبيرة في إدخال الأمريكيين إلى المنطقة لأن ذلك سيمنح هؤلاء فائدة اقتصادية في جزيرة العرب، وهذا بدوره سيشجّعهم على إقامة تحالُف عسكري مع البريطانيين للدفاع عن المنطقة تجاه الأعداء المحتمَلين لكلا الطرفين.

ومهما كانت الأسباب فإن البريطانيين لم يرغبوا في امتياز الزيت، وكانت خطوة ابن سعود التالية أن حاول الوصول إلى اتّفاق مع تويتشل نفسه الذي أصبح ذلك الملك معجباً به وواثقاً فيه. فطلب منه يوسف ياسين وفؤاد حمزة، نيابة عن الملك، أن يكوّن شركة زيت وطنية للحكومة السعودية على أن يكون له

عشرة بالمائة من أرباحها. لكنّه رفض ذلك على أساس أنه لم يكن يرى المغامرة عملية. ومع ازدياد إعجاب يوسف ياسين بمهارة تويتشل التفاوضية رفع حصّته المُقتَرحة من الأرباح إلى خمسة عشر بالمائة ثُمّ عشرين بالمائة. وحين رفض تويتشل ذلك أدرك يوسف ياسين أخيراً أنه كان يعني ما قال من أنّ المغامرة ليست عمليّة. وفي ظنّي أنّ هناك سبباً آخر لرفض تويتشل، وهو أنّه كان مرتاحاً جداً من كونه مسّاحاً، ولم يكن لديه طموح خاص في أن يصبح من عمالقة الزيت. لكنّه كان، على أيّة حال، مستعداً لإعانة الملك، فوعَدَ أن يأخذ نسخة من تقريره إلى أمريكا ليرى إن كانت هناك شركة تهتّم بامتياز الزيت. وكان كل من في الديوان مسرورين بأن الأمريكيين من المُحتَمل أن يحصلوا على الامتياز لأنّنا كنّا نشعر أن سُمعة البريطانيين كانت لا تزال ملوّثة بسبب الاستعمار. فإذا أتَوا من أجل زيتنا فلن نكون أبداً واثقين من مدى امتداد نفوذهم على حكومتنا أيضاً. أمّا الأمريكيون فإنّهم سيأتون ببساطة من أجل الثروة، وذلك دافِع يقدّره العرَب ويوافقون عليه بوصفهم تُجّاراً بطبيعتهم.

وقبل أن يغادر تويتشل المملكة أتى إليّ وأخبرني بأنّه لا يعرف من سيوجّه إليه رسائله من رجال الديوان، وقال بأنّه إذا وجد شركة مهتمة بالامتياز فإنه سيكتب إليّ، وسألني أن أترجم أيّة رسالة يبعثها وأقدّمها إلى الملك. وبعد حوالي شهرين من سَفَره استلمت رسالته الموعودة، فترجمتها وعرضتها على جلالته وحوّلها بدوره إلى ابن سليمان. وكانت الرسالة تفيد بأنّ تويتشل قد وجد شركة مهتمّة بالتنقيب عن الزيت، وأنّه مستعدّ للقدوم والتفاوض نيابة عنها. فكتبت إلى تويتشل أخبره بوصول رسالته. وبعد ذلك تبودلت رسائل بينه وبين ابن سليمان لم أطّلع شخصياً على أيّة واحدة منها.

ولا بدّ أن ابن سليمان دعا تويتشل إلى جدّة لأنّه بعد فترة قصيرة وصل إليها بصحبة رجل اسمه لويد هاملتون مندوب شركة "ستاندرد أويل أُف كاليفورنيا". وقد أمر الملك ابن سليمان بتشكيل لجنة للتفاوض مع الأمريكيين. فقرّر الوزير أن يقوم بذلك مع الشيخ عبد الله المحمد الفضل والشيخ حسن القصيبي. وطلب مني جلالته أن أكون مترجماً مع اللجنة. وقد أقامت اللجنة في بناية البغدادي بجدة، وبدأت المفاوضات مع الأمريكيين مباشرة. وحين تقدمت المداولات المطوّلة

الدقيقة اتّضح أن العَقَبة الأساسية كانت موضوع الدفعة الأولى التي ينبغي تقديمها من أجل الامتياز. وربّما أن الملك كان لا يزال يشكّ في وجود زيت في بلاده فإنّه كان مهتّماً بالحصول على دُفعة مقدّمة كبيرة مقابل حقوق التنقيب أكثر من اهتمامه بشأن العوائد المحتملة مستقبلاً. ولذلك كان ابن سليمان يطالب بقرض مقداره مائة ألف جنيه إسترليني شرطاً لمنح حق الامتياز، على أن يسدّد ذلك المبلغ - إن سُدِّد - من عوائد الزيت إذا استُخرِج بكمّيات تجّارية. أمّا الشركة فكانت تفكّر بدفع مبلغ أقلّ من ذلك بكثير؛ إذ لا يتجاوز خمسة وعشرين ألف جنيه إسترليني.

وبعد وقت قصير من وصول هاملتون وتويتشل إلى جدّة وجدا أنّهما يواجهان منافسة لم تكن متوقّعة. ذلك أن وفداً من شركة زيت العراق التي يمتلكها البريطانيون وصل إلى هذه المدينة برئاسة رجل اسمه لونجرج. وقد لحق بهذا الوفد الميجور هولمز ذاته بصُحبة مترجم أرمني. وكانت إقامة هولمز في جدّة قصيرة جداً. وقد صحبت ابن سليمان في مقابلته له. وكان الحديث خلال هذه المقابلة، من وجهة نظر هولمز، مختصراً إلى حدّ محزن. وقد أكدّ لنا بأنّه يُمثّل مصالح ميلون ومجموعة الخليج التي قال عنها بأنها شركة كبيرة جداً. كما أكدّ لنا، أيضاً، بأن صفقة رائعة، وإن تكُن غير محدّدة، يمكن التوصّل إليها مع شركته إذا مُنِح حقّ الامتياز. لكن ابن سليمان لم يتأثر بأقواله. وقد ذكَّره بأنّه لا يزال مديناً للحكومة السعودية بمبلغ ستة آلاف جنيه ذهبي نتيجة الامتياز السابق. وقال له بأنّه ما دام واضحاً بأن الاعتماد عليه موضع شكّ فإن عليه أن يدفع مبلغاً من المال قبل أن يبدأ أيّة مفاوضات. وقد ذكر مبلغ مائتي ألف ريال. لكن هولمز لم يكُن مستعدّاً لدفع ذلك المبلغ. ومن المُحتَمل أنّه كان خائفاً من أن يحتسب ذلك عوضاً عن الإيجار غير المدفوع من قِبَل شركة "ايسترن آند جنرال". وفي اعتقادي أنّه كان يتوقّع أن يستطيع خداع الحكومة السعودية مرّة ثانية ويضمن امتياز زيت الأحساء لقاء مبلغ رمزي. وما أن أدرك أنّ هذا الأمر بعيد جداً حتى استقلّ أول سفينة تغادر جدّة ولم يره أحد مرّة أخرى.

أمّا وفد شركة زيت العراق الذي التقى به كل من فيلبي وابن سليمان فقد بقيَ في جدّة أطول ممّا بقي هولمز. وكان أعضاؤه يشبهون أبطال قصة "أليس إنووندر لاند" حيث كان يتجوّلون في المدينة زائغي الأبصار يتنقّلون من مكان إلى آخر

كمن ضيّع طريقه. ولم تكن تلك الشركة جادة في سعيها للحصول على الامتياز لأنها كانت، كما اتّضح فيما بعد، غير مستعدّة أبداً أن تدفَع مبلغاً يقرب مما دفَعه الأمريكيون بشأن القرض الأوليّ الذي كان الموضوع المهمّ للسعوديين. على أن هاملتون وتويتشل لم يكونا يعرفان حينئذ، وكان مجرّد وجود وفد من تلك الشركة قد جعل الأمر صعباً بالنسبة لهما؛ إذ لم يعودا المتسابقَين الوحيدَين في الميدان، فكانا قلقين من أن منافسيهما قد يستطيعون في أية لحظة أن يتغلّبوا عليهما.

وكان قد طلب مني أن أقوم بالترجمة بين تويتشل وهاملتون وبين لجنة التفاوض السعودية، كما ذُكِر سابقاً. ثم اشترك فيلبي فجأة في المفاوضات وحلّ محلي مترجماً للأمريكيين. ويبدو أنّه كان قد عُيّن من قِبَل شركتهما لينضمّ إليهما في المفاوضات. وكان ذلك عملاً ذكياً من الشركة لأنّه لم يكن أحد يعرف أفضل من فيلبي العرض الذي يُحتمَل أن يكون مقبولاً لدى الملك. ولم أفهم أبداً كيف استطاع فيلبي أن يوفِّق بين مركزه باعتباره نفسه مستشاراً للملك وكونه وكيلاً مستأجراً لإحدى الشركتين العالميتين اللّتين تتنافسان على زيت جلالته. والواقع أنّه حين كان يتفاوض، نيابة عن الشركة الأمريكية، مع ابن سليمان، كان في نفس الوقت يتقابل مع وفد شركة زيت العراق ممثّلاً عن الحكومة السعودية. لكن مهما كانت دوافعه فإني أعتقد بأنه كان لا يزال حريصاً على مصالح الملك لأن النتيجة النهائية كانت مفيدة جداً لبلادنا.

وقد استمرّت المفاوضات مع الأمريكيين على غرار ما كانت عليه وكل من تويتشل وهاملتون يحاولان زحزحة ابن سليمان عن إلحاحه على دفع مبلغ مقدّم برسمهما صوراً وردية لما ستحصل عليه البلاد باكتشاف الزيت من منافع ورخاء. أمّا ابن سليمان فقد عاد مرّة بعد أخرى إلى النقطة البسيطة، وهي أنّ الملك يريد حلاًّ حاضراً مهما كانت الحلول المحتملة أو غير المحتملة مستقبلاً. وقد ساعد فيلبي على اجتياز العقَبَة حين قال لتويتشل: هؤلاء العرب لا يفهمون تفسيراتك النظرية والمثالية بشأن ما سيحدث في المستقبل. إنهم يريدون أن يعرفوا شيئاً ملموساً. ماذا سيحصلون عليه الآن؟. وعليك أن تعرض عليهم مبلغاً نقدياً وإلا فإنك قد تفقد الامتياز نهائياً.

وأخيراً اقتنع الأمريكيان بضرورة دفع مبلغ كبير من المال مقدّماً. وبعد كثير من المداولات الإضافية تم التوصُّل إلى اتفاقية مؤقّتة تقضي بإعطاء حق امتياز التنقيب عن الزيت في منطقة الأحساء إلى شركة "ستاندرد أويل أُف كاليفورنيا" لمدّة ستين سنة مقابل قرض مقدّم خالٍ من الفائدة مقداره ثلاثون ألف جنيه ذهبي، وقرض آخر مقداره عشرون ألف جنيه ذهبي يُدفَع خلال ثمانية عشر شهراً. وكان على الشركة أن تدفع إيجاراً سنوياً مقداره خمسة آلاف جنيه ذهبي وأن تعطي قرضاً مقداره خمسة ألف جنيه ذهبي حالما يُكتَشَف الزيت بكميات تجارية. وبعد ذلك تتسلّم الحكومة السعودية عوائد بمعدّل أربعة شلنات للطنّ الواحد من الزيت الخام المستخرج. وقد نوقشت هذه الشروط بين ابن سليمان والملك، وبناء على نصيحة فيلبي قرّر جلالته أن يقبل بها. فكانت توجيهاته إلى ابن سليمان، كالعادة، بسيطة ومباشرة: "توكل على الله ووقّع" ووقع ابن سليمان وهاملتون الاتفاقية في التاسع والعشرين من مايو سنة 1923م (4 صفر 1352هـ). وهكذا بدأ عصر الزيت العربي السعودي.

وبقيّة قصة الزيت معروفة جيداً. كان البحث عن الزيت غير مثمر في بداية الأمر، فخابت آمال الجميع سوى آمال الملك الذي لم يكن يتوقع أن يكتشف زيت في بلاده على أية حال. لكن في سنة 1935م ثَبُتَ من حفر تجريبي لبئر في الهران وجود زيت بكميات تجارية. وبمرور الزمن عُرِفَ الحجم الحقيقي المذهل لحقول الزيت. وقد بدأ الإنتاج سنة 1938م لكنّه انخفض إلى الصفر تقريباً خلال الحرب العالمية الثانية. ثم صعد بعد ذلك إلى الكميّات العظيمة التي تُنتَج في الوقت الحاضر. وقد أصبحت شركة ستاندرد أويل في بداية الأمر شركة زيت ستاندرد كاليفورنيا العربية. ثم أصبحت شركة الزيت العربية الأمريكية. أو أرامكو كما هي معروفة الآن عالمياً. وقد وجد الملك نفسه أغنى مما كان يتخيّل، واستطاع أن يستخدم ثروته الجديدة في إقامة المشاريع العامة من كل نوع لمصلحة شعبه. وهكذا نفذت، بقيادته الحكيمة، عملية النموّ السريع والتطوير فأصبحنا جميعاً ننعم بالثروة.





الفصل الرَّابع عشر

ابن سعود

وإنّمـا الأُمَـمُ الأخلاقُ ما بَقِيَتْ — فإن هُمُ ذَهَبَتْ أخلاقُهُمْ ذَهَبُوا

(أحمد شوقي)



كانت إنجازات الملك عبد العزيز بن سعود الباهرة إنجازات رجل عظيم حقاً. فتوحيد أكثر مناطق جزيرة العرب في وحدة مستقرة منسجمة أبعد من أحلام أيّ ملك عادي. وكان من حسن حظ العرب أن الله جلّت حكمَته وهَبَهم مثل هذا الرجل في وقت كانوا في أمَسّ الحاجة إليه لتوحيد البلاد وإعدادها للقيام بالدور القيادي الذي نلعبه الآن في الشؤون العالمية. ذلك الدور الذي لم تكن أيّة كمّية من الزيت لتُمَكّنها من القيام به لو أن أراضيها بقِيَت مُمزّقة وشعبها ظلّ متفرقاً. وإني لآمل أن أعطي في هذا الفصل تحليلاً للعوامل التي جعلت ابن سعود ينجح نجاحاً فريداً بوصفه رجلاً وبوصفه مَلِكاً.

لقد كتب الكولونيل تي. إي. لورانس في سنة 1935م كتابه المشهور عن تجاربه في الجزيرة العربية بعنوان "أعمدة الحكمة السبعة". ويبدو لي أن عنوان هذا الكتاب ملائم إلى أقصى حدّ لوصف شخصية ابن سعود التي كانت، في نظري، مبنية على سبعة أعمدة أنشأ عليها مملَكَته من لا شيء. وأوّل هذه الأعمدة الدّين. فقد كان الملك منذ الأيام الأولى من حياته حتى نهايتها مُسلماً تقياً ورعاً يتّبع أوامر الشريعة بكل تفاصيلها. وكان تعليمه خلال منفاه في الكويت محدوداً لكنّ ذلك لم يمنعه من معرفة القرآن وغيره من الكتب الدينية لدرجة كانت أحياناً تذهل علماء بلده. ومن تعاليم الدين أن يكثر المؤمن من تلاوة القرآن ما أمكنه. وكان جلالته دائماً يخصِّص نصف ساعة في اليوم لقراءة القرآن وغيره من كتب الدين، خاصة تلك المشتملة على أسماء الله الحسنى. وكان نادراً ما تحدّث مع أحد دون أن يستشهد بآية من القرآن الكريم الذي كان يستقي منه فيضاً لا ينضب من الحكمة والإلهام. وكان ماهراً في تفسير الآيات وشرحها بطريقة تخلب أفئدة جلسائه.

ولقد جعل الدّين لحياة الملك هدفاً بحيث كان كلما وسّع ورسّخ مملكته عظُمَت خدمته للإسلام بما كان يقوم به من أعمال. وقد منحته معتقداته الدينية قوّة في مختلف الأحوال. ومع ذلك فإنّ قوّته مهما عظُمَت لم تكن مصدر خطر لأن يصبح مختالاً فخوراً بنفسه. ولم يكن أتباع الشيخ ابن عبد الوهاب يؤمنون بتمجيد الأفراد. وقد عُرِف الملك أنه، بصفته إنساناً، كان يقوم بأفضل ما يستطيع، وأن كل شيء أنجزَه كان بإرادة الله وحده.

وقد أعطى الدين ابن سعود نظاماً دقيقاً لحياته في بلاده الصحراوية القاسية. ذلك أن الإسلام يوجب على معتنقيه أن يصلّوا خمس مرات في اليوم في أوقات محددة أينما كانوا. وقيام المرء بهذا الواجب كل يوم طيلة حياته يفرض عليه نظاماً يجعل تناوله لواجباته الأخرى بانتظام أكثر سهولة. وكانت أعمال الملك اليومية تدور حول أوقات الصلاة التي تبدأ بصلاة الفجر وتنتهي بصلاة العشاء. والواقع أن الملك قد فرض على نفسه نظاماً بحيث لا ينام أكثر من ست ساعات في اليوم. وكان نومه ثلاث فترات. كان، عادةً، ينام أربع ساعات في الليل، وساعة بعد صلاة الفجر، وثلاثة أرباع الساعة بعد الغداء، وقد مكّنه هذا النظام، مع ما كان يتّصف به من قوة جسمانية، من اتِّباع جدول عمل قاسٍ في المدينة والصحراء لا يستطيع اتِّباعه من يفتقر إلى عقيدة راسخة. وكان إخلاصه الواضح للإسلام يبث فينا النشاط ويدفعنا إلى اتِّباع خطواته المدهشة.

وكانت حياة الملك في أسفاره الصحراوية منظّمة جداً. فقد كان ينطلق بعد ساعة ونصف من شروق الشمس، ويتوقّف وقت الصلاة، ثم يتابع سيره حتى قُبَيل غروب الشمس. وكان هناك نظام خاصّ للطريقة التي كان يسافر بها كل سنة إلى الحج. وربما كان أعظم ارتياح شخصي اكتسَبه من استيلاءه على الحجاز أن مكّنه من أداء الحج كل سنة وتأدية المناسك التي أدّاها النبي صلى الله عليه وسلم.

وكان الملك يُقِيم احتفالاً في مساء اليوم الثالث عشر من ذي الحجة لكلّ زعماء العالم الإسلامي الذين أدّوا الحج. وكان يُلقي قبل المأدبة خطاباً يشتمل،

عادةً، على نصيحة طيبة وتوجيه ديني سليم. وكان هذا الاحتفال، أو المؤتمر الإسلامي العالمي، مفتوحاً لكل الحُجّاج البارزين. وكانت الجموع الغفيرة تزدحم لسماع كلمات جلالته. وبعد أن يُلقي خطابه يفتح المجال لكلّ زعيم يريد أن يُعبّر عن رأيه في الأحداث الجارية. وقد استمر هذا التقليد حتى اليوم تحت حكم الملك خالد.

وكان استيلاء الملك على البلاد المقدّسة أعظم حظّ ممكن للمسلمين جميعاً، مع أن ذلك لم يقدّر فوراً من كل الدول العربية. فبعد استيلائه على الحجاز بقليل دعا قادة الدول العربية والإسلامية إلى عقد مؤتمر لتقرير مصير المدن المقدّسة. ومع أن جلالته كان يشُك في قيمة ذلك الإجراء. فإنّه كان كريماً بحيث استضاف المؤتمر على نفقَتِه الخاصة. وبعد فترة من النقاش اقترح بعض الزعماء أن تكون البلاد المقدسة مشتركة لكل المسلمين في العالم، وأن تكون جمهورية إسلامية تُحكَم ديموقراطياً من قِبَل كل الدول الإسلامية. وكان لدى الملك شكوك قوية في إمكانية تطبيق هذا الاقتراح. فكان جوابه الموجز عنه: "إنكم تكادون تكونون جميعاً زعماء بلدان خاضعة للقوى الاستعمارية. وعليكم أن تحرّروا بلدانكم من السيطرة الأجنبية قبل أن تجسروا على ان تقولوا لي من الذي يجب أن يحكم الأرض المقدسة".

وكما كانت الحال دائماً أصاب سهم جلالته الهدف، ولم يجد أولئك الزعماء ما يقولونه. ومضوا من عنده مقتنعين بأن الأماكن المقدسة أصبحت في يدي زعيم قوي يستطيع أن يحميها ويدافع عنها.

وكانت ثقة الزعماء المسلمين الجديدة بابن سعود لها ما يبرّرها. فمنذ أن استولى على الحجاز حرص على أن تكون الأموال التي يهبها الحجّاج لصيانة الأماكن المقدسة تُدار بدّقة وأمانة. وذلك ما لم يحدث زمن حكم الهاشميين. ولقد اتّخذ، أيضاً، خطوات تضمن عدم خداع المطوفين الذين لا ضمائر لهم لحجاج بيت الله. وقد كلف مستشاره، حافظ وهبه، بعمل نظام للمطوفين والأجور التي تدفع لهم. ومن سوء الحظ أن الأموال التي استطاع الملك أن

يخصّصها لصيانة الأماكن المقدسة لم تكن دائماً كافية. وفي سنة 1949م بدت علامات التهدّم في المسجد الحرام، فقام أناس من المصريين بجمع ثلاثين ألف جنيه إسترليني لترميمه. ثم قدِمُوا إلى المملكة وسألوا جلالته أن يساهم في ذلك شخصياً. وكان في ذلك الوقت قد بدأ يتسلّم مبالغ كبيرة من دخل الزيت. فاستطاع أن يخبر المصريين بأنه سيقوم بإصلاح المسجد حتى يعود على روعته السابقة، وأنّ في إمكانهم أن يتبرّعوا بالمال الذي جمعوه لفقراء بلادهم. ومنذ ذلك الوقت أخذت الحكومة السعودية على عاتقها المسؤولية الكاملة في رعاية الأماكن المقدسة، وأصبحت التبرّعات التي يجود بها المسلمون تُصرَف في أمور أخرى جديرة بها. وبمرور السنين أنفقت هذه الحكومة بلايين الريالات لإصلاح تلك الأماكن وصيانتها والعناية بها.

وكانت معرفة الملك بالدّين وإخلاصه للإسلام من الأمور التي جعلته يُعتَبَر من أعظم قادة المسلمين عبر التاريخ. وكان قادراً على شرح القرآن وتفسيره بطريقة ممتازة مفهومة لدى أبسط رجال البادية. وفي اعتقادي أنه قدّم للعقيدة الإسلامية خدمة لم يقدّم مثلها أي رجل في هذا الزمن.

أما العمود الثاني من أعمدة شخصية ابن سعود فهو كرمه وعفوه. فقد كان سخاؤه طبيعياً لا تكلُّف فيه. وكان يعطي بكل تقدير حتى وإن كانت خزينته فارغة. وذلك ما كان يُحزِن ابن سليمان، وزير ماليته، حزناً شديداً؛ إذ كان عليه أن يغيّر ميزانيته باستمرار. ولقد سمعت جلالته يقول مازحاً أنه كثيراً ما شعر بأنّه كالجزور التي يستطيع كل إنسان ذي يد ماهرة أن يقتطع منها ما يريد.

صحيح أن كرَم الملك غالباً ما كان قضية سياسية محسوبة، خاصّة في تعامله مع البدو. لكنّه كان، أيضاً، يشعر بالسعادة من جرّاء إنفاقه، وهي سعادة لا علاقة لها بالسياسة. ويقال أنه كان مسافراً ذات مرّة فغرز عدد من سيارات حاشيته، ورفض، كعادته، أن يترك مكانه حتى يتأكد من أن جميع السيارات قد خرجت من الرمل. وفي أثناء ذلك نزل من سيارته وجلس في ظل شجرة، وفجأة وقف أمامه بدويّ لم يعرف أنه الملك لأنه كان يلبس ثوباً بسيطاً

وغترة. ثم جلس بجانب جلالته وقال له: أين الشيوخ؟ فأجابه مبتسماً: لا بد أنه من الرجال الذين تراهم. وانتظر البدويّ أن تسنح له الفرصة لرؤية الملك. وحين أخرجت جميع السيارات من الرمل استعد جلالته لترك المكان، وأخذ حفنة من الريالات وأعطاها إياه. وحينئذ مدّ البدويّ يده وقال: السلام عليك يا عبد العزيز. سأله الملك: كيف عرفت أني عبد العزيز؟ فقال: لا أحد يعطي بكرم مثلك.

ومهما كان حرج مالية الملك فقد كان مبدؤه أن لا يدع زائراً أجنبياً يغادر ديوانه بدون هدية فاخرة. وكان يحتفظ في القصر بكمية من اللؤلؤ والجواهر الأخرى والسيوف والخناجر المُرصّعة بالأحجار الكريمة لتقديمها إلى الضيوف البارزين. ولم يكن من غير المألوف أن يهب سيارات وخيولاً عربية أصيلة. ففي سنة 1928م زار الجنرال كلايتون الملك في جدّة، وانتابه مرض جعله يغادر المدينة بسرعة. وكان من عادة جلالته أن يقيم حفلة وداع عند مغادرة ضيوفه. وإذا كان الضيف مستعجلاً زوّده بالطعام غير المطبوخ ليتناوله فيما بعد. وحين عُرِضَت الحفلة المعتادة على كلايتون اعتذر عنها بلطف، وقال إنه لا يشعر بالرغبة في تناول أي طعام. وبناء على ذلك أُخبِرَ بأنّهُ من المُعتاد أن يزوّد الضيوف المستعجلون بالوليمة غير مطبوخة. فقِبَل ذلك. وأمرَ الملك فوراً أن تزوّد باخرته بالتموين الكافي لإطعام طاقمها برمّته في رحلة عودتها إلى بريطانيا.

وفي مناسبة أخرى، بعد معركة السبلة بقليل، وصل إلى الرياض وفد من شيوخ الكويت برئاسة الشيخ أحمد الجابر الصباح. وكانوا قد أتوا لتهنئة الملك على انتصاره في تلك المعركة الحاسمة. وأذكر أن موظفي الديوان كانوا ينتظرون بأنفاس محبوسة كيف سيعالج جلالته الموقف الحرِج لأن الخزينة كانت مُرهَقة بعد الغزوة الطويلة. لكن دهشتنا تجاوزت الحدود حين رأينا الضيوف يغادرون محمّلين بأسخى الهدايا. فقد استطاع الملك بطريقة ما أن يزوّدهم جميعاً بسيارات وسيوف مطليّة بالذهب والفضة ومبالِغ من المال.

وربما كان أبرز مثال على سخاء الملك غير المحدود ما حدث سنة 1952م

حين أمر ببناء قصر في الحجاز للملك فاروق الذي كان ينوي زيارة المملكة. وقد سمّي ذلك القصر قصر الزعفران. وكان نسخة مطابقة لأحد قصور الفاروق المُسمى بهذا الاسم في مصر. وقد بني في مكان منعزل جداً خارج مكة المكرمة. وكانت الاضطرابات في مصر، حينذاك، قد وصلَت إلى قمّتها. ومن المُحتَمَل أن العاهلَين قد اتّفقا على أنّه قد لا يكون مأموناً ان يسكن الملك فاروق في وسط المدينة التي تعجّ بالحركة. والواقع أن ذلك القصر لم يُستَعمَل أبداً لأن عبد الناصر أطاح بفاروق قبل أن يقوم بزيارته للمملكة. وحتى لو أنّه قام بتلك الزيارة فإنه لن يستقيم في ذلك القصر إلا بضعة أيام.

وكان كرَم الملك الطبيعي يواكب عطفه ورحمته. فبدلاً من اتِّباع العادة القديمة بقطع رؤوس الخصوم في أول فرصة متاحة كان يُظهِر عفواً عظيماً تجاه أعدائه المهزومين. وكان ما أن يتغلّب على خصم حتى يردّ إليه اعتباره وينأى عن الثأر منه. ولعلّ أعظم الأمثلة على ذلك عفوه المتكرّر عن الدويش. وكان عفوه يتّسع ليشمل أولئك الذين تآمروا للنّيل منه شخصياً. فحين كان في الطائف، سنة 1930م تقريباً، وصلَت إليه أنباء تُفِيد بأنّ جماعة من الشباب ينتمون إلى نادٍ لكُرة القدَم في تلك المنطقة كانوا يخطّطون لاغتياله في المسجد المحلّي. فألقي القبض على أولئك الشباب، لكن جلالته اكتفى بسجنهم. ثم أطلق سراحهم بعد ستّة شهور إثر استرحام وفد من أهالي جدة من أجلهم.

ولم يكن تعاطف الملك مقصوراً على الذين هزمهم شخصياً. فحين اعتلى الملك أمان الله عرش أفغانستان دعاه كثير من رؤساء الدول لزيارة بلادهم. فكتب الشيخ عبد الرحمن القصيبي إلى ابن سعود يقترح عليه أن يدعوه لزيارة مكة المكرمة. لكن جلالته قال إنه لن يدعوه لأنه، بصفته مسلماً، على الرحب والسعة لزيارتها متى أراد. وبعد ذلك أُطِيحَ بأمان الله ونُفِيَ إلى إيطاليا. ومع أنّه كان مسلماً تقيّاً فقد أُشِيعَ عنه بعد سنة بأنّه تحوّل إلى الكاثوليكية. ورغبة منه في نفي هذه الإشاعة وتطهير سمعته انتهز أول فرصة ليؤدّي الحج. ورغم أن ابن سعود لم يكن لديه ما يجنيه من وراء مساعدة أمان الله فقد تعاطف مع ذلك المسلم الذي ذلّ بعد عزّ، وذهب شخصياً وهو في مكة للسلام عليه. وقد ذهبت

مع جلالته مترجماً، وأذكر أنه بدأ حديثه مع أمان الله بقوله: إني سعيد أن أراك في هذه المدينة. وبعد أن استقبله استقبالاً ملكياً هيأ له مكاناً يقيم فيه، وأمر أن تُقدِّم له كل الخدمات اللائقة بملِك. وقد ساعد اهتمام جلالته بأمان الله على إزالة الشُبهة عنه، فغادر البلاد وهو عظيم الامتنان لما أبداه الملك من لطف.

وفي سنة 1920م هاجم الدويش الجهراء في الكويت، ونتَجَ عن هُجُومه كثير من الضحايا. ولم يبقَ في الكويت إلى أُسَر قليلة لم تُصَب بأذى. ولم يكن ذلك الهجوم بأمر من الملك، وإنما كان تصرُّفاً شخصياً من الدويش نفسه. وبعد المعركة بقليل أتى وفد من شيوخ الكويت إلى جلالته مؤكدين له أنّهم قد أدركوا بأنه لم تكن له يد في الموضوع، ومعبّرين له عن صداقتهم لشخصه الكريم. وبعد المجاملات الأولية قال الشيخ سالم الصباح، الذي كان يترأس الوفد، لجلالته: إن حدود الملَكة تمتدّ إلى أسوار مدينة الكويت. فأجابه الملك فوراً بقوله: إن حدود الكويت تمتدّ إلى أسوار مدينة الرياض.

والعمود الثالث من أعمدة شخصية ابن سعود قدرته على الكتمان والسِريّة. فكان غالباً ما أخفى خُطَطه عن أقرب المقرّبين إليه كأُسرته ومستشاريه. وبذلك لم تتسرّب خططه أبداً إلى أعدائه. ولا شك في أن معسكر جلالته كان، أحياناً، مليئاً بالجواسيس الذين كانوا حريصين على معرفة نواياه. لكنّهم كانوا يفشلون في مهمّتِهم، مع أن جلالته كان قادراً على أن يحصل على معلومات كاملة بواسطة جواسيسه عن الرجال الذين كانوا أقلّ منه قدرة على الصمت. وفي بلاد كانت الإشاعة تنتشر فيها انتشار النار في الهشيم كان تكتُّم الملك من أقوى أسلحته ضد خصومه.

وكانت الشجاعة العمود الرابع من أعمدة شخصية الملِك. صحيح أنه لم تكن هناك نُدرة في الرجال البواسل في تاريخ الجزيرة العربية، لكنّ الملك عبد العزيز بن سعود كان من أعظم هؤلاء البواسل. وغالباً ما كان في حاجة إلى شجاعته لأنه ما من إنسان قام بمثل هذه المَهمّة التي قام بها دون أن يكون محارباً من الدرجة الأولى. وهناك قصص كثيرة عن شجاعته. وكثير من الناس

يتحدّثون عن شجاعته الصامدة في تحمُّل آلام الجراح التي حدثت له في معاركه. فذات مرّة تحمَّل جرحاً خطيراً في معدته طيلة حملة دامت ستّة شهور قبل أن يعالج علاجاً طبياً وافياً. وقد أخبرني طبيبُه، رشاد فرعون، بأنّه حدث له أن أصيب برصاصتين استقرّتا تحت جلد بطنه. وحين بدأ بإعداد المخدّر لإجراء عملية لاستخراجهما سأله الملك عمّا يفعل. ولما شرح له ذلك انفجر ضاحكاً، وأمَرَه بإبعاد المخدّر. ثم أخذ مشرطاً بيده وشقّ الجلد الذي فوق الرصاصتين، وأمر فرعون بأن يقوم بمَهمّته.

ورغم أن ابن سعود كان مشهوراً بالجُرأة والبسالة فإنّ شجاعته لم تكن مجرّد عدم خوف من النوع الذي يستولي على الإنسان في لهيب المعركة فيعميه عن الأخطار المحيطة به. كانت لديه بجانب الشجاعة صلابة هادئة لرجُل يرى بوضوح الخطر المحدق في خِضمّ الحدث فيواجهه مواجهة صحيحة.

ولعلّه في موقفه هذا يطبّق قول المتنبي:

الرأيُ قبلَ شجاعةِ الشُجعانِ   هُـوَ أوّلُ وهي المحـلُّ الثـاني

ولم يفتخر ابن سعود يوماً من الأيام ببطولته، بل لا أعتقد أنّه كان ينظر إلى نفسه على أنّه بطل من الأبطال. فقد قال لي مرّة: إنّ ما وهبني الله لم يكن بسبب قوّتي، بل بسبب ضعفي وقوّته سبحانه وكان شعوره بذلك هو الذي حثّه على ما قام به من شجاعة وإقدام. ولم يكُن في الواقع يشعر بأنّه كان أشجع من الآخرين، لكنّ الله منَحَهُ موهبة خاصة؛ إذ كانت ردود فعله في الأوقات الحرجة من السرعة والذكاء بحيث تمكّنه من التصرّف بطريقة أفضل من غيره. وكان يعتقد، أيضاً، بأن الله قد أنعم عليه بحظّ عظيم. ولعلّ أفضل برهان على ذلك ما كان يبدو على جسده من جراح يتحدّث كل واحد منها عن قصة موتٍ نجا منه بأعجوبة. ويقال بأن سعود ابن عبد العزيز، ابن عم الملك الذي كان يرى أنه أحقّ بالحكم منه، افتخر ذات مرّة في لحظة من لحظات غضبه بأنه أشجع كثيراً من جلالته. وحين سمع الملك ذلك لم ينزعج، وإنما ابتسم ابتسامة عريضة وقال: "إن ما ذكره سعود صحيح. فهو أشجع مني لكني أعظم حظاً منه". وقد

قال مرّة أيضاً: إن أنعم الله على أولادي بحظٍّ مثل الذي أُنعِمَ به عليّ فسيكونون قادرين على حكم العالم العربي كلّه".

وكان العمود الخامس لشخصية الملك، في اعتقادي، قوّته الفريدة على المثابرة. فكان إذا وضع لنفسه هدفاً معيّناً بذل قُصارى جهده للوصول إليه دون ملَل. ومهما كانت النكسات والعقبات فإنها لم تكن لتثني عزمه عن غايته النهائية. وقد استطاع المقرّبون منه أن يُشعِرُوه بتلك العزيمة كقوّةٍ نفسية تتغلّب على من كانوا أضعف منه إرادة وتجاسروا على معارضته. وكان من جوانب شخصيّته التي أثّرت فينا جميعاً رغبته الدائمة في معرفة آخر الأنباء من جميع مناطق مملكته لإدراكه بأنّ عليه أن يكون أكثر معرفة بما يجري فيها من أي إنسان آخر ليصبح أقوى رجُلٍ في البلاد.

وكان في قُدرة جلالته، لو أراد، أن يطبّق عزيمته التي لا تلين لا على شؤون الدولة الكبيرة فحسب، بل على أقلّ مشكلات رعاياه. ففي يوم من الأيام أتى إلى مجلسه العام بمكة المكرمة رجل كبير السن وناوله عريضة تتعلّق بمُلك من الأملاك. فأحال جلالته العريضة إلى ابنه فيصل لينظر فيها. وفي السنة التالية وقف ذلك الرجل خارج الديوان وصاح قائلاً بأن مشكلته لم تُحلّ، فأمَر ابن سعود بإدخاله إليه فوراً. وبعد أن تحدّث معه وعده بأن موضوعه سيُحَلّ في خلال يومين. واستدعي فيصل، فأُخبِرَ بأنّه قد أحال العريضة إلى رجُلين من موظّفيه فلم يُعثَر على أثر لها. فأمر الملك أن تُفتَّش الدائرة المعنيّة تفتيشاً دقيقاً، حتى عُثِرَ عليها بين الأوراق المحفوظة. وكان أن فصل الموظفان اللذان أهملا تلك العريضة ونال الشيخ ما أراد. وكان لهذا أثرٌ محمود على موظفي الحكومة الذين أدركوا أن إهمال الواجب، همّاً كان بسيطاً، قد لا يخفى على الملك نفسه.

والعمود السادس من أعمدة شخصية الملك النزاهة والعدل. فقد كان تعامُله مع كل إنسان، من البدو البسطاء إلى الملوك الأجانب، يتّسم بالنزاهة التامّة والصراحة الكاملة. وقد يكون ذلك مُزعِجاً للزُّوار الأجانب المعتادين على اللقاءات المتّصفة بالنفاق. فحين التقى برئيس الجمهورية الأمريكية، فرانكلين

روزفلت، في مصر سنة 1945م لم يكن اللِقاء كما يتوقعه ذلك الرئيس. فحينما مدّ يده لمصافحة ابن سعود رفض الملك مصافحته قائلاً: "كيف أصافحك وأنت تساعد الصهاينة ضدّنا". فارتبك روزفلت، لكنّه استطاع أن يواصل حديثه مع جلالته في ذلك اللقاء، ووعده بأنّه لن يفعل أبداً ما يضرّ بالمصالح العربية.

ومن الأمور التي لاحظتها في الملك بصفة خاصة أنه مهما كان الاستفزاز شديداً لم يسهم أبداً في القيل والقال أو الإشاعات المغرضة. فقد يكون لقاؤه لبعض من لم يكن يستريح إليه فاتراً. وقد لا يتردّد في استهجانه بأشدّ الكلام أمام وجهه. لكني لم أعهده يغتاب أحداً. وممّا يوضح ذلك ما حدث بالنسبة لأسرة المنديل في العراق. فقد كانوا وكلاءه هناك، فأصبحوا أغنياء وذوي نفوذ بسبب ذلك. ثم أداروا ظهورهم لنجد، واختاروا أن يصبحوا عراقيين. وقد تألّم كثيراً لما فعلوه، وأصبح يشعر بالمرارة إذا ذُكِرَت أسماؤهم. ورغم وجود قصص كثيرة عن نشاطهم في العراق فإنّه لم يذكرهم بسوء أبداً.

ولكون الملك متديّناً مستقيماً شريفاً كانت نظرته إلى الجريمة نظرة متشدّدة، وقد أمدّته الشريعة بنظام جاهز طبّقه على شعبه بتجرّد تام. وكان أحد الشعارات الأثيرة لديه: "لا يدوم الملك بدون عدالة." ولم يقم بأية محاولة لاستثناء نفسه من حكم الشرع. وكان إذا اقام أي إنسان من رعاياه دعوى ضدّه عيَّن وكيلاً عنه ليتحاكم معه لدى قاضٍ يثق بحياده. وكان يخضع لحكم الشرع مهما كانت نتيجته.

وحين ضمّ الملك الحجاز إلى مُلكِه وجد أنه قد ورث مشكلة إجرامية خطيرة. فخلال السنوات الأخيرة من حكم الهاشميين انتشرت مختلف أنواع الجرائم. وكان يوجد في المدن الكبيرة من تلك البلاد حالات قليلة من السرقة والزنا واللواط والاغتصاب والقتل. وكان بعض البدو الذين لا رادع لهم يقطعون الطرق وينهبون الأبرياء، خاصة الحجاج الذين كانوا يسيرون دون حماية. وقد أبى الملك أن يحتمل مثل هذه الأعمال في بلاد الإسلام المقدّسة، وصمّم على تطبيق أوامر الشرع بحقّ مرتكبيها. فقطّع أيدي من أُدِينوا بالسَرِقة. وحين قبض

أمير المدينة المنورة، مشاري ابن جلوي، على بدويّ كان يقطع الطريق وينهب الحجاج ويقتلهم أمَرَ بربط يديه برجليه وإلقائه فوق شجرة ذات أشواك وتركه هناك ليموت تحت وهَجِ الشمس. ثم طُرِحَت جُثّتُهُ على جانب الطريق ليكونَ عِبرةً للآخرين. وقد حدث أن اختطف خمسة أو ستة شُبّان في مكة المكرمة صبياً ليلوطوا به، وأبقَوه عندهم أيّاماً، ثم قتلوه ودفنوه في سرداب. وحين اكتشف أمرهم أُعدِموا أمام دار الحكومة.

وكما كانت الإجراءات صارمة بحق المجرمين العتاة كان الحزم شديداً، أيضاً، بالنسبة لجميع المجرمين. قد قُضِي على البغاء، مثلاً، بإبعاد الداعرات المعروفات عن البلاد. ولم تكن تلك الإجراءات الصارمة، في اعتقادي، تتنافى مع عفو الملك المعهود.. فالرحمة ينبغي أن لا تُفسّر بأنها ضعف. وكان من الضروري أن تكون هناك علاجات قوية لحماية المواطنين من اعتداءات المجرمين. وينبغي أن يُعلَم بأن أمثلة قليلة من الشِدّة كانت كافية لإيقاف كثير من الجرائم المُحتَمَل وقوعها، وإفهام سكان الحجاز بأن النظام وجِدَ ليبقى. وكانت مقاومة الجريمة في المملكة ناجحة بدرجة كبيرة. ومن المُلاحظ أن هناك عدداً كبيراً من الأجانب يعملون في بلادنا، لكن الطبيعة الصارمة العادلة لنظامنا قد جعلت من النادر أن يُعتَدى عليهم أو يعتدوا على الآخرين. وإني لأعلم بأن أقطاراً أوروبية قد أرسلَت باحثين إلى المملكة ليعرفوا كيف استطاعت حكومتها أن تحافظ على النظام بهذا القدر من الجودة. وفي اعتقادي أن هذه الظاهرة تعود ببساطة إلى دين الإسلام، وعدم تناول الخمر، والسياسة الحكيمة التي وضعها عبد العزيز بن سعود نفسه.

أمّا العمود السابع والأخير من أعمدة شخصية الملك فهو تلك الصفات التي تدخل ضمن قوة العقل. وإن المثل القائل بأن "الوقت المُعطى للفكر أعظم توفير للوقت" يوجز بدقّة موقف جلالته. فقد وُهِب قوة ذاكرة وإدراك وملاحظة وفطنة خارقة للعادة. وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت تحيط به هالة نفسانية من النبل والحكمة تواكبها قامته الفارعة ومظهر رجولته مما جعل له أثراً عجيباً على كل من جلس لديه مهما كانت درجة ذكائه. وكانت لديه عظمة وجاذبية

سحرَتا من رآه وجعلتا منه قائداً طبيعياً. وكان له من قوّة الإرادة ما مكّنه من الهيمنة على عقول الناس وجعلها تطيعه دون مناقشة. ولقد رأيت في مناسبات كثيرة رؤساء القبائل المتكبّرين يأتون إلى مجلسه في حالة من العِداء الصريح ثم لا تلبث شخصيته أن تطغى عليهم فيكسبهم بابتسامته وجاذبيته الأخّاذة.

وكانت ذاكرة جلالته أعظم إثارة للإعجاب من ذاكرة أي رجل عرفته في حياتي. فقد كان يحمل في رأسه من المعلومات ما يكفي لملء مكتبه. وكانت لديه موهبة التذكُّر الفوري. فكان - مثلاً - عالِماً بكل قبائل مملكته وبطونها وأفخاذها وتواريخها وتقاليدها. وكان يستطيع في بضع ثوان من حديثه مع أي بدَويّ أن يعرف من طريقة كلامه القبيلة التي ينتسب إليها والفرع الذي ينحدر منه.

وكان ابن سعود متحدّثاً ومجادلاً بارعاً، كما كان بليغاً في كل خُطَبه. وكانت سيطرته على نفسه من القوة بحيث لا أذكر أبداً أنّه تكلم بكلمة في غير محلّها أو زائدة عن المقصود. ولم أعرفه أنه قال شيئاً ندم على قوله فيما بعد أو ودّ لو لم يقُلُه.

وكان كلامه العادي مليئاً بالمجازات الذكية والحكمة والأمثال التي تجعل سامعه يودّ لو أنه لا يتوقف عن الحديث. وكان دائماً يجد الملاحظة الدقيقة والمثل المناسب لأي موقف. من ذلك أنه تحدّث مرة مع عبد الوهاب كاتب الحرَم، أحد وزراء الشريف حسين السابقين. ولدى مصافحة عبد الوهاب له علّق على نعومة يدي جلالته معبّراً عن دهشته أن تكونا يدَي محارب مثله. ولم ينزعج الملك أو يحرج، بل ابتسم، واستشهد ببيت الشعر المشهور:

إنّ الأفاعي وإن لانَت ملامسها   عند التقلُّبِ في أنيابها العَطَبُ

ولم تكن جاذبية الملك مؤثرة في رعاياه فحسب. فحين امتدّت شهرته إلى خارج مملكته وأخذت قصصه تنتشر في العالم الإسلامي والصحافة الأجنبية بدأ الديوان يتلقّى رسائل غريبة من المُعجبين به. وكثيراً ما كانت تلك الرسائل مصحوبة بصور فتيات جميلات في أوروبا وأمريكا يطلُبنَ أن يعملنَ في قصر

جلالته. وكانت إحدى الرسائل من استراليا وفيها صورة فتاة ساحرة حسنة الهندام. فأعطى الملك الصورة إلى رئيس قبيلة قحطان، فيصل بن حشر، وسأله عن رأيه فيها. فأجاب فيصل - وربّما كان جوابه أقرب إلى الحقيقة مما كان يعتقد -: "يا صاحب الجلالة من الواضح أنها وقعت في حُبّك". فإذا كان هذا هو تأثيره على فتاة مجهولة في مكان بعيد فلمرء أن يتخيّل تأثيره علينا نحن الذين كنّا نعيش ونعمل معه كل يوم.

وكان جلالته نادراً ما غادر الجزيرة العربية. فلم يغادر بلاده إلا ثلاث مرّات طِيلة عهده؛ إحداها إلى البصرة سنة 1916م بدعوة من البريطانيين حين نزلوا في تلك المدينة، والثانية إلى الكويت والبحرين في طريق عودته من مقابلة ملك العراق في الخليج العربي سنة 1920م، والثالثة إلى مصر سنة 1945م لمقابلة الرئيس روزفلت وتشرشل والملك فاروق. وكانت له علاقات دبلوماسية ودّية مع جميع قادة الأقطار العربية المجاورة باستثناء الهاشميين المُمثّلين بعبد الله، ملك الأردن، وفيصل ملك العراق. وكان من المتوقّع أن تكون العلاقات بينه وبينهما متوترة نتيجة لضمّه الحجاز إلى حكمه. وكان لجلالته علاقات ودّية مع كثير من الدول الأجنبية. وبما أن غالبية البلدان الآسيوية والأفريقية المجاورة كانت تحت الاستعمار فقد كانت علاقات الملك الدبلوماسية بتلك البلدان مقصورة، بطبيعة الحال، على بريطانيا وفرنسا وهولندا وإيطاليا.

ولعلّ قصة حياة ابن سعود لا تكتمل دون الإشارة إلى تعاطفه مع المصالح الوطنية للبلدان العربية الواقعة تحت السيطرة الاستعمارية، خاصة فلسطين. والقضية الفلسطينية تستحق فصلاً خاصاً بها لأنها مرتبطة ارتباطاً لا ينفصل بتاريخ العالم العربي كله خلال الجزء الأكبر من هذا القرن، لا سيما منذ وعد بلفور سنة 1917م الذي تعهّد بالدعم البريطاني لليهود لإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين. لكنّ هذا الموضوع نُوقِش كثيراً في مراجع أخرى، وسأقتصر هنا على ذكر دور ابن سعود فيه لأن ذلك ربما كان غير معروف على نطاق واسع.

منذ أوائل عهد الملك كان معتاداً على تقديم العون والنصح للوطنيين العرب في كفاحهم من أجل الاستقلال من نير الاستعمار. وكان الحاجّ أمين الحسيني والأستاذ شكيب أرسلان، رئيس تحرير مجلة "العرب" التي كانت تصدر في سويسرا، اثنين من الشخصيات السياسية الكثيرة في العالم العربي التي أيّدها ابن سعود.

وكان كثير من هؤلاء الرجال يتلقّون مساعداته المالية بانتظام عن طريق القنصليات السعودية في مصر ولبنان وسوريا والعراق.

وكان ابن سعود، باحتلاله مركز الصدارة بين رؤساء الدول العربية في عهده، عميق الصلة بقضيّة فلسطين. ومن الصعب أن يصف المرء اهتمامه بحقوق الشعب الفلسطيني. ورغم أنه آثر أن يبقى بعيداً عن الأضواء فقد كان على اتصال مستمرّ بالدول العربية المعنيّة وبالقادة العرب من أجل تلك القضية. وكان دائماً يقدم نُصحَهُ لحلها، ويطالب الغرب باسم الفلسطينيين. وكثيراً ما أصدر تصريحات شديدة اللهجة ليعبّر عن آرائه ويحذر من مغبة تجاهل حلّ عادل للمشكلة.

وكان الملك على اتصال دائم بالحكومة البريطانية وحكام العراق والأردن واليمن طيلة الإضراب العام الذي قام به الفلسطينيون سنة 1936م. وكانت بريطانيا قد التمست من القادة العرب أن يتدخلوا لإنهاء ذلك الإضراب الذي دام ستة شهور. وكان لابن سعود دور فعّال في إقناع قادة فلسطين بإنهائه. على أنّه كان يقدّم مساعدات منتظمة للفلسطينيين، خاصة الأيتام وضحايا الإضراب.

ومع ازدياد أهمية القضية الفلسطينية والنتائج المترتّبة عليها ازداد اهتمام الملك بها. وقد سبقت الإشارة إلى زيارة فيلبي للمملكة سنة 1940م لإقناع الملك بقبول الخطة المقترحة لفلسطين. وكان من الواضح أن كُلّا من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية قد اعتبرتا موافقة ابن سعود أمراً أساسياً لتنفيذ تلك الخطة.

وفي سنة 1938م أرسلت بريطانيا مندوباً إلى الرياض ليرجو الملك أن يحضر مؤتمراً في لندن خلال السنة التالية لبحث المشكلة الفلسطينية. ولأنّ جلالته كان يدرك أهمية ذلك المؤتمر قبل أن يحضره ابنه فيصل، الذي كان حينذاك نائبه في الحجاز ووزير خارجيته. وحينما توجّه فيصل إلى لندن سنة 1939م كان يحمل معه رسالة من أبيه إلى رئيس وزراء بريطانيا تشمبرلين. وقد ذكّر بريطانيا في تلك الرسالة بدعم العرب لها خلال الحرب وطلب منها أن توضّح، بوحي من صداقتها للعرب، سياستها تجاه فلسطين. ورغم كل جهوده فإن مؤتمر لندن، أو مؤتمر الطاولة المستديرة، لم يقدّم أي شيء من أجل الحلّ المأمول. ولعلّ ممّا تجدر قراءته تلك الرسائل المتبادلة بين ابن سعود وبين عدد من رؤساء الدول الغربية بشأن فلسطين. وقد ضمّ الملحق السابع من هذا الكتاب منتخبات منها. وكان الملك يناشد فيها بريطانيا وأمريكا بالعدل والإنصاف. وكان زعماؤها يذكرون له دائماً بأن الدولتين لن تفعلا شيئاً يضرّ بمصالح العرب. أمّا ما جرى بعد ذلك فمعروف لدى الجميع.

ولعلّي لم أذكر حتى الآن إلا القليل عن حياة الملك الخاصة. وليس في نيّتي أن أقول الكثير عنها لأني أشعر بأن الرجال العظماء لهم الحق في الاحتفاظ بأخبار حياتهم الخاصة حتى بعد وفاتهم. على أنّ هناك بعض الحقائق التي يمكن أن أشير إليها دون تجاوز لحدود اللياقة، خاصة بعض التفصيلات التي تتعلق بأسرة جلالته. فقد تزوج كثيراً من النساء خلال حياته، لكنه - طبقاً لأوامر الشريعة - لم يجمع أكثر من أربع زوجات في وقت واحد. وكان الزواج بالنسبة إليه وسيلة سياسية مهمّة وأداة قوية في توحيد المملكة لأنه حين يتزوّج من أسرة معيّنة تتشرّف هي وقبيلتها بزواجه، وتظلّ في أغلب الأحيان موالية له. بل إن الأسرة تحظى بشرف زواجه منها حتى بعد طلاقه لزوجته، خاصة إذا كانت قد أنجبَت منه.

وقد استمرّت بعض زِيجات الملك أكثر من البعض الآخر، وقليل منها لم يدُم إلا يوماً واحداً. وربما كانت هناك زوجتان تعلّق بهما تعلّقاً خاصاً.

وكان للملك ما لا يقل عن ستين ولداً، منهم ستة وثلاثون ذكراً. وقد عاش حتى رأى أحفاده الكثيرين من نسل أبنائه وبناته. ولو حاول مصوّر أن يأخذ صورة عائلية لجلالته مع كل أبنائه وأحفاده لكان عليه أن يُعِدّ آلة تصوير بحيث تتسع لالتقاط ما لا يقلّ عن ثلاثمائة شخص.

ويستحق كل واحد من أبناء الملك أن يُكتَب عنه كتاب مستقل، لكني أكتفي بالإشارة على الثلاثة الكبارة منهم، وهم تركي وسعود وفيصل. وكان تركي أكبر هؤلاء. وقد وِلِدَ سنة 1901م (1318هـ). وقد برهن خلال حياته القصيرة على أنّه محارب شجاع قدير وصيّاد ماهر، كما أبدى مواهب جيدة في الإدارة وبدأ ينمّي شخصيته بدرجة تكاد تساوي درجة أبيه. لكن المأساة التي أحزنت كل من عرفوه أنه توفي بوباء الانفلونزا الذي حلّ بنجد سنة 1919م (1337هـ) وعمره ثمانية عشر عاماً. وقد عُرِفَت تلك السنة عند سكان المنطقة بسنة الرحمة لكثرة من توفي فيها وانتقل إلى رحمة ربه.

وكان سعود أكبر أبناء الملك بعد تركي. وقد ولد سنة 1902م (1319هـ)، وهي السنة التي استولى فيها أبوه على الرياض. وقد وضع جلالته ثقته فيه لدرجة أنه جعله نائبه على الرياض وعيّنه خليفة له في أوائل الثلاثينات من هذا القرن. وكان سعود طويلاً جذّاباً مثل أبيه. وكان لديه الكثير من مزاياه، خاصّة الكَرَم. لكنّه، على أية حال، لم يكن مثله في قدراته العسكرية وقوّة عزيمته.

وكان الابن الثالث الأمير فيصل الذي وُلِدَ في يوم ميمون وهو اليوم الذي وقعت فيه معركة روضة مهنا 1906م (1324هـ). وقد أبانَ عن نُضجٍ مبكّر منذ صغره. وكان في الثانية عشرة من عمره حين أرسله أبوه في زيارة رسمية إلى بريطانيا بدعوة من حكومتها. وقد أُعجِبَ كلّ من قابلهُ هناك بحكمته وهيئته الملكية. ولما كَبُرَ أصبح سياسياً يتصّف بالذكاء وحصافة الرأي وبعد أن استولى أبوه على الحجاز، وعمره لم يتجاوز العشرين، جعله نائباً له هناك كما أصبح وزيراً للخارجية. وحين أصبح اسم البلاد رسمياً المملكة العربية السعودية سنة 1932م (1351هـ) دعت كثير من الدول المهمّة ابن سعود لزيارتها. لكنّه لم يكن

يحبّ مغادرة البلاد فأناب ابنه فيصلاً عنه في تلك المَهمّة. وقد نجح الأمير الشاب في جولته نجاحاً باهراً، وأصبح بعد ذلك الرجل المؤهل لتمثيل الدولة السعودية كلما دعت الحاجة إلى القيام بزيارة إلى بلد أجنبي. ولقد سمعته يتحدث بحماس عظيم وبلاغة مؤثرة عن سفراته إلى أوروبا، خاصة لندن التي اثارت إعجابه أكثر من أيّة عاصمة أخرى. وقد ورث عن أبيه موهبته القيادية في المجال العسكري كما هو واضح من سير حملته الخاطفة في اليمن. وفي اعتقادي أن أباه كان يعتمد عليه اعتماداً كبيراً.

وكانت أعظم مسرّات جلالته الخاصة اتصاله بأسرته. فكان يحب أن يحيط به أكبر عدد ممكن من أقربائه. وكان يعقد في الساعة السابعة من صباح أغلب الأيام مجلساً خاصاً يحضره كبار العائلة وأبناؤه واقاربه ويتناقشون في أيّة مشكلة من مشاكلهم أو يكتفون بالسلام عليه. وكان يجتمع كل أسبوع بكُلّ رجال أسرته، ويجتمع كل أسبوعين تقريباً بكل نسائها على انفراد. وكان منهنّ من يأتين محجّبات ومن يأتين غير محجبات بحسب قربهن منه. وكان غالباً ما يوصي وكلاءه في بومبي ودمشق بشراء أشياء ثمينة ليهديها إلى أفراد أسرته. وكان يقدّم، أيضاً، هدايا ثمينة إلى موظفي ديوانه وأفراد حاشيته. وكان شغوفاً بأبنائه الصغار الذين كانوا يجرون في القصر بحريّة تامة ويزورونه في أي مجلس دون إذن خاص.

ورغم الثروة التي جمعها الملك في أواخر عهده فقد كان يعيش عيشة تقشف وزهد اتباعاً لآداب الشريعة. وكانت رغباته بسيطة وأمكنة سكنه متواضعة. ولا حاجة إلى القول بأنه لم يدخّن أبداً ولم يمسّ الخمر أو أي شراب مسكِر. وكان الشيء الوحيد الذي انغمس فيه شرب القهوة بالهيل حتى أصبح خبيراً بها. وكان هناك عدد من الخدَم في القصر يعملون القهوة له ويسافرون معه أينما ذهب لهذا الغرض. وكان عمل القهوة يتطلّب كثيراً من الدقّة. وكان من يعملونها يحتفظون بسِّر اتقانها احتفاظ الغيور على فنّه. ولم أذق أبداً قهوة أفضل من تلك التي كان هؤلاء يعملونها لجلالته.

وكان لدى الملك إحساس عميق بالدُعابة قد يكون حادّاً في بعض الأحيان. وأذكر أن مدير شركة أرامك أتى لزيارته، وحالما دخل عليه أظهر أنه قد ظنّه عدوًّا فتجهّم وجهه وأمر باعتقاله فوراً. وبطبيعة الحال سحب ذلك الأمر حالاً بين ضحك الجميع. لكن المسكين أوليفر ظل يرتجف ساعات بعد ذلك. على أن جلالته لم يكن يخطر بباله أبداً أن يسمح بالعبث علناً، خاصة إذا بدا له العبث منافياً للدين بأي شكل من الأشكال. ففي بداية حكمه زار الكويت، وكان الناس مسرورين جداً لرؤيته لدرجة أنهم عملوا له استقبالاً عظيماً دعوا إليه شاباً ليغنّي فيه. ومن المعلوم أن الموسيقى والغناء من الأمور المكروهة لدى أتباع ابن عبد الوهاب. وما أن بدأ الشاب يرفع صوته بالغناء حتى استبدّ الغضب بالملك ووقف شاهراً سيفه وهو يقول: "أنا ابن فيصل" معبّراً عن استيائه الشديد لذلك العمل. فامتقع لون الشاب من الخوف وانسحب بسرعة. وحينئذ استعاد الملك هدوءه وجلس كأنّ شيئاً لم يكن. وأغلب عظماء التاريخ لديهم حالات يعبّرون فيها عن خِفّة وهَزَل ولحظات يروّحون فيها عن أنفسهم من حين إلى حين. لكنّ ابن سعود لم يكن كذلك. وربما كان يحتفظ بهذه اللّحظات لأطفاله الصغار لدى أهله، لكنها لم تحدث أبداً أمام الملأ.

وكان جلالته يودّ أن يمارس الصيد - هوايته المفضّلة - في فترات راحته القصيرة جداً. وكان يذهب في الشتاء أحياناً مع عدد قليل من أصحابه ليصطاد أنواعاً من الصيد، خاصة الظباء. وكانت الحباري تطير خلال الشتاء فوق نجد متجهة نحو مأواها الشتوي في اليمن. وعندما يقترب الربيع تعود من هناك وتواصل طيرانها متجهة، فيما يبدو، إلى سيبيريا ومنشوريا. وكان كثير منها يقع ضحيّة بندقية الملك. وقد أصاب جلالته ذات مرّة طيراً كان على عنقه طوق نحاسي فيه كتابة صينية أو يابانية. وطلب مِنّي أن أقرأ تلك الكتابة، لكني مع الأسف لم أعرف لغتها.

وكان الملك يذهب أحياناً إلى مكان خارج الرياض يسمّى الخفس تجتمع فيه مياه الأمطار. وكان أكثر طراوة وخصباً من الصحراء المحيطة به. وكان جلالته يأخذ معه أحياناً كبار مستشاريه ورؤساء كُتّابِه للنزهة هناك. وإذا وصلوا إليه

نسَوا كل ما يتعلّق بأعمالهم المكتبية وتمتّعوا بالراحة والطعام اللذيذ. وكان معروفاً عن الملك أنه يستروح في تلك النزهات فيأخذ معه خادماً لديه موهبة خاصة في الفكاهة. وكان مما يقوم به ذلك الخادم طرح أسئلة حمقاء على ضيوف جلالته. وإذا لم يجب الضيف عنها فوراً إجابة في مستواها عُوقِب. وكانت هذه الدعابات، تتمّ، بطبيعة الحال، بعيداً عن أعيُن العامّة لأنّ الملك كان من الحكمة بحيث يضع بينه وبين رعاياه مسافة معينة مهما كانوا مهمّين. وبهذه الطريقة حافظ على توقير الناس له، وبقيت مكانته مصونة طيلة حياته. وقضية المضحك لم تحدث إلا في العقد الأخير من عمره، ولم تكن تحدث إلا مرة واحدة في السنة.

وقد توفي عبد العزيز بن سعود بهدوء وطمأنينة في الطائف في الحادي عشر من شهر نوفمبر سنة 1953م (الثاني من ربيع الأول 1373هـ)، ولُفَّ جسده بكفن بسيط. ثم دُفِنَ حسب الطريقة الإسلامية الصحيحة في قبر لا علامة له في عاصمته الرياض. واستراح هناك بعد حياة قدّم خلالها خدمة لا تضاهى لأمّته التي وحّدها وللإسلام الذي كان منطَلَقه. ولعلّ من آثار جزائه عند الله أنّ المملكة التي توحّدت تحت قيادته قد وُهِبَت ثروة لا تُتَصَّوّر وحكومة مستنيرة. إن المملكة العربية السعودية تقف على مفترق طرق العالم ولها من الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية ما لم يكن لها في أيّ وقت مضى. وإن توحيدها وتحقيق الكرامة لشعبها بقيادة ابن سعود الملهمة في فترة حاسمة من تاريخنا من الأمور التي تدلّ على إرادة الله جلّت قدرته.





المَلاحِق

الملحق الأول

حكام آل سعود وسنوات حكمهم

الحاكم	الهجري	الميلادي
محمد بن سعود	1139 - 1179 هـ	1726 - 1765 م
عبد العزيز بن محمد بن سعود	1179 - 1218 هـ	1765 - 1803 م
سعود بن عبد العزيز	1218 - 1229 هـ	1803 - 1814 م
عبد الله بن سعود	1229 - 1233 هـ	1814 - 1818 م
فترة الحكم العثماني المصري	1233 - 1235 هـ	1818 - 1820 م
مشاري بن سعود	1235 هـ	1820 (بضعة شهور)
استمرار الحكم العثماني المصري	1235 - 1240 هـ	1820 - 1824 م
تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود	1240 - 1249 هـ	1824 - 1834 م
مشاري بن عبد الرحمن	1250هـ	1834م (40 يوماً)
فيصل بن تركي (الفترة الأولى)	1250 - 1254 هـ	1834 - 1839 م
خالد بن سعود	1254 - 1257 هـ	1839 - 1841 م
عبد الله بن ثنيّان	1257 - 1259 هـ	1841 - 1843 م
فيصل بن تركي (الفترة الثانية)	1259 - 1282 هـ	1834 - 1865 م
عبد الله بن فيصل (الفترة الأولى)	1282 - 1288 هـ	1865 - 1871 م
سعود بن فيصل	1288 - 1291 هـ	1871 - 1874 م

عبد الرحمن بن فيصل (الفترة الأولى)	1291 - 1293 هـ	1874 - 1876 م
عبد الله بن فيصل (الفترة الثانية)	1293 - 1305 هـ	1876 - 1887 م
فترة حكم محمد بن رشيد	1305 - 1307 هـ	1887 - 1889 م
عبد الرحمن بن فيصل (الفترة الثانية)	1307 - 1309 هـ	1889 - 1891 م
استمرار حكم آل رشيد	1309 - 1319 هـ	1891 - 1902 م
عبد العزيز بن عبد الرحمن الملك عبد العزيز)	1319 - 1373 هـ	1902 - 1953 م
سعود بن عبد العزيز	1373 - 1384 هـ	1953 - 1964 م
فيصل بن عبد العزيز	1384 - 1395 هـ	1964 - 1975 م
خالد بن عبد العزيز	منذ 1395هـ	1975م

الملحق الثاني

موجز لتاريخ آل سعود قبل الملك عبدالعزيز

تعود تسمية هذه الأسرة على اسم مؤسس الدولة السعودية الأولى محمد بن سعود بن محمد بن مقرن. وكان أحد أجدادها، مانع المريدي، ساكناً مع عشيرته في شرق الجزيرة العربية. وفي سنة 1446م أتى من هناك إلى قريبه ابن درع الذي كان يسكن في منطقة الرياض الحالية. فأعطاه ابن درع المكان الذي أصبح يسمّى الدرعية. وظلت أسرته في ذلك المكان تقوى أحياناً وتضعف أحياناً أخرى شأنها شأن كثير من الإمارات النجدية في تلك الفترة حتى أصبح محمد بن سعود أميراً للدرعيّة سنة 1726م. لكن القوة الفعلية للإمارة بدأت حينما اتفق هذا الأمير مع المصلح الديني الشيخ محمد بن عبد الوهاب سنة 1744م على نشر الدعوة التي نادى بها ذلك المصلح.

وقد جرى الدارسون على تقسيم تاريخ آل سعود إلى ثلاثة أدوار. الدولة السعودية الأولى وتبدأ بتاريخ الاتفاق المذكور وتنتهي باستسلام الإمام عبد الله بن سعود لإبراهيم باشا سنة 1818م. والدولة السعودية الثانية وتبدأ بنجاح الإمام تركي بن عبد الله آل سعود في الاستيلاء على الرياض وإجلاء القوات التركية منها سنة 1824م وتنتهي بجلاء الإمام عبد الرحمن بن فيصل سنة 1891م. والدولة السعودية الثالثة وتبدأ باستيلاء الملك عبد العزيز على الرياض سنة 1902م.

ولقد تلا اتفاق الأمير محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب انضمام بعض البلدان النجدية على الدولة الجديدة طائعة مختارة. لكن بلداناً أخرى رفضت الانضمام إلى هذه الدولة وحاربتها. وكان أشهر الأمراء المعارضين لها في نجد دهام بن دوّاس أمير الرياض الذي ظلّ يحاربها حوالي ثمانية وعشرين

عاماً. لكن الأمير محمد بن سعود لم يتوف سنة 1765م إلا وقد شمل نفوذ دولة الدرعية عدة أقاليم من نجد. وقد خلفه في الحكم ابنه عبد العزيز الذي كان من أعظم الحكام الذين ظهروا في جزيرة العرب عبر التاريخ من حيث المهارة العسكرية والقدرة الإدارية والعدل والتديّن. وقد اتسع نفوذ الدولة في عهده اتساعاً عظيماً، فشمل مناطق نجد والأحساء وعسير وأجزاء من الحجاز وساحل الخليج العربي. وتمكنت جيوشه من صد حملات ولاة العراق العثمانيين ضدها، كما قامت بهجمات متعددة على الأراضي العراقية. وفي سنة 1803م دخلت جيوشه مكة المكرمة دون إراقة دماء. لكن في نفس هذه السنة قام أحد المأجورين العراقيين باغتياله في مسجد الدرعية. وخلفه في الحكم ابنه سعود الذي واصل جهود أبيه في توسيع نفوذ دولة الدرعية ونشر المبادئ التي قامت تلك الدول على أساسها. وقد نجح في مسعاه حتى أصبح لا يخرج عن نفوذ دولته من جزيرة العرب كلّها إلا مناطق معينة من اليمن وعمان وحضرموت والكويت. وكانت بعض القبائل في كل من العراق والشام تدفع الزكاة إليه.

وحين استولى الإمام سعود بن عبد العزيز على الحجاز كلها زاد حماس السلاطين العثمانيين ضد دولته وصمموا على محاربتها بكل ما يستطيعون فأمروا حاكم مصر، محمد علي باشا، بتجهيز حملة قوية لاستعادة الحرمين من آل سعود والقضاء على دولتهم. ووصلت تلك الحملة إلى الحجاز سنة 1811م، فتكبدت خسائر فادحة في بداية الأمر. لكنها نجحت بعد ذلك في إدخال المدن الحجازية الكبيرة دون مشقة لتواطؤ شريف مكة معها ضد آل سعود. وبينما كانت قوات محمد علي باشا تواصل حروبها في منطقة عسير وتتلقى الهزيمة إثر الهزيمة هناك توفي الإمام سعود بن عبد العزيز سنة 1814م. وخسر السعوديون بوفاته قائداً من أمهار القادة العسكريين الذين أنتجتهم الجزيرة العربية. وخلفه في الحكم ابنه عبد الله الذي لم يكن له من السمعة الحربية مثل ما كان لأبيه سعود. وقد توصل إلى صلح مع طوسون بن محمد علي. لكن محمد علي نفسه لم يقبل بالصلح، وأرسل حملة أخرى بقيادة ابنه إبراهيم. ورغم ما أبداه أنصار الإمام عبد الله بن سعود من صمود وبسالة فقد نجح إبراهيم في تقدّمه عبر

نجد. وأخيراً وصل بقوّاته إلى الدرعية ذاتها وحاصرها أكثر من ستة شهور دارت خلالها معارك عنيفة بين الجانبين. وكانت الإمدادات تصل إلى إبراهيم يوماً بعد يوم حتى اضطر الإمام عبد الله بن سعود في نهاية الأمر إلى الاستسلام له سنة 1818م. وأخذ ذلك الإمام إلى مصر، ثم بعث به من هناك إلى عاصمة الدولة العثمانية حيث حوكم محاكمة صورية وأعدم في نفس تلك السنة.

ولم يف إبراهيم باشا بما تعهد به للإمام عبد الله بن سعود، بل قام بتعذيب وقتل عدد من علماء الدين وزعماء البلاد، كما قام بتهديم بلدة الدرعية. وكان من الإجراءات التي اتخذها أن بعث كل من وقعت عليه يده من آل سعود وآل الشيخ إلى مصر. ثم غادر نجداً عائداً إلى بلاده سنة 1819م. وبانتهاء الدولة السعودية ورحيل إبراهيم باشا بقواته عن نجد دبّت الفوضى فيها وضعف الأمن بدرجة كبيرة. فاستغل محمد بن مشاري بن معمّر الوضع، وبدأ يعيد بناء الدرعية ليقيم فيها دولة تحت زعامته. وأخذ بعض أهالي تلك المدينة يعودون إليها. وكان ممن قدم إليها تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود وأفراد من أسرته الذين هربوا من الدرعية عند استسلام الإمام عبد الله بن سعود لإبراهيم باشا. لكن إمارة ابن معمّر لم تعمّر طويلاً. ذلك أن مشاري بن سعود قد هرب من حراسه في طريقه إلى مصر وعاد على نجد، فجمع له أنصاراً وفاجأ ابن معمّر في الدرعية واستولى على مقاليد الأمور فيها. وعين تركي بن عبد الله أميراً على الرياض. ثم تمكن ابن معمّر من مفاجأة مشاري بن سعود، وقبض عليه وبعثه إلى الحامية العسكرية الموجودة في عنيزة حيث توفي هناك. لكن تركي بن عبد الله لم يقف مكتوف اليدين، بل جمع أنصاره هاجم ابن معمّر وقبض عليه وأعدمه. وقد دارت حروب بين تركي وبين قوات محمد علي كان النصر في نهايتها حليفاً له سنة 1824م. وبعد أقل من خمس سنوات كانت نجد والأحساء وأجزاء من ساحل الخليج العربي القريبة من عمان تحت نفوذه.

وفي عام 1825م تمكن مشاري بن عبد الرحمن آل سعود من الهرب من مصر والعودة إلى نجد، حيث أكرمه خاله الإمام تركي غاية الإكرام. وبعد عامين من هذا التاريخ قدم من مصر إلى نجد فيصل بن تركي الذي أصبح الساعد الأيمن

لأبيه. لكن مشاري بن عبد الرحمن كان يطمع في الحكم فخرج على خاله وحاول أن يحصل على تأييد أهل نجد له ففشل، وهرب إلى الحجاز. ثم طلب العفو من الإمام تركي فعفا عنه وأبقاه لديه مكرماً في الرياض. لكن شهوة الحكم لم تفارق نفس مشاري. وحين كان فيصل بن تركي على رأسه قواته يعالج مشكلة في المنطقة الشرقية من البلاد دبّر مشاري مؤامرة أدت إلى اغتيال الإمام تركي بن عبد الله سنة 1834م. واستولى مشاري على مقاليد الأمور في الرياض.

وما أن علم فيصل بن تركي باغتيال أبيه حتى عاد بقواته من المنطقة الشرعية بسرعة وحاصر مشاري بن عبد الرحمن. وبعد أربعين يوماً فقط من مقتل الإمام تركي قتل مشاري، وأصبح فيصل بن تركي حاكماً للبلاد. لكن لم يمر عامان على توليه الحكم حتى قدمت حملة عسكرية جديدة من مصر على رأسها خالد بن سعود، أخو آخر أئمة الدولة السعودية الأولى عبد الله بن سعود، وإسماعيل آغا. وقد اضطر فيصل أمام تقدم هذه الحملة الناجح أن يغادر مدينة الرياض. لكن النكسات التي حدثت لخالد بن سعود في جنوب نجد رجحت كفة الإمام فيصل حتى ضيق الخناق على خالد ومن معه في الرياض. وأمام هذا الوضع أرسل محمد علي حملة جديدة بقيادة خورشيد باشا لتدعيم موقف أنصاره في المنطقة. وكانت نتيجة الحروب التي دارت بين الطرفين في غير صالح الإمام فيصل بن تركي الذي اضطر إلى الاستسلام لخورشيد سنة 1839م. وأخذ فيصل مرة أخرى إلى مصر. ثم انسحب خورشيد مع أكثر قواته من نجد. وبانسحابه أصبح موقف خالد بن سعود ضعيفاً. فثار ضده عبد الله بن ثنيّان آل سعود، وانتصر عليه سنة 1843م. وهرب خالد بن سعود إلى الحجاز دون رجعة.

وفي عام 1843م تمكن فيصل بن تركي من المجيء إلى نجد، واخذ يسعى للوصول إلى حكم المنطقة. وقد تعاطف معه كثير من النجدين، فتقدم بقواته وحاصر عبد الله بن ثنيّان في الرياض حتى استسلم له. وظل الإمام فيصل بن تركي حاكماً للبلاد دون منازع حتى وفاته سنة 1865م.

وبعد وفاة الإمام فيصل بن تركي دبّ الخلاف بين أبنائه وتنازعوا على السلطة. فثار سعود بن فيصل على أخيه عبد الله، ودارت بينهما حروب كانت سجالاً بين الطرفين. وفي سنة 1871م تمكن سعود من إجبار عبد الله على مغادرة الرياض واستولى على هذه المدينة. لكن سعوداً توفي سنة 1874م، فخلفه أخوه عبد الرحمن في الحكم حتى سنة 1876م. ثم تنازل عبد الرحمن لأخيه عبد الله الذي ظلّ إماماً للبلاد حتى سنة 1887م. وفي هذه السنة تمكن محمد بن رشيد من الاستيلاء على الرياض، وأصبحت أكثر المناطق النجدية تحت نفوذه. وقد أخذ عبد الله بن فيصل وأخوه عبد الرحمن إلى حائل حيث بقيا هناك مدة سنتين. ثم عادا من هناك إلى الرياض، وتوفي عبد الله بعد أيام قليلة من وصولهما إليها. وأصبح عبد الرحمن بن فيصل إماماً للبلاد وإن كانت القوة الفعلية في نجد كلها لمحمد بن رشيد. وفي عام 1890م دارت معركة عنيفة في المليداء بين محمد بن رشيد وأهل القصيم. وكان النصر فيها حليف ابن رشيد. وبذلك انهارت معنوية الإمام عبد الرحمن بن فيصل وترك الرياض. وبعد محاولات عسكرية غير ناجحة قرر أن يجلو بأسرته من نجد سنة 1891م. وأصبح محمد بن رشيد حاكم نجد غير المنازع.

ولقد استقر المقام للأسرة السعودية أخيراً في الكويت. أما محمد بن رشيد فقد توفي سنة 1897م وخلفه في الحكم ابن أخيه عبد العزيز بن متعب بن رشيد. ولم يمر على حكمه أربعة أعوام حتى استطاع سميّه عبد العزيز بن عبد ارحمن آل سعود الاستيلاء على الرياض مبتدئاً بذلك خطواته نحو حكم ملكته المترامية الأطراف.

الملحق الثالث

حكام آل رشيد وسنوات حكمهم

عبد الله بن علي بن رشيد	1251 - 1263 هـ	1835 - 1847 م
طلال بن عبد الله	1263 - 1283 هـ	1847 - 1866 م
متعب بن عبد الله	1283 - 1285 هـ	1866 - 1868 م
بندر بن طلال	1285 - 1289 هـ	1868 - 1872 م
محمد بن عبد الله	1289 - 1315 هـ	1872 - 1897 م
عبد العزيز بن متعب	1315 - 1324 هـ	1897 - 1906 م
متعب بن عبد العزيز بن متعب	1324 هـ	1906 - 1907 م
سلطان بن حمود بن عبيد	1324 - 1326 هـ	1907 - 1909 م
سعود بن حمود	1326 هـ	1909 م
سعود بن عبد العزيز ابن متعب	1326 - 1338 هـ	1909 - 1919 م
عبد الله بن متعب	1338 - 1339 هـ	1919 - 1920 م
محمد بن طلال بن نايف	1339 - 1340 هـ	1920 - 1921 م

الملحق الرابع

المعارك والحوادث المهمة في عهد الملك عبد العزيز

1318 هـ (1901م)	معركة الصريف بين الشيخ مبارك الصباح أمير الكويت وبين الأمير عبد العزيز بن متعب بن رشيد حاكم نجد.
1319 هـ (1902م)	استيلاء عبد العزيز بن سعود على الرياض، ومعركة الدلم بينه وبين ابن رشيد.
1322 هـ (1904م)	استيلاء ابن سعود على مدينتي عنيزة وبريدة في القصيم، ووقوع معركتي البكرية والشنانة.
1324 هـ (1906م)	معركة روضة مهنّا ومقتل عبد العزيز ابن رشيد.
1325 هـ (1907م)	معركة الطرفية بين ابن سعود وبين سلطان بن حمود بن رشيد.
1328 هـ (1910م)	معركة هدية بين جابر بن مبارك الصباح وسعدون باشا زعيم المنتفق، واستيلاء ابن سعود على الحريق.
1331 هـ (1913م)	استيلاء ابن سعود على الأحساء.
1333 هـ (1915م)	معركة جراب بين ابن سعود وبين سعود بن عبد العزيز بن رشيد، ومعرك كنزان بين ابن سعود وبين قبيلة العجمان.
1337 هـ (1919م)	معركة تربة بين عبد الله بن الشريف حسين وبين سلطان بن بجاد.

1339 هـ (1920م)	معركة الجهراء بين سالم بن مبارك الصباح وبين الدويش.
1340 هـ (1921م)	استيلاء ابن سعود على حائل.
1341 هـ (1922م)	إنهاء ابن سعود لإمارة آل عائض وضمه لبلادهم.
1343 هـ (1923م)	منح أول امتياز للتنقيب عن الزيت في المنطقة الشرقية.
1343 هـ (1924م)	استيلاء ابن سعود على الطاف ومكة المكرمة.
1344 هـ (1925م)	استيلاء ابن سعود على المدينة المنورة وجدة.
1344 هـ (1926م)	المناداة بابن سعود ملكاً على الحجاز.
1347 هـ (1929م)	معركة السبلة بين ابن سعود وبين الإخوان.
1348 هـ (1930م)	اجتماع الملك عبد العزيز بملك العراق فيصل بن الحسين.
1351 هـ (1932م)	ثورة حامد بن رفادة، وتسمية ابن سعود بملك المملكة العربية السعودية. وثورة الأدارسة
1352 هـ (1933م)	إعلان الأمير سعود بن عبد العزيز ولياً لعهد المملكة، ومنح أرامكو امتياز التنقيب عن الزيت.
1352 هـ (1934م)	بدء الحرب بين المملكة واليمن.
1353 هـ (1935م)	محاولة اليمنيين اغتيال الملك عبد العزيز في المسجد الحرام.
1365 هـ (1945م)	اجتماع الملك عبد العزيز بالرئيس روزفلت وتشرشل والملك فاروق في مصر.
1373 هـ (1953م)	وفاة الملك عبد العزيز

الملحق الخامس

الرجال الذين اشتركوا مع ابن سعود في الاستيلاء على الرياض سنة 1902 (1319هـ)

إبراهيم بن محيذف

إبراهيم النفيسي *

ثلاّب العجالين الدوسري

حزام العجالين الدوسري

حشاش العرجاني

حترش العرجاني

زيد البفشيني السبيعي

زيد بن زيد

سالم الأفيجخ

سطام أبا الخيل

سعد بن بخيت *

سعد بن جيفان

سعد بن عبيد

عبد الله الجطيلي

عبد الله بن جلوي *

سعد بن هديب

سعيد بن سلطان الدوسري

سلطان (خادم الملك)

شويع بن شداد السهلي

صالح بن سبعان

طلال بن عجرش

عبد العزيز الربيع *

عبد العزيز بن عبد الله بن تركي آل سعود

عبد العزيز بن مساعد بن جلوي *

عبد اللطيف المعشوق

عبد الله أبو ذيب السبيعي

عبد الله بن جريس

محمد بن جمّاع

محمد بن صالح بن شلهوب *

محمد بن عبد الرحمن بن فيصل (أخو الملك عبد العزيز)

عبد الله بن خنيزان	محمد المعشوق
عبد الله بن شاطر الدوسري	محمد الوبير الشامري
عبد الله بن صنيتان آل سعود	محمد بن هزاع
عبد الله بن عثمان الهزاني	مسعود المبروك
عبد الله بن عسكر	مطلق بن جفال
عبيد (أخو شغوا الدوسري)	معضد بن خرصان الشامري
عبيد بن صالح العويبيل	مناور العنزي
فرحان آل سعود	منصور بن حمزة المنصور
فهد بن إبراهيم بن مشاري آل سعود	منصور بن فريج
فهد بن جلوي	ناصر بن فرحان آل سعود *
فهد بن شعيل الدوسري	نافع الحربي
فهد المعشوق *	يوسف بن مشخص

وكان الرجال الذين صحبوا ابن سعود من الكويت قد اختيروا من قبائل مختلفة، كما هي العادة البدوية عند اختراق أراض يحتلها الأعداء. وكان كل فرد من قبيلة يحمي المجموعة من قبيلته التي قد تكون معادية لأنها لن تلحق ضرراً برجالها. ومع أنه لم يكن معهم إلا أربعون بعيراً فإن العادة جرت أن يكون للراكب رديف على ظهر بعيره في مثل هذه الحالة.

* الذين وضعت على آخر أسماؤهم هذه العلامة (*) هم الذين تسلقوا سور الرياض مع ابن سعود.

الملحق السادس

هجرة الإخوان المشهورة

ارتبطت حركة الإخوان بإنشاء هجر استقر فيها الأفراد المنتمون إلى تلك الحركة. وكان لكل قبيلة هجرها الخاصة بها. والهجر التي نتجت عن حركة الإخوان كثيرة جداً. ولعلّه من المناسب أن يذكر هنا ما كان منها مشهوراً من حيث الأدوار التي قام بها زعماؤها في تاريخ الفترة التي يتناولها هذا الكتاب. وقد ذكرت هنا مرتّبة أبجدياً حسب اسم القبيلة ثم اسم الهجرة مع ذكر زعيمها.

القبيلة	الهجرة	زعيمها
حرب	البرود	نايف بن مضيّان
	دخنة	عايد البهيمة
	الشبيكية	هندي الذويبي
	الغوارة	حجاب بن بخيت
	قبة	عبد المحسن الفرم
الدواسر	الحمر	هذال بن وقيان
	مشيرفه	مناحي بن حفيظ
سبيع:	الحسي	فدغوش بن شويه
	الخضر	الضويري بن جفران

القبيلة	الهجرة	زعيمها
السهول	المشاش	مناحي بن جلعود
شمّر	الأجفر	نداء بن نهير
	أم القلبان	غضبان بن رمال
	العقلة	حواس بن طواله
الظفير:	الشعيبي	عجمي بن سويط
عتيبة	الحفيرة	مناحي الهيضل
	ساجر	ذعار بن ربيعان
	سام	سلطان أبا العلا
	الصوح	سلطان الغربي
	عرجا	قطيم الحبيل
	عروى	حشر بن مقعد بن حميد
	عسيلة	غازي النوم
	الغطغط	سلطان بن بجاد
	كبشان	سلطان أبو خشيم
	اللبيب	عبد المحسن بن بدر الهيضل
	مصدّة	خالد بن جامع
	نفي	عمر بن ربيعان
العجمان	الصرّار	حزام بن حثلين
	العيبنة	نايف بن حثلين



القبيلة	الهجرة	زعيمها
عنزة	بيضا نثيل	خلف العواجي
	الشعيبية 1	شارع بن مجلاد
	الشعيبية 2	فرحان بن مشهور
العوازم	ثاج	مساعد الملعبي
	عتيق	فلاح بن جامع
قحطان	الرين السفلى	سلطان بن سفران
	الرين العليا	هذّال بن سعيدان
	الهياثم	فيصل بن حشر
مطير	الأرطارية	فيصل الدويش
	التامرية	يعقوب الحميداني
	الحسو	جميعان بن ضاوي
	قرية السفلى	هايف الفغم
	قرية العليا	تريجيب بن شقير
	اللصافة	جاسرين لامي
	وضاح	منيف بن قطيم

الملحق السابع

رسائل متبادلة بين الملك عبد العزيز وبين الرئيسين روزفلت وترومان حول فلسطين

في الرابع عشر من أكتوبر سنة 1938م نشرت وزارة الخارجية الأمريكية بياناً أوضحت فيه موقف حكومة الولايات المتحدة من الأحداث الجارية في فلسطين حينذاك. وقد عبرت في بيانها عن تأييد أمريكا لتقدم الوطن القومي اليهودي في فلسطين؛ مشيرة على الدور القيادي الذي لعبه الأمريكيون تفكيراً وتمويلاً من أجل إنشاء ذلك الوطن وتقدمه.

وحين علم الملك عبد العزيز بذلك البيان بعث رسالة إلى الرئيس روزفلت عن طريق القائم بأعمال المفوضية الأمريكية في القاهرة هذا نصها:

"فخامة الرئيس. لقد اطلعنا على ما نشر عن موقف حكومة الولايات المتحدة الأمريكية الخاص بمناصرة اليهود في فلسطين ونظراً لثقتنا في محبتكم للحق والعدل، وفي تمسك الشعب الأمريكي بالتقاليد الديموقراطية الأساسية المبنية على تأييد الحق والعدل ونصرة الشعوب المغلوبة، ونظراً للصلات الودية القائمة بين مملكتنا وحكومة الولايات المتحدة نودّ أن نلفت نظركم، يا فخامة الرئيس، إلى قضية العرب في فلسطين وحقوقهم المشروعة فيها. ولدينا ثقة تامة في أن بياننا سيوضح لكم وللشعب الأمريكي قضية العرب العادلة في تلك البلاد المقدسة.

لقد ظهر لنا من البيان الذي نشر عن الموقف الأمريكي أن قضية فلسطين قد نظر إليها من وجهة نظر واحدة، هي وجهة نظر اليهود الصهاينة، وأهملت وجهات نظر العرب. وقد لاحظنا من آثار الدعايات اليهودية الواسعة الانتشار

أن الشعب الأمريكي الديموقراطي قد ضلّل تضليلاً كبيراً أدّى إلى اعتبار تأييد اليهود في سحق العرب في فلسطين عملاً إنسانياً. ومع أن هذا ظلم موجّه ضد شعب مسالم يعيش في بلاده فإن الفلسطينيين لم يفقدوا الثقة في عدالة الرأي العام الديموقراطي في العالم كافة وفي أمريكا خاصة. وإني لواثق من أن حقوق العرب في فلسطين إذا اتضحت لفخامتكم وللشعب الأمريكي فإنكم ستؤيدونها حق التأييد.

إن الحجة التي اعتمد عليها اليهود في ادعاءاتهم بشأن فلسطين هي أنهم استوطنوها من الزمن القديم وأنهم تشتتوا في بلاد العالم المختلفة، وأنهم يودّون أن يوجدوا لهم مكان تجمّع في فلسطين يمكنهم أن يعيشوا فيه بحريّة. ويستندون في عملهم على وعد تلقّوه من الحكومة البريطانية يسمّى وعد بلفور.

أما دعوى اليهود التاريخية فإنه لا يوجد ما يبرّرها لأن فلسطين كانت وما زالت مسكونة بالعرب خلال الفترات التاريخية المتعاقبة، وكان الحكم فيها لهم. وإذا استثنينا الفترة التي أقامها اليهود فيها، والمدة التي سيطرت فيها الإمبراطورية الرومانية عليها، فإن سلطان العرب على فلسطين كان منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر. وكان العرب في كل فترات وجودهم محافظين على الأماكن المقدّسة، معظمين لوضعها، محترمين لقدسيتها، قائمين بشؤونها بكل أمانة وإخلاص. ولما امتد الحكم العثماني على فلسطين كان النفوذ العربي مسيطراً، ولم يشعر العرب أبداً ان الأتراك كانوا قوة مستعمرة في بلادهم، وذلك لما يلي:

1- وجود الرابطة الدينية.

2- شعور العرب بأنهم شركاء للأتراك في الحكم.

3- كون الإدارة المحلية للحكم في أيدي أبناء البلاد أنفسهم.

فيما ذكر يتبين أن دعوى اليهود بحقهم في فلسطين، استناداً إلى التاريخ، لا حقيقة لها لأن اليهود إذا كانوا قد استوطنوا فلسطين مدة معينة بصفته مستولين عليها فإن العرب قد استوطنوها مدة أطول بكثير من تلك، ولا يمكن

أن يعتبر استيلاء شعب على بلد من البلدان حقاً طبيعياً يبرّر مطالبته به. ولو أخذ بهذا المبدأ في الوقت الحاضر لحق لكل شعب أن يطالب بالبلدان التي سبق له أن استولى عليها بالقوة في فترة معينة. وذلك سيؤدي إلى تغييرات مذهلة في خريطة العالم مما لا يتلاءم مع الحق ولا مع العدل أو الإنصاف.

أما بالنسبة لدعوى اليهود الأخرى التي يستدرّون بها عطف العالم فهي أنهم مشتتون ومضطهدون في بلدان مختلفة، وأنهم يودّون أن يجدوا مكاناً يأوون إليه ليأمنوا من الظلم الذي يواجهونه في كثير من البلدان. والمهم في هذا الأمر أن يفرّق بين قضية اليهود أو اللاسامية في العالم وبين مسألة الصهيونية السياسية. وإذا كان المقصود العطف على اليهود المشتتين فإن فلسطين بلاد صغيرة، وقد استوعبت عدداً كبيراً منهم يفوق ما استوعبه أي بلد من بلدان العالم إذا قورنت مساحتها بمساحات الدول الأخرى التي يقيم اليهود فيها. وليس من الممكن أن تتسع مساحة ضئيلة كفلسطين لجميع يهود العالم حتى لو فرض أنها خالية من سكانها العرب (كما قال السيد مالكولم ماكدونالد في الخطاب الذي ألقاه مؤخراً في مجلس العموم البريطاني). فإذا قبل مبدأ بقاء اليهود الموجودين الآن في فلسطين فإن هذه البلاد قد قامت بعمل إنساني لم يقم بمثله غيرها. وترون، يا فخامة الرئيس، أنه ليس من العدل أن تسدّ حكومات العالم - ومن بينها الولايات المتحدة - أبوابها أمام هجرة اليهود وتفرض على فلسطين، البلد العربي الصغير، مهمة استيعابهم.

وأما إذا نظرنا إلى القضية من وجهة النظر الصهيونية السياسية فإن وجهة النظر هذه تمثل ناحية ظالمة غاشمة هدفها القضاء على شعب آمن مطمئن وطرده من بلاده بشتى الوسائل، وإشباع النهم السياسي والطمع الشخصي لقليل من الصهاينة. وأما استناد اليهود إلى وعد بلفور فإن ذلك الوعد كان جوراً وظلماً لبلاد مسالمة مطمئنة. وقد أعطي من قبل حكومة لم تكن تملك حين إعطائه حق فرضه على فلسطين، كما أن عرب فلسطين لم يؤخذ رأيهم فيه ولا في إجراءات الانتداب الذي فرض عليهم، كما وضّحه مالكولم ماكدونالد وزير المستعمرات البريطانية. وكان ذلك برغم الوعود التي بذلها الحلفاء، وبينهم

أمريكا، لهم بحق تقرير المصير. ومن المهمّ أن نذكر بأن وعد بلفور كان مسبوقاً بوعد آخر من الحكومة البريطانية، بمعرفة الحلفاء، بحق العرب في فلسطين وفي غيرها من البلدان العربية الأخرى.

ومن هذا يتبين لكم، يا فخامة الرئيس، أن حجة اليهود التاريخية باطلة، ولا يمكن اعتبارها. أما دعواهم من الوجهة الإنسانية فقد قامت بها فلسطين أكثر من أي بلد آخر. ووعد بلفور الذي يستندون إليه مخالف للحق والعدل ومناقض لمبدأ تقرير المصير. وإن أطماع الصهاينة تجعل العرب في جميع الأقطار يخشون منها وتدعوهم إلى مقاومتها.

أما حقوق العرب في فلسطين فلا تقبل المجادلة؛ لأن فلسطين بلادهم منذ أقدم العصور، ولم يغادروها أو يطردوا منها. وكانت من الأماكن التي ازدهرت فيها الحضارة العربية ازدهاراً يدعو على الإعجاب. ولذلك فهي عربية أصلاً ولغة وموقعاً وحضارة، وليس في ذلك أية شبهة أو غموض. وتاريخ العرب مليء بالأحكام العادلة والأعمال النافعة.

وحينما قامت الحرب العالمية الكبرى انضم العرب إلى الحلفاء أملاً في الحصول على استقلالهم، وكانوا على ثقة تامة من أنهم سينالونه بعد الحرب للأسباب الآتية:

1. لأنهم اشتركوا بالحرب فعلاً، وضحوا بأنفسهم وأموالهم.
2. لأنهم وعدوا بذلك من قبل الحكومة البريطانية في المراسلات التي دارت بين ممثلها حينذاك ألبير هنري مكماهون، والشريف حسين.
3. لأن سلفكم العظيم، الرئيس ولسون، قرر دخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء نصرة للمبادئ الإنسانية الرفيعة التي كان من أهمها حق تقرير المصير.
4. لأن الحلفاء صرّحوا في نوفمبر سنة 1918م، عقب احتلالهم البلدان، أنهم دخلوها لتحريرها وإعطاء شعوبها حريتهم واستقلالهم.

وإذا رجعتم، يا فخامة الرئيس، إلى التقرير الذي قدّمته لجنة التحقيق التي أرسلها سلفكم الرئيس ولسون إلى الشرق لأدنى عام 1919م ستجدون المطالب التي طلبها العرب في فلسطين وسوريا حينما سئلوا عن المصير الذي يطلبونه لأنفسهم.

لكن العرب، لسوء الحظ، وجدوا بعد الحرب أنهم قد خدعوا، وأن الأماني التي وعدوا بها لم تتحقق. فقد قسمت بلادهم تقسيماً جائراً، ووضعت لهذه الأقسام حدود مصطنعة لا تبرّرها الحقائق الجغرافية أو القومية أو الدينية. وبالإضافة إلى ذلك وجدوا أنفسهم أمام خطر عظيم جداً، وهو خطر غزو الصهاينة لهم واستملاكهم لأغلى أراضيهم.

ولقد احتج العرب بشدة حينما علموا بوعد بلفور، كما احتجوا بشدة على نظام الانتداب، وأعلنوا رفضهم له وعدم قبولهم به منذ اليوم الأول. وكان تدفّق الهجرة اليهودية من أقطار مختلفة إلى فلسطين مدعاة لتخوّف العرب على حياتهم ومصيرهم فقامت ثورات واضطرابات عديدة في فلسطين سنة 1920 و1921 و1929م. وكان أهم تلك الثورات ثورة عام 1936م التي لا تزال نارها مستمرة حتى هذه الساعة.

يا فخامة الرئيس، إن عرب فلسطين ومن ورائهم سائر العرب، بل وسائر العالم الإسلامي يطالبون بحقوقهم ويدافعون عن بلادهم من الدخلاء عليها وعليهم. ومن المستحيل إقرار السلام في فلسطين ما لم ينل العرب حقوقهم ويتأكدوا من أن بلادهم لن تعطى إلى شعب غريب تختلف مبادئه وأهدافه وعاداته عن مبادئهم وأهدافهم وعاداتهم في كل شيء. ولذا فإننا نهيب بكم ونناشدكم، يا فخامة الرئيس، باسم العدل والحرية ونصرة الشعوب الضعيفة التي اشتهر بها الشعب الأمريكي النبيل أن تتكرموا بالنظر في قضية عرب فلسطين، وأن تساعدوا أولئك الذين يعيشون في سلام وهدوء رغم الهجمات الواقعة عليهم من قبل تلك الجماعات المتشرّدة من كل أجزاء العالم. إذ ليس من العدل أن يطرد اليهود من جميع أقطار العالم المختلفة وأن تتحمل فلسطين

الضعيف المغلوبة على أمرها هذا الشعب برمّته. ولا نشك في أن المبادئ السامية التي يعتنقها الشعب الأمريكي ستجعله يذعن للحق ويناصر العدل والإنصاف.

حرّر في قصرنا بالرياض في اليوم السابع من شهر شوال سنة سبع وخمسين بعد الثلاثمائة والألف الهجرية، الموافق تسعاً وعشرين نوفمبر سنة ثمان وثلاثين بعد التسعمائة والألف ميلادية.

عبد العزيز السعود

وقد ردّ الرئيس الأمريكي روزفلت على هذه الرسالة برسالة هذا نصّها:

"البيت الأبيض. واشنجتون 9 يناير 1939م الموافق 16 ذو القعدة 1357هـ.

حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن سعود ملك المملكة العربية السعودية.

صاحب الجلالة:

لقد سرّني كثيراً أن استلمت رسالة جلالتكم المؤرخة في 29 نوفمبر (1938) التي سلّمها القائم بأعمال المفوضية العربية السعودية بالقاهرة في 6 ديسمبر إلى القائم بأعمال المفوضية الأمريكية هناك بشأن قضية العرب في فلسطين.

ولا يخفى على جلالتكم أن الحالة الفلسطينية قد استرعت اهتمام الشعب الأمريكي طويلاً. ولذلك فإني قد قرأت رسالة جلالتكم التي كرستموها لهذا الموضوع باهتمام خاص.

إن اهتمام الشعب الأمريكي بفلسطين يرتكز على عدة اعتبارات؛ منها ما هو ذو صبغة روحية، ومنها ما هو ناشئ عن الحقوق التي نالتها الولايات المتحدة في فلسطين من الاتفاقية الأمريكية البريطانية الخاصة بالانتداب في فلسطين المؤرخة في 3 ديسمبر سنة 1924م.

وقد تبين موقف الولايات المتحدة بشأن فلسطين في بيان عام أصدرته وزارة الخارجية في 14 أكتوبر سنة 1938م والذي يسرّني أن أبعث لجلالتكم بصورة منه.

ويمكنني أن أضيف إلى ذلك أن هذه الحكومة لم تتخذ أبداً أي موقف مخالف لما تمسكت به منذ البداية تجاه هذا الموضوع.

صديقكم الحميم

فرانكلين روزفلت

وبعد ذلك بسنوات بعث الملك عبد العزيز إلى الرئيس روزفلت الرسالة التالية:

"من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل، ملك المملكة العربية السعودية، إلى فخامة الرئيس فرانكلين روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية.

صاحب الفخامة.

في هذه الحرب العالمية العظيمة التي تبذل فيها الأمم دماءها وتنفق ثرواتها دفاعاً عن الحرية والاستقلال، وفي هذه الحرب التي أعلنت فيها المبادئ السامية، التي يحارب من أجلها الحلفاء في ميثاق الأطلنطي، وفي هذا الصراع الذي أهاب فيه زعماء كل بلد بشعوبهم وأصدقائهم أن يقفوا معهم في صراعهم من أجل الحياة، راعني، كما راع المسلمين والعرب، ان تنتهز مجموعة من الصهاينة فرصة هذه الأزمة الصعبة فتقوم بدعاية واسعة النطاق تهدف بها إلى تضليل الرأي العام الأمريكي من جهة والضغط على دول الحلفاء في هذا الوقت الحرج من جهة ثانية لحملها على الخروج على مبادئ الحق والعدل والمساواة التي أعلنتها والتي تقاتل من أجلها، وهي حرية الشعوب واستقلالها. وقد أراد اليهود بعملهم هذا أن يحملوا الحلفاء على مساعدتهم في القضاء على العرب المسالمين الذين يعيشون في فلسطين منذ آلاف السنين. إنهم يريدون أن يخرجوا هذا الشعب النبيل من موطنه وأن يحلّوا اليهود من جميع الآفاق في هذا الوطن العربي الإسلامي المقدس. وأي ظلم فادح فاضح سوف ينتج - لا قدّر الله - عن هذا الصراع العالمي إذا أتى الحلفاء في آخره ليكلّلوا ظفرهم المقبل بإخراج العرب من ديارهم في فلسطين ويحلّوا محلّهم شذاء اليهود الذين لا تربطهم بهذا الوطن أية رابطة غير دعوى خيالية لا أصل لها في نظر الحق والعدل إلا ما يحيكونه بالخداع والغشّ؛ منتهزين بذلك فرصة وضع الحلفاء الحرج ومنتهزين فرصة جهل الشعب الأمريكي بحقيقة قضية العرب عامة وقضية فلسطين خاصة.

لقد كتبت لفخامتكم بتاريخ 7 شوال، 1357هـ (19 نوفمبر، 1938م) رسالة أوضحت فيها حقيقة الأمر بين العرب واليهود في فلسطين. وإذا رجع فخامتكم

إلى تلك الرسالة ستجدون فيها أنه لا يوجد أي حق لليهود في فلسطين وأن دعواهم أمر باطل لم يسجل تاريخ البشرية له مثيلاً. ففلسطين تخص العرب منذ فجر التاريخ، وهي في وسط الأقطار العربية. ولم يسكنها اليهود إلّا فترة من الزمن كان أكثرها مليئاً بالمجازر والمآسي. ثم أجلوا عنها. والآن يراد أن يعادوا إليها. وبهذا سيظلم اليهود العرب المسالمين الآمنين. تكاد السماوات يتفطرن وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هدّاً من كل ما يدّعيه اليهود في فلسطين دنياً ودينا.

وبعد أن أرسلت على فخامتكم رسالتي المشار إليها كنت أعتقد، ولا أزال أعتقد، أن حق العرب في فلسطين قد اتضح لكم؛ لأني لم أر في جوابكم لي بتاريخ 9 يناير سنة 1939م أنكم لاحظتم أية ملاحظة على الحقائق التي ذكرتها في رسالتي السابقة. وكنت أودّ ألا أضيع وقت فخامتكم وأوقات رجال حكومتكم بهذه القضية في هذا الوقت الحرج، لكن الأنباء المتواترة عن عدم تورّع هؤلاء الصهاينة في إثارة دعواهم الظالمة الخاطئة هي التي جعلتني أذكّر فخامتكم بحقوق المسلمين والعرب في البلاد المقدسة لتمنعوا هذا الظلم، وليكون بياني لفخامتكم عوناً على إقناع الأمريكيين بحقوق العرب في فلسطين، ويدرك الأمريكيون، الذين يريد اليهود الصهاينة بالدعاية أن يضلّلوهم، الحقائق الواقعة فيساعدوا العرب المظلومين، ويكلّلوا جهودهم الحاضرة بإقامة الحق، والعدل في كل أنحاء العالم.

وإذا تركنا جانباً العداوة الدينية بين المسلمين واليهود منذ ظهور الإسلام، والتي كان سببها تصرّف اليهود الغادر تجاه المسلمين ونبيّهم، وإذا تركنا كل ذلك جانباً ونظرنا إلى قضية اليهود من الناحية الإنسانية البحتة وجدنا الأمر كما ذكرته في رسالتي السابقة من أن فلسطين، باعتراف كل من عرفها من سائر أبناء البشر، لا تستطيع أن تحلّ المشكلة اليهودية. ولو فرضنا أن هذه البلاد تعرضت للظلم بكل صوره، وأن كل عرب فلسطين، رجالاً ونساء وأطفالاً قتلوا وأخذت أراضيهم وسلّمت كلها لليهود فإن ذلك لن يحل المشكلة اليهودية ولن تكون هناك أرض كافية لليهود. فلماذا إذن يراد القيام بهذا الظلم الفريد في تاريخ البشرية إذا علم بأنه لن يؤدي إلى نتيجة مرضية لقتلة المستقبل، ونعني بهم اليهود؟

لقد ذكرت لفخامتكم في رسالتي السابقة أننا إذا نظرنا إلى الموضوع من وجهة نظر إنسانية فسنجد أن البلاد الصغيرة المسمّاة فلسطين قد جلب إليها عند بداية الحرب الحالية حوالي أربعمائة ألف يهودي. وكانت نسبة اليهود إلى السكان عند نهاية الحرب العالمية الأولى 7% فقط. لكن هذه النسبة زادت حتى وصلت قبيل بدء الحرب الحالية إلى 29%، وما زالت هذه الزيادة مستمرة، ولا ندري أين ستتوقف، لكننا نعلم أن اليهود قبل الحرب الحالية بقليل يمتلكون 1,000,332 دونم من أصل 7,000.000 دونم من الأراضي الصالحة للزراعة في فلسطين جميعها.

إننا لا ننوي القضاء على اليهود ولا نطالب بذلك، ولكننا نطالب بألا يقضى على العرب من أجل اليهود. إن العالم يجب أن لا يضيق عن استيعاب اليهود، الحق لو أن كل بلد من بلدان الحلفاء تحمّل عشر ما تحملته فلسطين لأمكن حل المشكلة اليهودية وإسكانهم. وكل ما نرجوه الآن مساعدتكم في إيقاف سيل الهجرة بإيجاد مكان يعيش فيه اليهود غير فلسطين، ومنع بيع أراضيها عليهم منعاً باتاً. وبعد ذلك ينظر الحلفاء والعرب في موضوع تأمين إسكان أولئك اليهود الذين يمكن أن تتحمّلهم فلسطين من اليهود المقيمين فيها الآن.

وإني إذ أكتب إلى فخامتكم هذه الرسالة لواثق بأنكم ستقبلون رجاء صديق يشعر بأنكم تقدّرون الصداقة كما تقدّرون الحق والعدل والمساواة، ويعلم بأن أعظم أمل للشعب الأمريكي أن يخرج من هذا الصراع العالمي فرحاً بانتصار المبادئ التي يقاتل من أجلها، وهي تأكيد حرية كل شعب وإعطاؤه حقوقه. لأنه - لا سمح الله - لو أعطي اليهود بغيتهم فإن فلسطين ستبقى إلى الأبد مقراً لفتن واضطرابات كما حدث في الماضي. وسوف يسبّب هذا مشاكل للحلفاء عامة وصديقتنا بريطانيا العظمى خاصة. وأن اليهود، بما أوتوا من قوة في المال والعلم، قادرون على إثارة العداوة بين العرب والحلفاء في أية لحظة. وقد كانوا سبب كثير من المشاكل في الماضي.

وكل ما نحرص عليه الآن أن يسود الحق والعدل في حل المشاكل المختلفة التي ستظهر بعد الحرب وأن تكون العلاقات بين العرب والحلفاء دائماً أقوى وأحسن ما يكون.

وفي الختام أرجو أن تتقبلوا فائق تحياتي.

كتب في مخيمنا في روضة خريم في اليوم الخامس والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة اثنتين وستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية الموافق ليوم الثلاثين من شهر أبريل سنة ثلاث وأربعين بعد التسعمائة والألف ميلادية

عبد العزيز

وقد أجاب الرئيس روزفلت الملك عبد العزيز بالرسالة التالية:

"في 15 يوليو 1943م (19 رجب 1362هـ).

حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية - الرياض.

أيها الصديق العظيم:

لقد تلقيت رسالة جلالتكم المؤرخة في 30 أبريل 1943م المتعلقة بالشؤون التي تمس فلسطين، وإني أقدر روح الصداقة التي أبديتموها في إعرابكم لي عن هذه الآراء. ولقد لاحظت بعناية الآراء الواردة في هذه الرسالة، وكذلك تلك التي اشتملت عليها رسالة جلالتكم المؤرخة في 29 نوفمبر، 1938، والرسالة الشفوية التي حملها السيد كيرك، الوزير الأمريكي في نهاية زيارته الأخيرة إلى الرياض. ولا شك أن جلالتكم قد تلقيتم رسالتي التي بلغها السيد موس إلى سموّ الأمير فيصل. وكما ذكرت في تلك الرسالة يبدو لي أن من المرغوب فيه للغاية أن العرب

واليهود ممن تهمهم المسألة يتفاهمون تفاهماً ودياً فيما يتعلّق بفلسطين وذلك بمساعيهم الخاصة قبل نهاية الحرب، وإني لسعيد بهذه الفرصة، على أية حال، لأعيد تأكيدي بأن وجهة نظر حكومة الولايات المتحدة أن لا يتخذ أي قرار يغيّر الوضع الأساسي لفلسطين دون التشاور الكامل مع كل من العرب واليهود.

وفي الختام أكرّر التعبير عن أطيب التمنيات لدوام صحة جلالتكم والرفاه لشعبكم.

صديقكم المخلص

فرانكلين. دي. روزفلت

وقد كتب الملك عبد العزيز رسالة إلى الرئيس الأمريكي ترومان هذا نصّها:

بسم الله الرحمن الرحيم

في 18/11/1365 (15/ 9/ 1946)

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود

إلى حضرة صاحب الفخامة مستر هاري ترومان رئيس الولايات المتحدة

صاحب الفخامة:

رغبة مني في المحافظة على الصداقة التي تربط بين بلدينا وتقويتها بكل وسيلة ممكنة، وهي الصداقة التي قامت بين الرئيس الراحل روزفلت وبيني والتي تجددت بيني وبين فخامتكم، أكرّر التعبير عن شعوري في كل مناسبة أحس فيها أن هذه الصداقة بين الولايات المتحدة من جانب وبين بلادي والبلدان

العربية الأخرى من جانب آخر تتعرض للخطر لكي أزيل كل العقبات التي قد تكون في طريق هذه الصداقة.

ولقد كتبت للرئيس الراحل روزفلت ولفخامتكم في مناسبات سابقة عن الموقف في فلسطين، وكيف أن حقوق العرب الطبيعية فيها تعود إلى آلاف السنين، وأن اليهود ليسوا إلا معتدين بغاة ظلمة بدأوا عدوانهم بالتحدث باسم الإنسانية، ثم أعلنوا بوضوح عدوانهم بالقوة والعنف كما لا يخفى على فخامتكم وعلى الشعب الأمريكي. وعلى أية حال فإن مخططات اليهود غير مقصورة على فلسطين وحدها، بل تشتمل على الأقطار العربية المجاورة بما في ذلك أماكن في بلادنا المقدّسة.

ولذلك فقد دهشت للإذاعات الأخيرة التي نسبت إليكم في تأييدكم لليهود في فلسطين وتأييد فتح أبواب هجرتهم إليها بصورة تغيّر الوضع الأساسي فيها خلافاً للوعود السابقة. ولقد زادت دهشتي كثيراً لأن التصريح المنسوب إلى فخامتكم يتناقض مع البيان الذي طلبت المفوضية الأمريكية في جدة من وزارة خارجيتنا نشره في جريدة الحكومة الرسمية "أم القرى" باسم البيت الأبيض في 16 أغسطس سنة 1946م، والذي قيل فيه أن حكومة الولايات المتحدة لم تعمل أية اقتراحات لحلّ مشكلة فلسطين، وعبّرتم فيه عن أملكم في أن تحلّ بواسطة المحادثات بين الحكومة البريطانية ووزراء خارجية الدول العربية من جانب وبين الحكومة البريطانية والفريق الثالث من جانب آخر، وعبّرتم فيه عن استعداد الولايات المتحدة للمساعدة في إيواء المشرّدين ومن بينهم اليهود. ولذلك كانت دهشتي عظيمة حين قرأت التصريح المنسوب إلى فخامتكم ما جعلني أشك في أن يكون فعلاً تصريحاً لكم؛ لأنه يتناقض مع الوعود السابقة لحكومة الولايات المتحدة والتصريحات التي أعلنها البيت الأبيض.

وإني لعلى يقين من أن الشعب الأمريكي الذي بذل دمه وماله بحرية لمقاومة العدوان لا يمكن أن يؤيد العدوان الصهيوني ضد بلد عربي صديق لم يرتكب أي جرم سوى إيمانه القوي بمبادئ العدل والمساواة التي قاتلت من أجلها

الأمم المتحدة، ومنها الولايات المتحدة، والتي بذلتم أنتم وسلفكم من أجلها جهوداً عظيمة.

ورغبة مني في المحافظة على صداقة العرب والشرق تجاه الولايات المتحدة الأمريكية أوضحت لفخامتكم الظلم الواقع على العرب نتيجة مساعدة العدوان الصهيوني. وإني لواثق أن فخامتكم؛ ومن ورائكم الشعب الأمريكي، لا يمكن أن يناصر الحق والعدل والمساواة ويقاتل من أجلها في سائر أنحاء العالم ثم يمنعها عن العرب في بلادهم فلسطين التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم منذ العصور القديمة

وتقبلوا تحياتي

عبد العزيز

وكان ردّ الرئيس ترومان على هذه الرسالة ما يلي:

"واشنطن، 25 أكتوبر، 1946 (28/11/1365هـ)

حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية.

صاحب الجلالة:

لقد استلمت الآن الرسالة الخاصة بفلسطين التي تفضلتم جلالتكم بإرسالها إليّ بواسطة المفوضية العربية السعودية بتاريخ 15 أكتوبر 1946. وقد أوليت اهتماماً خاصاً بما ورد فيها من آراء. وإني لأقدّر بصفة خاصة الطريقة الصريحة التي عبرتم بها في رسالتكم. وإن صراحتكم لتتفق تماماً مع العلاقات الودية القائمة منذ زمن طويل بين بلدينا، ومع الصداقة الشخصية التي بين

جلالتكم وبين سلفي العظيم؛ وهي صداقة آمل أن تظل وتقوى. وإن العلاقات الطيبة بين بلدينا وموقف جلالتكم الوديّ الخاص ليشجعاني على أن ألفت نظركم إلى بعض الاعتبارات التي حدت بحكومتي إلى اتخاذ الموقف الذي اتخذته بالنسبة لموضوع فلسطين واليهود المشرّدين في أوروبا.

وإني لمتأكد من أن جلالتكم ستوافقون على أن الحالة المأساوية لبقايا ضحايا الاضطهاد النازي في أوروبا تمثل مشكلة تبلغ عظمتها وصعوبتها حداً لا يمكن أن يتجاهله أناس لديهم شيء من الإنسانية والنوايا الحسنة. وهذه المشكلة مشكلة عالمية. ويبدو لي أننا جميعاً علينا مسؤولية عامة لإيجاد حلّ يتيح لهؤلاء التعساء الذين يجب أن يغادروا أوربا، أن يجدوا أوطاناً جديدة يعيشون فيها بسلام وأمان. وبين الذين بقوا على قيد الحياة في مراكز المشرّدين في أوربا عدد من اليهود الذين يرثى لحالهم حيث أنهم يمثلون بقايا ملايين اختارهم قادة النازيين عمداً لاستئصالهم. وكثير من هؤلاء يتطلعون إلى فلسطين كجنة يأملون أن يجدوا فيها ملجأ بين شعب من ملّتهم ليبدؤوا حياة هادئة نافعة، ويساعدوا في تطوير الوطن القومي اليهودي.

وإن حكومة وشعب الولايات المتحدة قد أيدا فكرة الوطن القومي اليهودي في فلسطين منذ نهاية الحرب العالمية الأولى التي كان من نتائجها تحرير مساحات واسعة من الشرق الأدنى، بما فيها فلسطين، وإنشاء عدد من الدول المستقلة التي هي الآن أعضاء في الأمم المتحدة. وإن الولايات المتحدة التي بذلت دماءها ومواردها في سبيل كسب تلك الحرب لا يمكن أن تخلي نفسها من مسؤولية معينة تجاه الطريقة التي تحررت بها بعض المناطق أو تجاه مصير الشعوب التي تحررت في ذلك الوقت. وقد اتخذت موقفاً ما زلت تتبعه إلى الآن وهو أن هذه الشعوب يجب أن تهيأ لتكون لها حكومات ذاتية، وأنه يجب أن ينشأ وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين. وإني لسعيد بأن أذكر بأن معظم الشعوب المحرّرة أصبح أفرادها الآن مواطنين في دول مستقلة. وعلى أية حال فإن الوطن القومي لليهود لم يستكمل صفته بعد. وإنه لطبيعي، لذلك، أن تؤيد حكومتي في هذا الوقت دخول أعداد كبيرة من اليهود الذين ليس لهم مأوى في أوروبا إلى

فلسطين لا ليجدوا مأوى فيها فحسب بل ليساهموا بنشاطهم وذكائهم في بناء الوطن القومي لليهود.

وتماشياً مع السياسة التقليدية لهذه الحكومة بدأت منذ أكثر من سنة أراسل رئيس وزراء بريطانيا العظمى محاولاً أن أعمل على الإسراع بحل المشكلة الملحّة لليهود الباقين في المعتقلات بإرسال عدد كبير منهم إلى فلسطين. وكان اعتقادي، الذي ما زلت أتمسك به والذي يشاركني فيه عدد كبير من أبناء بلادي، ألا شيء يخفف من آلام هؤلاء اليهود أكثر من التصريح العاجل بإدخال مئة ألف منهم على الأقل إلى فلسطين. ولم يتوصل إلى قرار بالنسبة لهذا الاقتراح، لكن حكومتي لا تزال تأمل أنه من الممكن مواصلة السير حسب الخطوط التي أوضحتها لرئيس الوزراء. وفي الوقت نفسه لا بد، بطبيعة الحال، من بذل جهود خاصة لفتح أبواب بلدان أخرى، بما فيها الولايات المتحدة، لأولئك التعساء الذين أتى عليهم الشتاء الثاني بلا مأوى منذ نهاية الحرب. وقد أعلنت من جانبي بأني مستعد لأن أطلب من الكونجرس، الذي لا بد من موافقته حسب دستورنا، إصدار تشريع خاص يسمح بأن تقبل هذه البلاد عدداً من هؤلاء الأشخاص زيادة عما يسمح به قانون الهجرة.

وبالإضافة إلى ذلك فإن حكومتي كانت، مع بعض الحكومات الأخرى، مهتمة ببحث إمكانيات توطين المشرّدين المضطرين إلى الهجرة من أوروبا في أقطار مختلفة خارجها. وكان مما أثلج صدورنا بهذا الصدد أن بعض الزعماء العرب قد أظهروا استعداد بلادهم للمساهمة في هذا المشروع الإنساني بقبول عدد معيّن من هؤلاء الأشخاص في بلادهم.

وإني أعتقد مخلصاً انه من الممكن الوصول إلى حلّ مرض لمشكلة اللاجئين حسب السياسة التي ذكرتها آنفاً. وفيما يختص باحتمال استعمال اليهود القوة والعنف ضد الأقطار العربية المجاورة، حسب ما جاء في رسالتكم، فإنه يمكنني أن أؤكد بأن هذه الحكومة تقف ضد كل اعتداء من أي نوع، واستعمال الإرهاب لأغراض سياسية. وفوق هذا يمكنني أن أضيف بأنني مقتنع أن زعماء اليهود المسؤولين لا يفكرون في اتباع سياسة عدوانية ضد الأقطار المجاورة لفلسطين.

ولا يمكنني أن أتفق مع جلالتكم بأن تصريحي في 4 أكتوبر غير متفق بأي حال مع الموقف المتخذ في التصريح الذي نشر نيابة عني في 16 أغسطس. وفي التصريح الأخير عبّرت عن أملي في أن ينتج عن المحادثات المقترحة بين الحكومة البريطانية وممثلي اليهود والعرب حلّ معتدل لمشكلة فلسطين فتتخذ خطوات مباشرة لتخفيف وضع اليهود المشرّدين في أوروبا. ومن المؤسف أن هذه الآمال لم تتحقق. فالمحادثات بين الحكومة البريطانية وممثلي العرب، كما فهمت، قد أجلت إلى ديسمبر دون إيجاد حلّ لمشكلة فلسطين ودون اتخاذ خطوات لتحسين وضع المشرّدين اليهود في أوروبا.

وفي هذه الحالة بدا من الواجب عليّ أن أعلن، بقدر ما يمكن من الصراحة، خطورة الأمر، وأبدي آرائي حول كل من الاتجاه الذي يمكن التوصل به إلى حلّ مبني على العقل والرغبة المخلصة، والخطوات المباشرة التي يجب أن تتخذ.

هذا هو ما أدريت به في بياني بتاريخ 4 أكتوبر.

ولم أستطع أن أفهم لماذا يشعر جلالتكم بأن هذا البيان كان مناقضاً للوعود السابقة أو البيانات التي أدلت بها هذه الحكومة! ولعله من المستحسن أن يتذكر هنا بأن هذه الحكومة عندما أوضحت موقفها في الماضي من موضوع فلسطين قد أكدت بأنها لن تقوم بأي عمل قد يدلّ على عداء للشعب العربي، وأن رأيها، أيضاً، أن لا يكون هناك أي قرار بالنسبة للوضع الأساسي في فلسطين دون مشاورات سابقة مع كل من العرب واليهود.

ولا أعتبر حثي لقبول عدد معلوم من اليهود المشرّدين في فلسطين أو تصريحاتي بالنسبة لحل مشكلة فلسطين بأية حال يمثلان عملاً عدائياً للعرب. وكان، ولا يزال، شعوري بالنسبة للعرب عندما أدليت بهذه البيانات شعور صداقة تامّة. وإني لأشجب أي نوع من أنواع النزاع بين العرب واليهود. وإني لمقتنع بأن كلا الشعبين لو تناولا مشاكلهما بروح الوفاق والاعتدال لأمكنهما حلّها بطريقة تكفل الفائدة الدائمة لهما.

بالإضافة إلى ذلك فإني لا أشعر بأن بياناتي تمثل بأية طريقة إخفاقاً من جانب هذه الحكومة في الوقوف دون تأكيداتها من أنه يجب، في نظرها، أن لا يكون هناك قرار بالنسبة للوضع الأساسي في فلسطين دون التشاور مع كل من العرب واليهود. وقد تمت عدة مشاورات خلال السنة الحالية مع كل من العرب واليهود.

وإذ لا يغرب عن البال مقدار الأهمية العظيمة لبلادكم وبلادي في حلّ المشاكل المتعددة التي أوضحتها سابقاً أنتهز هذه الفرصة لأعبر عن أملي الكبير في أن جلالتكم، الذي يتمتع بشهرة فذّة في العالم العربي، سيستعمل نفوذه العظيم ليساعد في المستقبل القريب على إيجاد حلّ عادل ودائم. وإني لحريص على أن أعمل كل ما أستطيع للمساعدة في الموضوع. ويمكنني أن أؤكد لجلالتكم أن حكومة الولايات المتحدة وشعبها مستمران في الاهتمام بمصالح العرب ورخائهم انطلاقاً من تقدير قيمة صداقتهم التاريخية.

وإني لأنتهز هذه الفرصة، أيضاً، لأرفع لجلالتكم تحياتي الشخصية الحارة وأطيب تمنياتي لدوام صحتكم ورفاه جلالتكم وشعبكم.

مع خالص تحيات

هاري. اس. ترومان

وقد ردّ الملك عبد العزيز على الرئيس ترومان بالرسالة التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم

في 7/12/1365 (1 نوفمبر 1946)

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود

إلى حضرة صاحب الفخامة المستر هاري ترومان رئيس الولايات المتحدة

صاحب الفخامة:

لقد تلقيت بتقدير عميق رسالتكم التي بعثتموها إليّ بواسطة المفوضية الأمريكية بتاريخ 25 أكتوبر 1946. وإني لأقدر صداقة فخامتكم وصداقة الشعب الأمريكي لشخصي ولبلادي ولسائر الأقطار العربية. وتقديراً للروح الإنسانية التي أبديتموها فإني لم أعترض على أية مساعدة إنسانية يسديها فخامتكم أو الولايات المتحدة للمشرّدين من اليهود بشرط أن لا تكون هذه المساعدة موجهة للقضاء على شعب يعيش بسلام في وطنه. لكن اليهود الصهاينة استغلّا هذه الدعوة الإنسانية ذريعة لتحقيق أغراضهم العدوانية الخاصة ضد فلسطين.

وهذه الأغراض هي الاستيلاء على فلسطين بجعلهم أكثرية فيها وتهويدها، وإنشاء دولة يهودية فيها، وطرد سكانها الأصليين، واستخدامها قاعدة للعدوان ضد الدول العربية المجاورة، وتنفيذ كل مخططاتهم العدوانية.

إن المبادئ الديموقراطية والإنسانية التي قامت عليها دعائم الحياة في الولايات المتحدة تتنافى مع إكراه شعب مسالم يعيش آمناً في وطنه بإدخال عناصر أجنبية تتغلب عليه وتطرده من بلاده؛ مستعملة في ذلك تضليل الرأي العام العالمي باسم مبادئ الإنسانية والرحمة بينما تستعمل في نفس الوقت القوة لتحقيق أغراضها.

حينما قامت الحرب العالمية الأولى لم يكن في فلسطين أكثر من خمسين ألف يهودي. وقد حارب العرب بجانب بريطانيا العظمى وحليفتها الولايات المتحدة والحلفاء الآخرين، فقاتلوا مع الحلفاء تأييداً للحقوق العربية ومساندة للمبادئ التي أعلنها الرئيس ولسون، خاصة حق تقرير المصير. ومع ذلك فإن بريطانيا العظمى تبنت وعد بلفور وبسببه انتهجت سياسة قبلت فيها هجرة اليهود إلى فلسطين خلافاً لرغبات سكانها العرب وخلافاً لكل مبادئ الإنسانية والديموقراطية. وقد احتج العرب وثاروا، لكنهم كانوا دائماً يجابهون بأقصى ما يكون من القوة والشدة حتى أجبروا على غير ما يريدون.

ولما قامت هذه الحرب العالمية الأخيرة تكالبت قوات العدو على بريطانيا العظمى. ووقفت بريطانيا العظمى وحدها، وأظهرت من الثبات والصمود ما حاز إعجاب العالم كله. وقد أنقذ إيمانها وشجاعتها حقاً العالم من خطر عظيم. وفي تلك الأيام الحالكة وعد أعداء بريطانيا العظمى العرب بالقضاء على الصهيونية. وقد شعرتُ بحرج موقف بريطانيا في ذلك الوقت فوقفت إلى جانبها بثبات، ونصحت كل العرب بأن يخلدوا إلى السكينة، وأكدت لهم بأن بريطانيا وحلفائها لن يخونوا أبداً المبادئ الإنسانية والديموقراطية التي دخلوا الحرب من أجلها. فقبل العرب نصيحتي وساعدوا بريطانيا وحلفائها بكل ما استطاعوا حتى تحقق النصر. والآن يراد، باسم الإنسانية، أن يفرض على الأكثرية العربية في فلسطين شعب دخيل ليصبح هو الأكثرية ويحول الأكثرية الحالية إلى أقليّة. وأعتقد أن فخامتكم توافقونني في الاعتقاد بأنه لا يوجد شعب على هذه الأرض مستعد لقبول جماعة غريبة عنه في بلاده ترغب في أن تصبح أكثرية وتؤسس حكمها فوق تلك البلاد. والولايات المتحدة نفسها لم تسمح بقبول عدد من اليهود في أراضيها يساوي العدد الذي اقترحته لدخول فلسطين لأن إجراء كهذا سيكون مخالفاً لقوانينها الموضوعة لحمايتها وصيانة مصالحها.

وقد ذكرتم فخامتكم في رسالتكم أن الولايات المتحدة ستقف ضد أنواع العدوان والإرهاب لتحقيق الأغراض السياسية إذا اتخذت هذه الإجراءات من قبل اليهود. وقد عبّرتم، أيضاً، عن اعتقادكم بأن زعماء اليهود المسؤولين لا

يفكرون في اتباع سياسية عدوانية تجاه الدول العربية المجاورة. وبهذا الخصوص أودّ أن ألفت نظر فخامتكم إلى أن الحكومة البريطانية حقيقة هي التي أعطت وعد بلفور، ونقلت المهاجرين اليهود إلى فلسطين تحت حماية حرابها؛ وهي التي آوت ولا تزال تؤوي زعماءهم وتمنحهم شفقتها ورحمتها ورعايتها. ورغم ذلك كله فإن القوات البريطانية في فلسطين تكتوي بنار الصهاينة كل صباح ومساء، ولم يتمكن زعماء اليهود من منع هذه الهجمات الإرهابية. ولذلك فإن كانت الحكومة البريطانية (المحسنة إلى اليهود) بكل الوسائل التي لديها غير قادرة على منع إرهاب اليهود فكيف يستطيع العرب أن يشعروا بالأمان من اليهود أو يثقوا فيهم حاضراً أو مستقبلاً؟ وأعتقد بأن فخامتكم توافقونني، بعد استعراض جميع الحقائق، بأن عرب فلسطين الذين يمثّلون الآن الأكثرية في بلادهم لا يمكن أبداً أن يشعروا بالأمان بعد دخول اليهود وسطهم، ولا يمكنهم أبداً أن يطمئنوا إلى مستقبل الدول المجاورة لهم.

وذكرتم فخامتكم، أيضاً، أنكم لا تستطيعون أن تفهموا شعوري بأن تصريحكم الأخير كان مخالفاً للوعود السابقة والتصريحات التي أدلت بها حكومة الولايات المتحدة، كما ذكرتم فخامتكم التأكيدات التي بذلت لي من أن الولايات المتحدة لن تقوم بأي عمل يغير الوضع الأساسي في فلسطين دون استشارة كلا الطرفين وإني لواثق بأن فخامتكم لا تنوون نقض عهد قطعتموه ولا ترغبون القيام بأي عمل عدائي ضد العرب. ومن أجل ذلك أستميحكم العذر بأن أعبر لفخامتكم بصراحة تامة بأن عملاً يجعل الأكثرية العربية في فلسطين أقليّة تغيير للوضع الأساسي فيها. وهذه هي القاعدة الأساسية للمشكلة كلها؛ لأن مبادئ الديموقراطية تقضي بأنه متى وجدت أكثرية في بلاد فإن حكومتها تكون للأكثرية لا للأقلية. فإذا فقد العرب نسبتهم العددية الحاضرة فقدوا حتماً ميزات تشكيل حكومتهم الخاصة. وأي تغيير أساسي أعظم من هذا التغيير؟ وهل يرضى الشعب الأمريكي أن يقبل في بلاده عناصر أجنبية بأعداد كافية لأن تكون أكثرية جديدة؟ وهل يمكن أن يعتبر عمل كهذا متمشياً مع مبادئ الإنسانية والديموقراطية؟

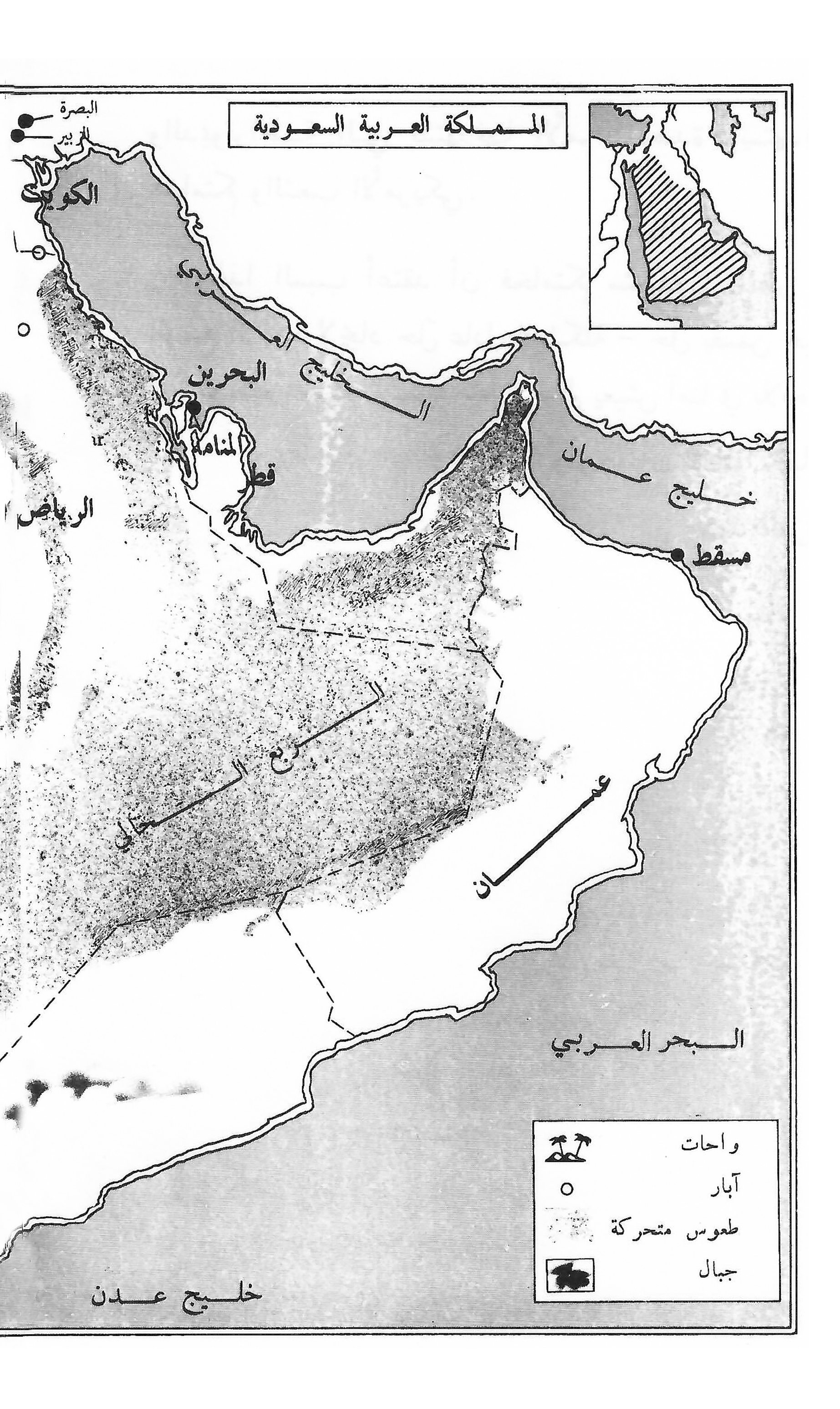
إني لواثق أن فخامتكم لا تنوون معاداة العرب، بل تودّون لهم الخير والرفاه. وإني أعتقد، أيضاً، أن الشعب الأمريكي لن يوافق على أعمال تخالف المبادئ الإنسانية والديموقراطية. واعتماداً على رغبتكم في الصراحة في علاقاتنا فإني مستعد أن أبذل كل ما أستطيع لإزالة كل مصادر سوء التفاهم بشرح الحقائق لا من أجل الحقيقة والعدل فحسب بل لتقوية روابط الصداقة بيني وبين فخامتكم والشعب الأمريكي.

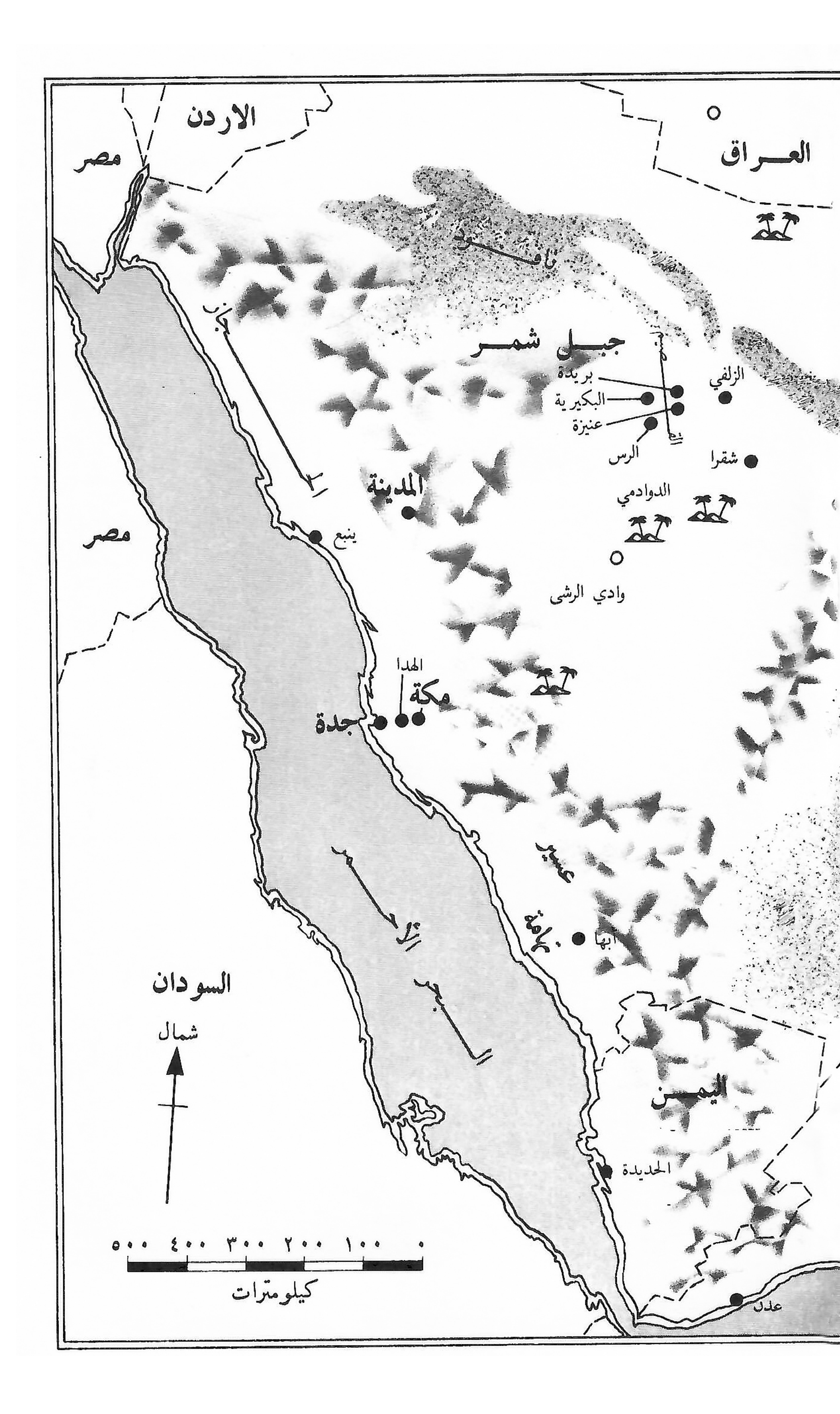
وأودّ أن تتأكدوا فخامتكم أن رغبتي في الدفاع عن العرب ومصالحهم لا تقل عن رغبتي في الدفاع عن سمعة الولايات المتحدة في العالمين الإسلامي والعربي وفي العالم أجمع. ولذلك تجدونني حريصاً جداً على أن أواصل جهودي لإقناع فخامتكم والشعب الأمريكي بالمبادئ الإنسانية والديموقراطية التي تستهدفها الأمم المتحدة ويستهدفها فخامتكم والشعب الأمريكي.

ولهذا السبب أعتقد أن فخامتكم ستعيدون النظر في الوضع الراهن لإيجاد حلّ عادل للمشكلة - حلٍّ يضمن حياة أولئك المشرّدين دون تهديد شعب مسالم يعيش آمناً في بلاده.

وأرجو أن تتقبلوا تحياتي

عبد العزيز


المملكة العربية السعودية
البصرة
الزبير
الكويت
البحرين
المنامة
قطر
الرياض
الخليج العربي
خليج عمان
مسقط
الربع الخالي
عمان
البحر العربي
خليج عدن
واحات
آبار
طعوس متحركة
جبال



الاردن
مصر
العراق
نافود
جبل شمر
بريدة
البكيرية
عنيزة
الزلفي
الرس
شقرا
الدوادمي
المدينة
ينبع
مصر
وادي الرشى
الهدا
مكة
جدة
عسير
تهامة
ابها
السودان
شمال
اليمن
الحديدة
عدن
٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠
كيلومترات

